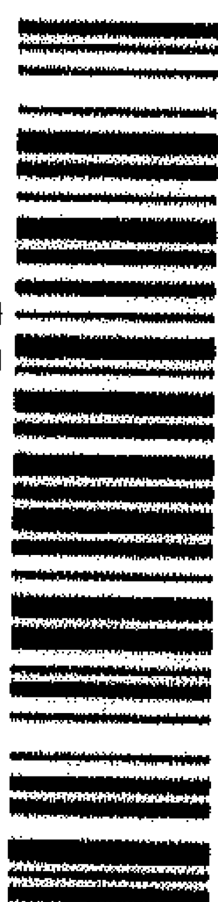
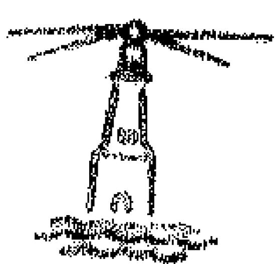
ملحمة المغازى الموريسكية

دراسة فى الأدب الشعبى المقارن

دكتور صلاح فضل







دار المعارف

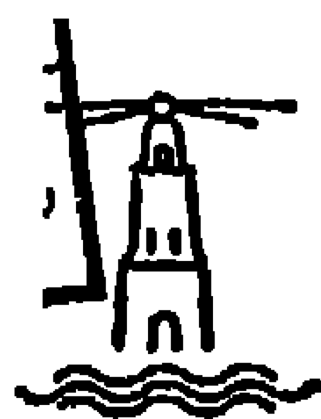
ملحمة المغازى الموريسكية

دراسة فى الأدب الشعبى المقارن

دكتور صلاح فضل

الطبعة الأولى

١٩٨٩



دار المعارف

الناشر: دار المعارف ـــ ١١١٩ كورنيش النيل ـــ القاهرة ـــ ج.م.ع

فهرس إجمالى للمواد

كلمة أولى

يتناول هذا البحث موضوعا من موضوعات الأدب المقارن الدقيقة، لأنه يتصل بمرحلة شجية من مراحل الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس، قبيل اندثار ثقافتها، وانبهام شخصيتها، وضياع ألقها بلحظات تاريخية وجيزة. إنه يتأملها ساعة غروبها؛ وهى المرحلة الموريسكية التى تبدأ عقب سقوط غرناطة آخر مدائن الأندلس عام ١٤٩٢م، وتنتهى بختام العقد الأول من القرن السابع عشر بالنفى الأكبر لبقايا شعب عمر القارة الأوربية بالفكر والفن والأدب، ونفخ بأنفاس قوية جذوة الثقافة العالمية، مما يجعل الحديث عنه، خاصة باللغة العربية، محفوفاً بعدد من المحاذير.

منها أنه غالبا ما يجنح إلى التلون بالعاطفية الحادة، فيقع فى بؤرة الشجن، وينحو إلى العويل والتهويل. وعلينا ــ لتفادى ذلك ــ أن نتذرع بالتزام الدقة المنهجية، وتمثل الإيقاع العلمى، واستحضار الفطنة ــ لا الفتنة ــ التاريخية. وسوف يسعفنا فى هذا النهج أن اكتشاف الموضوع وتجليته قد تمت على يد بعض المستشرقين، ممن ينتمون قوميا لهذا التراث فى أسبانيا، ويعملون اليوم بحمية متوازنة على تعرية جذوره، وتتبع امتداداته، وتحليل النسغ الذى سرى منه إلى عروق الفن والأدب الغربيين، مما يحسنون تبيانه، ويبرعون فى جلاء غوامضه، دون الوقوع فى لوثة العصبية الطامسة، ولا فورة الحماس الساذج. ويرتبط المحذور الثانى بما درجنا عليه فى دراستنا من عزل المستويات المتراكبة من التراث الثقافى، وتصنيفها إلى دينية وأدبية وشعبية، وتكريس الحواجز المانعة بينها، واعتبار أية محاولة للتمعن فى مناطق تداخلها، والغور إلى أبنيتها العميقة كسرا للنمط الدراسى المألوف، يثير الحساسية، ويدعو للشبهة؛ مع أن الشرط الأول للبحث الجدى اختبار هذه التصنيفات، وقياس

حدودها المتحركة؛ ولنضرب مثلا على ذلك باختلاط التاريخ بالأسطورة فى كتابات مؤرخينا الأقدمين، ومع أن الوعى العلمى والإنسانى لدى بعضهم قد جعلهم يعدون الأسطورة مادة منفية من حرم التاريخ، إلا أن الحس الأدبى لديهم لم يسقهم إلى إدراك كينونتها المستقلة، ووظيفتها الحيوية فى النسيج الثقافى العام، مما يضفى عليها مشروعية أدبية تستلزم الحفاوة والتقدير. وهذا ما ينطبق على موضوعنا الذى نقدم له الآن من المنظور المقارن؛ فغازى الرسول ﷺ أعز مشاهد التاريخ الإسلامى وأغلى صفحاته، ولكنها عندما تتحول – كما سنرى – فى الخيال الشعبى لهؤلاء المور يسكيين المنسحقين تحت وطأة تعصب محاكم التفتيش إلى مجموعة من الأناشيد الملحمية الحارة، يقوم بدور البطولة فيها على بن أبى طالب، فإن مأساة الشعب جعلته يحيل تاريخه إلى ملحمة، ينشدها استثارة لمكامن القوة، واستغاثة بسيوف الأجداد، وتفجيرا لأقصى إمكانات طاقته الروحية وخياله المبدع قبل أن يتناثر بددا فى آفاق الأرض. ومع أن ذلك قد وصل إلينا بلغة أعجمية وحروف عربية، فى الشكل المعروف «بالألخميادو» فإنه يضعنا أمام حقيقة بادهة لا نستطيع مداراتها، وهو أن هذا لم يحدث طفرة واحدة، بل كان استقطارا لعصير العصور، ومحصلة ناضجة لكروم معتقة خلال أجيال طويلة، بل إنها – كما تشير جميع القرائن الأدبية والتاريخية – قد تسربت أثناء تخمرها، ونضحت من وعائها الحضارى لتصبغ الملاحم الإسبانية العديدة التى كانت فى دور التشكل عندئذ بأصباغها الخاصة، وتجاوزت ذلك إلى بعض الملاحم الفرنسية الكبرى أيضا. هنا نجد أنفسنا أمام مفارقة عجيبة؛ هذا الأدب العربى الذى تعودنا أن نكرس خلوه من جنس الملاحم، ونتلمس لذلك العلل والأسباب، لم يكن بمفهومه الشامل، الذى لا يفصل بين المستويات، بريئا ولا فارغا، بل كان خصبا ومخصبا، خاصة عندما التحم بالتاريخ، واستثمر الأسطورة، واتكأ فى نموه على التراث الروحى الشعبى الأصيل.

ولعل التركيز على وحدة التراث القومى، مع تعدد أنساقه، تصبح خطوة أولى لإدراك الوحدة الشاملة للتراث الإنسانى وتشابكها عبر مراحل الصراع والتطور، مما يحملنا على فهم جدلية العناصر الداخلة فى تكوينه، وهذا أساس المنظور المقارن، الذى لا يعكف على إحصاء الديون التاريخية، ولا يسرف فى تعداد الأمجاد القومية،

بل يرى الإنجاز الحضارى فى نموه وتواشجه، إسهاما متصلا من الشعوب المختلفة، وحواراعميقا مستسرا لدخائلها، ممايبنغى أن يوصل لدينا الوعى الحقيقى بشرعية ملكيتنا للنهضة الحديثة، وفعاليتنا الموثقة فى صنع تاريخها، ومشاركتنا الدائبة فى تشكيل ملامحها العلمية والأدبية. عندئذ يتحول الأسى على الماضى إلى استشراف للمستقبل، ويتبين لنا أن ما ارتاده مبدعونا — فى أقسى الظروف — من مناطق الإلهام الكامنة فى تراثنا قد نفذ إلى أخصب عناصره وأجل مكنوناته.

دكتور صلاح فضل
دارة أندلسية، المعادى الجديدة
القاهرة ١٩٨٩

ملحمة الموريسكيين التاريخية

- مصطلحات ثلاثة .
- التدجين ونموذج «السيد» .
- الموريسكيون والمحنة الدينية .
- المأزق الحضارى .
- الوجه الآخر.
- التراث الموريسكى .

مصطلحات ثلاثة:

يميز الباحثون بين مرحلتين أساسيتين للدولة الإسلامية فى الأندلس، تتقاربان فى الطول، وتختلفان فى الاتجاه؛ إحداهما تبدأ عام ٧١١م عند مطلع الفتح العربى، وتمتد قرابة أربعة قرون، ويمكن اعتبار عام ١٠٨٥ الذى سقطت فيه كبرى العواصم الأولى وهى طليطلة إيذانا بانطوائها، أما المرحلة الثانية فتمتد منذ ذلك التاريخ حتى سقوط غرناطة آخر المعاقل عام ١٤٩٢م. وهناك جملة من المظاهر المتخالفة فى كلتا الفترتين فيما يتصل بمشكلة النسيج السكانى للأندلس، ففى مرحلة المد والسيطرة الإسلامية تكونت أقلية «مستعربة» تتشكل من الإسبان الذين حافظوا على عقائدهم وعاداتهم و تشريعاتهم، وعرفوا كيف يتعايشون مع الأغلبية الإسلامية التى كانت سريعة الانتشار والتأقلم.

أما فى المرحلة الثانية التى أخذ المد المسيحى فيها يعيد ظله على شبه الجزيرة الأيبيرية، فقد بزغت ظاهرة متطابقة مع الأولى، وإن كانت معاكسة لها فى الاتجاه، وهى تتعلق بالجماعات الإسلامية «المدجنة» التى ظلت تعايش المجتمعات المسيحية، محافظة على شريعتها القرآنية فى نطاق البلاد والممالك التى أخذت تنتقل من الحكم الإسلامى إلى المسيحى، فى كل من طليطلة وسرقسطة ولشبونة وبلنسية وقرطبة وإشبيلية، ثم غرناطة فى نهاية الأمر.

أما فى الفترة التى أعقبت ذلك، عندما وقعت شبه الجزيرة الأيبيرية بأكملها فى قبضة ملوك قشتالة وأراجون الموحدة، فقد نشبت مشكلة الأقلية «الموريسكية» منذ عام ١٤٩٢ حتى طردهم الأخير عام ١٦١٠، وهى أقلية لم تكف عن التمرد والثورة ومحاولة الانتقام لزوال الحكم الإسلامى، وظلت تدافع حتى الرمق الأخير عن لغتها وعاداتها وبقايا دينها الذى أخذ يتباعد تدريجيا عن مصدره الأصلى، وتنقطع وشائجه شيئا فشيئا عن منابعه الحقيقية حتى صدور قرار النفى الأخير. ومعنى هذا أنه قد

ظلت هناك أقليات دينية فى تلك البلاد من القرن الثامن الميلادى حتى السابع عشر؛ أى خلال تسعة قرون متواصلة، وإن كانت متخالفة فى طبيعتها وسمتها والنتائج المترتبة عليها فى كل مرحلة على حدة(١).

وتأسيسا على ذلك، هناك ثلاثة مصطلحات لابد أن نميز بينها بدقة قبل تناول موضوع الموريسكيين؛ لأنها تتصل بطبيعة العلاقة فى الأندلس بين العناصر السكانية والثقافية المكونة لها عبر المراحل التاريخية المختلفة.

المصطلح الأول هو «المستعربون Los Mozarbes» ويطلق على الإسبان المسيحيين الذين ظلوا يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية، محافظين على تراثهم المادى والفكرى، وإن كانوا قد اصطبغوا بالصبغة الحضارية الإسلامية وتكلموا العربية، مثلهم فى ذلك مثل أية أقلية دينية أو عنصرية عاشت فى رحاب الدولة الإسلامية.

والثانى هو «المدجنون Los Mudejares» وهم العرب المسلمون الذين آثروا البقاء فى بلادهم الأندلسية بعد غزو الإسبان المسيحيين لها، وعاشوا فى ظلهم يحتفظون بدينهم ولغتهم، على اختلاطها بالرومانسية الأعجمية، واضطرت الممالك الاسبانية لاحترام عقائدهم، والإفادة من معارفهم ومهاراتهم، خوفا من بقية بلاد الأندلس الإسلامية التى كانت لا تزال قائمة تربطها بالإمارات الإسبانية معاهدات صلح وحرب، ومواثيق دولية مما يتفق مع منطق العصر حينئذ. أما لفظ «مدجن» الذى أطلق عليهم فتاريخه غامض حتى الآن، ويبدو ـ كما يقول بعض المؤرخين ـ أنه استعمال دارج جرت به ألسنة المسلمين فى تسمية إخوانهم الذين بقوا فى بلادهم بعد استيلاء النصارى عليها، وهو مشتق من «دجن» أى أقام خاضعا، وكما انتقل لفظ «مستعرب» من ألسنة الناس إلى كتابات المسيحيين الذين أقاموا فى بلاد المسلمين وكتبوا بالعربية، ثم إلى كتاباتهم فى بلادهم، فكذلك حدث للفظ دجن، غير أنه

---

(١) انظر:

De Las Cagigas, Isidoro : Los Mudejares. Tomo 1. Madrid 1948. pag 46-47.

تحرف على ألسن الإسبان فى بعض الأحيان إلى دجل ودجر، وصار الموصوف به يسمى «مدجل» فى أحيان قليلة، و«مدجر» فى معظم الأحيان، وعلى هذه الصورة انتقل إلى الإسبانية الدارجة فقالوا « Mudejar »، واختفى أصله باختفاء اللغة العربية من ألسن المسلمين الذين تطاولت بهم السنون فى أرض النصارى، ولكن معناه ظل واضحاً، ففى القاموس المسمى « Vocabulista in Arabico » وقد ألف فى شرق الأندلس فى القرن الثالث عشر، يترجم لفظ « Mudejar » بما يفيد أنه معاهد؛ مما يدل على أن أولئك المسلمين الذين دجنوا كانوا يعتبرون معاهدين، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن اللفظ لابد أن يكون قد استعمل أولا فى إقليم «أرغون»، فهو على هذا من استعمالات يمنية الثغر الأعلى، ثم شاع استعماله بعد ذلك وأصبح يطلق على المسلمين الذين يبقون فى بلادهم بعد استيلاء النصارى عليها (٢).

أما المصطلح الثالث الذى يعنينا الآن فهو «الموريسكيون Los Moriscos » وهو ينطبق على نفس هؤلاء المدجنين؛ لكن فى مرحلة تاريخية تالية، وقد استعمل فى أول الأمر فى القرن الخامس عشر، أثناء الصراع الأخير بين المسيحيين ومملكة غرناطة، للدلالة على من كان يدخل فى طاعة ملوك النصرانية من أهل إقليم غرناطة، ثم أطلق على مسلمى غرناطة أجمعين عندما سقطت عام ١٤٩٢م فى أيدى ملكى قشتالة وليون، ثم حل محل لفظ «مدجن» خلال القرن السادس عشر فى الدلالة على من بقى من العرب فى الأندلس، سواء منهم من ظل على دينه أو من تنصر، وسواء كانوا يعيشون فى الممالك التى سيطر عليها المسيحيون من قبل، مثل بلنسية وأرغون وغيرهما، أم كانوا يعيشون فى الأندلس الجنوبى بأقاليمه المختلفة.

---

(٢) انظر د. حسين مؤنس، مقدمة كتيب «أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر» مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الخامس، ص ١٤٠/ ١٤١.

وكان هذا التميز واضحا لدى عامة الكتاب والمؤرخين الإسبان ، فنجد أحدهم يقول : «إن عرب بلنسية ، مثلهم في ذلك مثل من بقى فى قطلونية وأرغون وقشتالة ظلوا خاضعين لملوكنا ، حتى ارتفعت فى غرناطة أعلام إيزابيل وفرناندو فباستدار مؤشر الزمن عندنا معلنا انتهاء صفة المدجنين ، وبداية ظهور صفة أخرى هى التى تتضح فى لقب الموريسكيين» (٣) .

فإذا ألقينا نظرة خلال المرحلة الأولى والثانية على أوضاع المستعربين والمدجنين على التوالى وجدنا بينهما فروقاً جوهرية ، إلا أن الهوة التى تفصلهما عن أوضاع الموريسكيين فى المرحلة الثالثة شاسعة ورهيبة . فقد كان المستعرب الذى يعيش فى ظل سماحة الدولة الإسلامية يكن شعورا خفيا بأنه فى وطنه ؛ وأن قوانينه هى التى انحدرت إليه من أسلافه ، وأن الدين الجديد يحترم ثقافته وعاداته ويبقى على ولائه الدينى القديم وشخصيته القومية ، وعندما لم يكن قد أفاق بعد من دهشة الغزو فإن مؤرخه الأول ــ وكان قرطبيا ــ قد انتحل اسم «إيسيدورو مطران بيخا» لم يقف بسلسلة ملوك القوط عند «رودريجو» المعاصر للفتح كما يفعل المؤرخون الآن ، بل يذكر بعده مجموعة من «الكوندات» المستعربين ، على اعتبار أنهم ملوك قوطيون . وعلى العكس من ذلك فإن المدجن عندما ابتعدت عنه دار الإسلام افتقد شخصيته ، وأصبح يعيش فى محيط معادٍ له ، ولئن كان بوسعه حينئذ أن يظل فى أرض الكفار ، مؤمنا بما فطر عليه منذ ولادته ، إلا أنه قد حرم من مثل المجتمع الإسلامى ، وإذا استطاع أن يحتفظ بلغته ، فإنه سرعان ما اضطر إلى تعلم لغة أعدائه لتدبير شئون حياته اليومية ، ومهما جهد فى هذا المناخ فى الحفاظ على نظامه الشخصى فإنه كان يشعر فى كل ما يأتى من أقوال وأفعال بالاغتراب فى الملبس والمأكل والعادات ، كما أن أخلاقياته وقيمه كانت مضادة للمجتمع الجديد الذى أجبر على معايشته ، مما جعل مركب الاضطهاد يتفاقم لديه ويزيد من حدة شعوره بالغربة (٤) .

(٣) انظر :

Janer, Florencio : Condicion Social de los Moriscos de Espana. Madrid 1857. Pag 15

(٤) انظر نفس المصدر الوارد فى هامش رقم ١ ص ١١ .

ومن المفارقات الطريفة أن القواعد التى طبقت على هذا المدجن كانت مستقاة من قوانين أهل الذمة التى طبقت من قبل على المستعربين، فلم تفعل القوات المسيحية المنتصرة أكثر من تكييف موقفها لمواجهة المتطلبات الجديدة بتطبيق قواعد معاملة أهل الذمة على المدجنين، وحركة التدجين لم تكن فى جوهرها، كما يشهد المؤرخون الإسبان أنفسهم ـ سوى ترجمة مباشرة لإحدى التصورات الحضارية الماهرة فى الإسلام، إلا أن النسخ والترجمات والاقتباسات لا تكون عادة باعترافهم فى حيوية الأصل نفسه، فالشعور المدجن ولد بقوة الأحداث فى لحظتها، دون أن يكون استجابة لأصول قانونية منظمة، والحماية الإسلامية؛ أو الذمة، كانت تنبع بشكل مباشر من الفقه الإسلامى، أما الحماية المسيحية خلال التدجين فكانت تتوقف فحسب على إدراك الملك، أو على مصالح أحد السادة من رعاياه (٥)، من هنا فإن حقوق أهل الذمة المحفوظة فى كنف الدولة الإسلامية لم تلبث الأحداث أن برهنت على تآكلها وضياعها فى الإمارات المسيحية، ولولا هيبة الجوار ومواثيق الصلح لما بقى منها للمدجنين شىء.

---

(٥) المصدر السابق، ص ٩.



مغنية اندلسيه

التدجين ونموذج السيد :

كانت هناك منطقة مهيأة بطبيعتها لتصبح مهد حركة التدجين، وهى منطقة «أرغون» التى كانت آهلة من قبل بالمستعربين، ممن استطاعوا أن يخلقوا فيها مناخا توفيقيا بين الاتجاهات العربية والرومانية بمهارة تدعو للإعجاب، وقد كان «بنو قسيّ» الذين انحدروا مباشرة من أصلاب قوطية إسبانية مزيجا غريبا من المسيحية والإسلام، ومنهم موسى بن موسى الذى أعلن استقلاله بالمنطقة بمساعدة المستعربين فى أرغون، وأطلق على نفسه «الملك الثالث لإسبانيا» لإبراز طابعه الوسيط الثلاثى بين المسلمين والمسيحيين، وابنه «لب بن موسى»، أو «الملك لوبى» الذى بعثه إلى طليطلة ليبحث عن وسائل التصالح وإمكانية تكييف موقفه العسير بين الطرفين، كان كل ذلك تمهيدا لخلق جو من التواصل والاحتكاك الحميم الذى لم يكن له نظير مثلا فى منطقة «ليون»، التى كان ملوكها يعتبرون أنفسهم الورثة المباشرين للمملكة القوطية القديمة، ويطلقون على أنفسهم لقب الامبراطور، ولا فى منطقة قشتالة التى تولت الدفاع أولا أمام العرب، ثم لم تلبث أن انقلبت إلى الهجوم بعدوانية نشطة، مما جعلها أقرب إلى روح الصراع والعداء مع جيرانها بدلا من التصالح والتقارب.

وعندما أخذت كل من ليون وقشتالة تتقدمان فى السهول الوسطى الإسبانية كانت شبه خالية من السكان المسلمين، مما لم يضطرها إلى وضع مبادئ التعامل مع من بقى منهم، فهجرها من كان يعمرها، وأصبحت بالنسبة للمسلمين دار حرب، ومن ثم لم تنشب فيها مشكلة التعايش بين الجماعات المتباينة دينيا؛ إذ دفعت القوات المنتصرة فلولهم إلى الهجرة، وقضت تقريبا على من بقى منهم دون رحمة، فلم تكن إذن ممالك هذه السهول هى المهيأة لبدء حركة التدجين، وإنما مملكة أرغون التى

اتضحت فيها تلك الضرورة وأشبعت بشكل إيجابي واضح. وكان ذلك يتوقف على الظروف الجغرافية السياسية؛ فالملكية المسيحية الأرغونية التي ولدت متأخرة لم تستطع أن تتقدم بسرعة، إذ كانت تمنعها الدويلات الإسلامية، مثل بني تجيب وبني هود من النمو السريع، واستطاعت خلال فترة طويلة وبإصرار بالغ الحفاظ على مدينة سرقسطة الاستراتيجية، وإن كان هذا قد أدى إلى أن أصبح المسلمون في أرغون محاصرين بالمسيحيين من كل جانب، أي من ناحية قشتالة ونافارا وقطلونية، حتى انتشر حينئذ حديث منحول على النبي يقول «إن أفضل الثغور على وجه الأرض سيكون ثغراً بالأندلس، يحيط به العدو من الشرق والغرب والشمال والجنوب» وقد ظن الشراح أنه يشيربذلك إلى منطقة أرغون بالذات، ومن هنا كان الدفاع عنها شاقا أمام السياسة التوسعية الطموحة للممالك الإسبانية، وكان على السياسة العربية أن تحاول استغلال الخلافات بين هذه القوى من جانب، وأن تفيد من المستعربين الداخليين من جانب آخر لتطيل عمر دولتها بأقصى ماتستطيع، فلما سقطت هذه الدولة عام ١١١٨م لم يكن بوسع ساكنيها من المسلمين هجرتها، وقد ساعدت جماعات المستعربين على وضع شروط صلح مطمئنة لهم، وهكذا نشأت حركة المدجنين في النصف الأول من القرن الثاني عشر.

ويضرب المؤرخون مثلا على مدى إفادة القادة الإسبان من خبرة المستعربين بشئون الدولة الإسلامية، في سنهم للنظم والقوانين التي خضع لها المدجنون، بشخصية مشكلة، أصبحت فيما بعد رمزا أسطوريا للبطولة الملحمية، وهي شخصية «رودريجو دياث» الذي عرف باسم «السّيد القمبيطور»، والذي كان هو نفسه في إحدى مراحل حياته مستعربا، ثم لم يلبث عند غزوه لمدينة بلنسية أن وضع قواعد معاملة المدجنين بها (٦). فقد لجأ السيد بعد نفيه من مملكة قشتالة إلى بلاط بني هود في سرقسطة، وبالرغم من أن الوثائق التاريخية لم تحدد بدقة مدى معرفته بالثقافة

---

(٦) انظر عن شخصية السيد المقدمة الضافية التي كتبها الدكتور الطاهر أحمد مكي لترجمته ملحمة السيد، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ خاصة في صفحات من ٨٣ إلى ١٠٧.

العربية بشكل مباشر، إلا أننا نجد مصدرا عربيا فريدا هو ابن بسام فى ذخيرته يقول عنه :

«وكان هذا البائقة وقته فى درب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهى صرامته ، آية من آيات ربه ، إلى أن رماه الله سريعا بحتفه ، وأماته ببلنسية حتف أنفه ، وكان لعنه الله منصور العَلَم ، مظفرا على طوائف العجم ، لقى زعماءهم مرارا كغرسية المنبوز بالفم المعوج ، ورأس الإفرنج ، وابن رذمير ، فضلّ حد جنودهم ، وقتل بعدده اليسير كثير عددهم ، وكان ــ زعموا ــ تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجّب منها ويتعجب» (٦) .

وسنرى فيما بعد أن الملحمة التى كتبت عن بطولاته كانت وثيقة الصلة بالتراث الشعبى الملحمى العربى ، كما عرفه الموريسكيون ، إلا أن ما يعنينا فى هذا المقام الآن هو أن نشير إلى أن فترات إقامته فى بلاط بنى هود كانت تمتد لسنوات عديدة ؛ إذ كان من المألوف حينئذ استخدام مرتزقة مسيحيين والاعتماد عليهم فى الدفاع عن المدن الإسلامية . وقد دخل سرقسطة فى عهد المقتدر وقاد جملة معارك بعد وفاته لمناصرة ابنه الأكبر «المؤتمن» على أخيه ، وأقام هناك ست سنوات ، كان لها أثر بالغ فى أعماله بعد ذلك ؛ إذ كانت سرقسطة أهم مركز أتاح له فرصة التعرف من الداخل على مشاكل الحكومات الإسلامية من ناحية ، وتشريعاتها ونظمها فى معاملة الأقليات من ناحية أخرى . ولم تمض عدة سنوات على ذلك حتى كان «السيد» قد نجح فى فتح مدينة بلنسية عام ١٠٩٤ وتأصيل نظام التدجين فيها ، وقد ورد خلال تسليم المدينة المحاصرة ــ طبقا لروايات المؤرخين الإسبان ــ أنه منحها خمسة عشر يوما لطلب النجدة الخارجية ، ثم صبر عليها خمسا وعشرين يوماً آخرين حتى دخلها بجنوده ، دون أى التزام من جانبه تجاه سكانها ، إلا أنه جمع ممثليها ووضع معهم الشروط

---

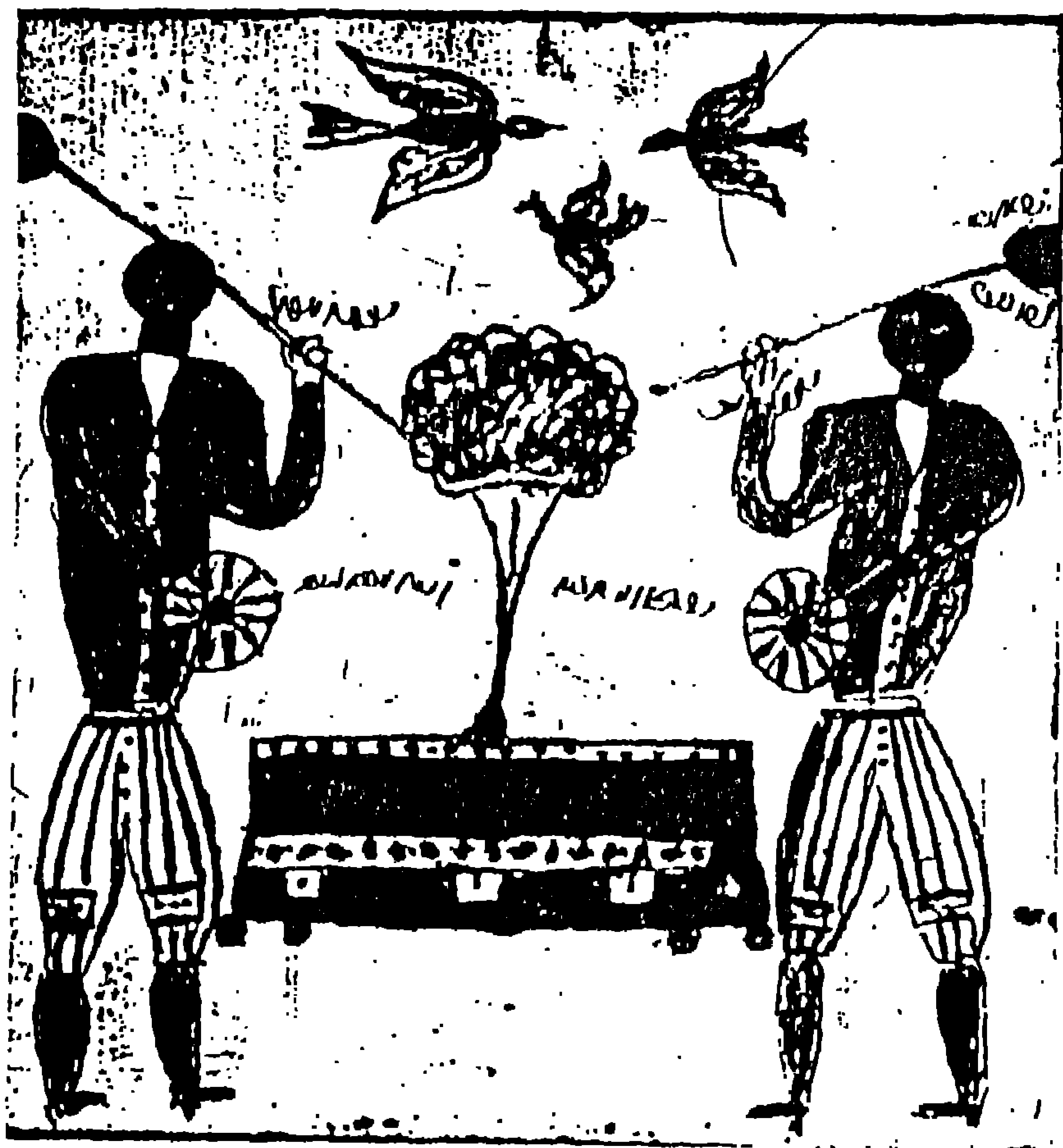
(٧) انظر: ابن بسام الشنتريني؛ أبو الحسن على (توفى عام ٥٤٢): الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس. بيروت ١٩٧٩ ــ القسم الثالث، المجلد الأول، ص ٩٩/ ١٠٠.

التالية : تحافظ المدينة المفتوحة على نظامها الإدارى ، وتتمتع بممارسة شعائرها الدينية وفتح مساجدها . ويظل القاضى الذى كان يتزعم الدفاع عنها ضده قائما بمنصبه دون أن يمس فى أهله أو ماله ، ولا يلزم الأهالى إلا بدفع العشر من أموالهم ، وتُعاد لهم جميع ممتلكاتهم المصادرة ، أما القوات الفاتحة فتظل معسكرة فى مخارج المدينة ، على الشاطئ الآخر للنهر ، حتى لا تستبيح حرمتها ، ويحرم عليهم دخول المدينة للبيع والشراء ، حتى لا تضطرب الأسعار وتعز الأقوات ، كما يحرم عليهم أن يتخذوا أسرى من العبيد أو الإماء المسلمين ، ويصل فى تحديد وجوب الالتزام بحسن معاملة أهل المدينة المفتوحة إلى درجة النص على أنه «عندما يمشى المسيحيون فى الشوارع فإنه يتعين عليهم إخلاء الطريق للمسلمين ومعاملتهم بكل احترام ؛ فمولانا السيد يأمرنا أن نشرفهم كما نشرفه هو ونشرف ابنه »،. ويتخذ إجراءات أمنية مشددة لحماية المسلمين ؛ إذ يختار حراس أسوار المدينة من المستعربين العالمين بأحوالها ، وتسد نوافذ الأبراج المطلة على المدينة حتى لا تكشف بيوتها ، ويتخذ مقامه خارج المدينة عند جسر القنطرة حتى لا يجرح شعور الناس بها . وهكذا تظل بلنسية ــ على حد وصفهم ــ مدينة إسلامية بإدارتها لا يتولى الفاتح سوى مهمة أمنها وحمايتها ، ويظل المتصرف فى مكوسها مسلما كما كان . ويتعهد السيد بنفسه برد أية مظلمة تقع ، ويجلس لذلك أيام الاثنين والجمعة فى ديوان المظالم حتى يتأكد من حسن الإدارة وانتشار العدل . وكل ذلك لم يكن يعرفه أى قائد إسبانى لم تتح له فرصة استقاء تشريعات معاملة أهل الذمة فى الإسلام ولم يلمس بنفسه كيفية سلوك المسلمين المتحضر مع الأعداء (٨) .

وبالرغم من أن هذه الصورة الوردية تخالف ما عرفته الدراسات التاريخية الموثقة عن عنف السيد وطغيانه ، ومصادراته بعد ذلك للأموال وسفكه للدماء وإباحته الحرمات على ما تتواتر به الأخبار ؛ إلا أنها تشير على أقل تقدير إلى مدى انعكاس التحضر المدجن على معاهداته و شروطه المكتوبة ، ومحاولته تقليد أساليب المسلمين فى

(٨) انظر المصدر السابق فى هامش رقم ١ ، الجزء الأول ، ص ١٣٢ / ١٣٤ .

معاملة الأعداء قبل أن تتغلب عليه طباع المغامر المفتون بالغنائم، مما يعد نموذجا لحركة التدجين ودورها فى التأثير الحضارى الذى مهد للتأثير الأدبى فى مستوياته المختلفة .



منكر ونكير

الموريسكيون والمحنة الدينية:

تنص المادة الرابعة من معاهدة تسليم غرناطة، المعقودة بين أبى عبد الله الصغير والملكين الكاثوليكيين الفاتحين على أنه «يتعين عليهما، ومن بعدهما سلالتهما، أن يسمحا للملك أبى عبد الله الصغير وشعبه أن يعيشوا دائما فى ظل الشريعة الإسلامية، دون المساس بسكناهم، ومساجدهم وأبراجهم، وسيأمران بالحفاظ على مواردهم، وسيحاكمون بموجب قوانينهم وقضاتهم، حسبما جرت عليه العادة، وسيكونون موضع احترام من قبل النصارى، كما تحترم عاداتهم وتقاليدهم إلى غير حين»(٩)، إلى جانب المواد الأخرى التى تنص على وجوب احترام جميع النظم والقوانين الإسلامية. بيد أنه لم يكد يمضى على ذلك عدة سنوات، حتى قاد الكاردينال «خيمينيس» عندما قدم إلى غرناطة عام ١٤٩٩م لتنصير أهلها حملة ضارية باسم الدين على عشرات الألوف من المسلمين، ثم أمر بجمع الكتب العربية من أهالى غرناطة وأرباضها، وصفت أكداسا فى ميدان باب الرملة؛ أعظم ساحات المدينة، ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف، وآلاف من كتب العلوم والآداب، وأضرمت النيران فيها جميعا، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب والعلوم الطبيعية، حملت إلى الجامعة التى أنشأها فى مدينة «ألكالا دى إيناريس»، أو قلعة عبد السلام كما كان يسميها العرب حينئذ، وتتراوح التقديرات فى عدد الكتب المبادة، وربما بلغت حسب التقدير المعتدل مائة وخمسة وعشرين ألف كتاب»(١٠).

---

(٩) انظر ترجمة لنصوص المعاهدة الكاملة فى كتاب الدكتور محمد عبده حتاملة: «التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكين»، عمان ١٩٨٠ ص ٢١ ومابعدها.

(١٠) انظر: محمد عبد الله عنان: «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين» القاهرة ١٩٦٦ ص ٣١٧/ ٣١٨.

ويقول المستشرق الإسباني «سيمونيت» إن الملكين الكاثوليكيين قد أمرا عقب تنصير المسلمين أن تؤخذ منهم كتب الشريعة والدين لكى تحرق فى سائر مملكة غرناطة، وألا يبقى لديهم سوى الكتب التى لا تتصل بالدين واللغة. وقد تجدد هذا الأمر عدة مرات، فأصدرت الملكة «خوانا» عام ١٥١١م أمرا ملكيا تلزم فيه جميع السكان الذين اضطروا للتنصر حديثا فى مملكة غرناطة أن يسلموا سائر الكتب العربية التى لديهم، سواء فى الدين والشريعة، أو كتب الطب والفلسفة والتاريخ وغيرها إلى قاضى الجهة، وذلك لكى يفحصها، وتحجز منها كتب الدين والسنة والتراث، وقد يرخص بعد ذلك بحيازة غيرها.

وقد امتد طرف من هذا الطغيان الفكري لمحاكم التفتيش وللملوك المتواطئين معها إلى مواطنيهم المسيحيين، فصدرت قرارات أخرى بمنع كتابة الروايات والقصص فى القارة الأمريكية المكتشفة عندئذ حديثا، حفاظا على المجتمع المسيحى ــ في ظنهم ــ من الفساد الذى تحدثه للعقيدة، وربما ترتب على ذلك أيضاً لون من تساهل السلطات إزاء تداول القصص والأشكال الروائية بين الموريسكيين، وعدم مطاردة محاكم التفتيش لها لما تتوهمه من دورها فى إضعاف العقيدة.

إلا أنه لم تلبث أن صدرت مجموعة من القوانين التى تستهدف محو شخصية الموريسكيين الإسلامية، وتجريد من بقى منهم فى الأندلس من جميع مظاهر انتمائه الدينى والثقافى، وقد جهدت الكنيسة فى صياغة هذه القوانين منذ عام ١٥٢٦م، ولكن الامبراطور كارلوس الأول أرجأ تنفيذها حتى صدرت فى منتصف القرن بقراراتها التنفيذية، وتنص على إجبار الموريسكيين على الحديث باللغة القشتالية، أى الإسبانية، فى مدى ثلاثة أعوام، وتحريم الحديث والقراءة والكتابة باللغة العربية فى السر والعلن، وبطلان العقود المكتوبة بها، ووجوب التسليم الفورى لجميع الكتب العربية لسلطات محاكم التفتيش فى غرناطة، وتحريم تفصيل الثياب الموريسكية الجديدة، مع السماح باستخدام الثياب الحريرية الموجودة عندئذ لمدة عام واحد فقط، والقطنية لمدة عامين، يحظر بعدها على النساء لبس الملحفة العربية، كما يحظر عليهن تغطية وجوههن على الطريقة العربية، وتحرم شعائر الاحتفالات والطقوس الإسلامية

فى الميلاد والزواج والموت. وتترك الأبواب مفتوحة أيام الجمع والأعياد، وخلال حفلات الزفاف لمراقبة ما يحدث داخلها، ويحرم إطلاق الأسماء العربية على المواليد الجدد، كما يحرم استخدام الحمامات العزبية ويتم هدمها فورا(١١).

وتحرص هذه القوانين كما نرى على استئصال الجذور الثقافية للشخصية الموريسكية، دون الاقتصار على الجوانب المتصلة بالعقيدة الدينية، فتحريم اللغة والملبس وبتر التقاليد الحيوية، ووضع نظم التجسس على الضمائر.، ومراقبة السلوك الشخصى، والتدخل السافر فى الحياة الخاصة للإنسان دون مراعاة لحرمة المسكن، إهدار لكل القيم التى تدعو إليها جميع الأديان، وإسقاط فاضح لحقوق المواطنة والإنسانية.

وتدل الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة على أن هذه الإجراءات، مع شدتها البالغة، لم تنجح على الإطلاق فى القضاء على الشخصية الموريسكية، كما أن كثيرا من المواطنين المسيحيين العاديين قد لقوا عنتا شديدا واضطهادا سافرا من نفس هذه السلطات المتجبرة لمحاكم التفتيش، فها هو المطران «جريرو» يصف الموريسكيين عام ١٥٦٥م بقوله: «إنهم خضعوا فى الظاهر للتنصير، ولكنهم لبثوا كفرة فى سرائرهم، وهم يذهبون إلى القداس تفاديا للعقاب، ويعملون خفية فى أيام الأعياد، ويحتفلون بيوم الجمعة أفضل من احتفالهم بيوم الأحد، ويستحمون حتى فى شهر ديسمبر، ويقيمون الصلاة خفية، ويقدمون أولادهم للتعميد خضوعا للقانون، ثم يغسلونهم فى البيوت لمحو آثار التنصير، ويجرون ختانهم، ويطلقون عليهم أسماء عربية، وتذهب عرائسهم إلى الكنائس فى ثياب أوربية، فإذا عدن إلى المنزل استبدلنها بثياب عربية، واحتفل بالزواج طبقا للمراسم الإسلامية».

ومن الناحية الاجتماعية فقد وصف سفير البندقية الموريسكيين عام ١٥٩٥م، أى بعد قرن كامل من سقوط غرناطة، بأنهم شعب ينمو باطراد فى العدد والثروة، وأنهم

Longas, Pedro : Vida religiosa de los Moriscos. Madrid 1915. pag XLV-XLVI.

لايذهبون إلى الحرب، ولكن يكرسون نشاطهم للتجارة وكسب الأرباح. وكذلك يذكر الكاتب الإسبانى الشهير «ميجيل دى ثير بانتيس ١٥٤٧ــ ١٦١٦» صاحب «دون كيخوتى» أن الموريسكيين يتكاثرون، وكلهم يتزوج، ولا يدخلون أولادهم قط فى سلك الكهنوت أو الجيش، ويقتصرون فى الإنفاق، ويكنزون المال، فهم الآن ــ على حد تعبيره حينئذ ــ أغنى الطوائف فى إسبانيا (١٢).

ومن يلقى نظرة فاحصة على مجموعة الوثائق الوفيرة، التى بقيت من آثار محاكم التفتيش الإسبانية، وعلى ما عثر عليه من كتب موريسكية أعجمية وإسبانية؛ أى سواء كانت مكتوبة بالحروف العربية أو اللاتينية، لا يبقى لديه أدنى شك فى أن هؤلاء الموريسكيين، بالرغم من المحنة العصيبة التى سلطت عليهم، قد حافظوا جهد طاقتهم على أدق التفاصيل الإسلامية فى الآداب والسلوك، وفى اللحظات الحاسمة فى الحياة من ميلاد وزفاف وموت، بشكل برهن على أنهم كانوا أشد حرصا بالتمسك الحرفى بمظاهر الانتماء الثقافى من كثير من المجتمعات الإسلامية التى كانت معاصرة لهم، وذلك كلون من رد الفعل ضد عمليات التنصير القسرى التى خضعوا لها فأدت إلى بروز إرادتهم الجماعية فى مواجهة التحدى حفاظا على مقومات الشخصية المهددة. كما يتبين من البحث العلمى أن القوى الضاغطة عليهم والتى كانت تعمل تحت ستار الدين لم تكن إلا التركة الثقيلة لعصور الإقطاع والظلم والاستبداد والديكتاتورية؛ إذ يعتبر تحالف أجهزة محاكم التفتيش مع الملوك والنبلاء والقادة العسكريين بدعوى الحمية الدينية والقومية أهم مظهر للممارسات الإقطاعية. وإذا كانت الأقلية الموريسكية قد تعرضت أكثر من غيرها لوطأة هذا العنف القاهر فإن بقية قطاعات الشعب المسيحى المسالم قد ذاقت بدورها صنوف الاضطهاد والعنف، وعبرت عنه بطريقة رافضة تجلت فى إرادة التعايش الصامت، والاحترام الدقيق للأقلية الصامدة، وعونها على تضميد جراحها، والحفاظ على تراثها، مما جعل القسس أنفسهم يعترفون باستحالة خروج الموريسكيين حقيقة عن الإسلام، فعكف بعضهم

---

(١٢) انظر المصدر المشار إليه فى هامش ١٠، صفحة ٣٧٨/ ٣٨١.

على تأليف مجلد ضخم عن حقائق ومظاهر الدين الإسلامى عند الموريسكيين ، لم يعتمد فيه إلا على مصادر تراثهم الذى خلفوه (١٣) .

وإذا كان بوسع الموريسكيين بهذه الطريقة ممارسة الشعائر الإسلامية مع إظهار الخضوع لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية كمجرد واجب اجتماعى ، فإنه من الممكن للباحث أن يتساءل عما إذا كان هذا الموقف على وجه التحديد ، إنكارا للإشكالية التى كانت تقتضى المواجهة ؛ أم أنهم قد جربوا فى ثوراتهم المتتالية المحبطة الطريقة المباشرة للحسم ، وانتهوا إلى استحالتها ، ولم تسمح لهم الظروف التاريخية التى تحكم مصائرهم إلا بنوع آخر من الحرب الباردة التى تظهر فى بعض النصوص المتداولة ، وتتجلى فى آلاف المواقف الصغيرة فى الحياة اليومية التى لا مناص من بروزها ، ولا سبيل فيها إلى إخفاء العقيدة الحقيقية ؛ بالرغم من جميع عيون محاكم التفتيش التى كانت تقف بالمرصاد لرصد وعقاب الحالات البينة ، وقمع أية محاولة للخروج على سياسة الإستيعاب التى وضعها المجتمع المسيحى لهم .

وتتضح إشكالية هذا الموقف فى تلك النصوص التى يقدم فيها الموريسكيون «التقية» باعتبارها قارب النجاة الوحيد لهم ، فعن طريقها فحسب كان يمكن لهم أن يعيشوا فى دار الحرب ، فنجد مثلا موريسكيا ممن هاجروا إلى «تونس» ــ وهو كاتب المخطوط رقم ٩٦٥٣ المحفوظ بمكتبة مدريد الوطنية ــ يقول «لقد اضطهد المسيحيون هذه الأمة الأندلسية ، بالسجن والتعذيب والقتل ، وقد تحملت كل ذلك بصلابة ، وحافظت على الإيمان الحقيقى ، وأظهرت شيئا وأضمرت فى سرائرها شيئا آخر ، وسخرت من الأكاذيب ، ومن الفئة الواهنة كما هو معروف » ، ويقول مؤلف المخطوط رقم ٩٦٥٤ بنفس المكتبة «هذه شريعة المسيحيين ، ونحن نرى الناس يتبعونها ، ونتظاهر أحيانا بأننا نتبعها ، لكن يعلم الله أننا نفعل ذلك وقلبنا مفعم

(١٣) انظر المصدر المشار إليه فى هامش ١١ عن الحياة الدينية للموريسكيين .

بالسخرية بهم والهزء منهم، وبودنا أن نثور عليهم، لولا مايوجه إلى صدورنا من خناجر»(١٤). وقد اعتمد هذا الموقف الذى يتذرع بالتقية على مهاد فقهى، تمثل فى مجموعة من الفتاوى الدينية التى أسعفهم بها قضاة العدوة القصوى من أهل المغرب والجزائر على عدة مراحل، وانتشرت بين الموريسكيين كالنار فى الهشيم، واختلف التزامهم بما ورد فيها طبقا لما تراعيه من مقتضيات شعورهم الوطنى والدينى؛ فقد آثر بعض الفقهاء فى البداية، ممن لم يكتو بنار المحنة، ولم يجرب عذاب فراق الدار والثروة والوطن، أن ينصحوهم بالهجرة من الأندلس، مشجعين بذلك عن غير قصد محاولات الكنيسة فى «تطهير» الأندلس من المسلمين، وتعرف هذه الفتوى باسم «اسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، ومايترتب عليه من العقوبات والزواجر»(١٥)، وهاك نصها:

المسألة: هل تجوز إقامة المسلم فى بلد غلب عليه النصارى؟ الحمد لله وحده، جوابكم يا سيدى رضى الله عنكم، ومتع المسلمين بحياتكم، فى نازلة، وهى أن قوما من هؤلاء الأندلسيين الذين هاجروا من الأندلس، وتركوا هناك الدار والأرضين والجنات والكرمات وغير ذلك من الأصول، وبذلوا زيادة على ذلك كثيرا من ناض المال، وخرجوا من تحت حكم الملة الكافرة، وزعموا أنهم فروا إلى الله سبحانه بأديانهم وأنفسهم وأهليهم وذراريهم، وما بقى بأيديهم أو أيدى بعضهم من الأموال، واستقروا بحمد الله سبحانه بدار الإسلام. تسخطوا وزعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيقة، وأنهم لم يجدوا بدار الإسلام، التى هى دار المغرب هذه، صانها الله وحرس

---

(١٤) انظر:

Cardaillac, Louis : Un aspecto de las relaciones entre Moriscos Y Cristianos : Polimica Y Taguiyya,

بحث منشور فى أعمال الندوة الدولية للأدب الأعجمى والموريسكى، ص ١١١ ــ ١١٢.

(١٥) صاحب هذه الفتوى هو الفقيه المغربى أحمد بن يحيى بن محمد الونشريشى، وقد أوردها فى مجموع الفتاوى التى صنفها عام ١٤٩٥م، انظر نشرتها، والمقدمة التى وضعها لها الدكتور حسين مؤنس، فى المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٢.

أوطانها ، ونصر سلطانها ؛ بالنسبة إلى التسبب فى طلب أنواع المعاش على الجملة ، رفقا ولا يسرا ولا مرتفقا ، ولا إلى التصرف فى الأقطار أمنا لا يقا ، وصرحوا فى هذا المعنى بأنواع من قبيح الكلام ، الدال على ضعف دينهم ، وعدم صحة يقينهم فى معتقدهم ، وأن هجرتهم لم تكن لله ورسوله ، كما زعموا ، وإنما كانت لدنيا يصيبونها عند وصولهم ، جارية على وفق أهوائهم ، فلما لم يجدوها وفق أغراضهم ، صرحوا بذم دار الإسلام وشأنه ، وشتم الذى كان السبب فى هذه الهجرة وسبه ، وبمدح دار الكفر وأهله ، والندم على مفارقته . وربما حفظ عن بعضهم أنه قال على جهة الإنكار إلى دار الإسلام ، التى هى هذا الوطن صانه الله ، إلى ها هنا يهاجر من هنايك ؟ ، بل من ها هنا تجب الهجرة إلى هناك ، وعن آخر منهم أنه قال : إذا جاز صاحب قشتالة إلى هذه النواحى نسير إليه فنطلب منه أن يردنا إلى هناك ، يعنى إلى دار الكفر ، ومعاودة الدخول تحت الذمة الكافرة كيف أمكنهم . فما الذى يلحقهم فى ذلك من الإثم ونقص رتبة الدين والجرحة ؟ .

الجواب عما سألتم عنه ، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق بفضله : «إن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام فريضة إلى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أو فتنة » (١٦) .

ويلاحظ أولا على هذه الفتوى تاريخها المبكر ، فقد كانت موجهة إلى الفلول الأولى التى هجرت غرناطة عقب سقوطها فى أيدى الملوك الكاثوليك ، ولم تكن مشكلة الموريسكيين قد اتضحت أبعادها ولا تجسمت مأساتها بعد ؛ فكان من السهل للوهلة الأولى أن ينصحهم فقيه مقيم بالمغرب بقبول الإسلام ونبذ دار الكفر ، دون أن يدرك الحس الوطنى المتوفز لديهم ، أو يقدر المفارقة الحضارية الماثلة فيهم ؛ فتتركز رؤيته على المنظور الدينى المباشر ، ولا يستطيع التعاطف مع موقفهم الدقيق . كما يلاحظ عليها ثانيا أن إحساس الندم الجارف ، والرغبة العارمة فى العودة ، قد دفعا بهم مرة أخرى إلى محاولة التسلل تحت جنح الليل إلى الشاطئ الشمالى مؤثرين

---

(١٦) انظر المصدر السابق ، صفحة ١٤٨ ــ ١٥١ .

الهلاك فى أرضهم على الموت قهرا فى منفاهم ، وقد خلق هذا الندم الجماعى شعورا عاما لدى الموريسكيين بضرورة التشبث المستميت بأرضهم ، واستبعاد حلول الخروج منها مهما كان الثمن ، ومن يتتبع تذبذب مؤشرات الهجرة من الأندلس إلى الشمال الأفريقى — كما سنعرض له فيما بعد — يدرك تقلص أنماط الهجرة الاختيارية إلى أبعد الحدود حتى صدور قرارات الطرد النهائية أوائل القرن السابع عشر.

ولما كانت هذه الفتوى لم تصادف هوى فى نفوس الموريسكيين ، ولم تسعفهم فى حل إشكالية التوفيق بين مقتضيات الوطنية المتجذرة فيهم ، والإيمان بعقيدتهم وتراثهم العريق ، فإن مفتيا آخر ، أكثر تفهما لظروفهم ، قد وجه إليهم رسالة عام ١٥٠٤م — أى بعد الفتوى الأولى بقرابة عشر سنوات — تحمل عنوانا دالا هو «فتوى الغرباء» جاء فيها :— .

«الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ، إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر ، من أجزل الله ثوابهم ، فيما لقوا فى ذاته ، وصبروا النفوس والأولاد فى مرضاته ، الغرباء القرباء إن شاء الله فى مجاورة نبيه فى الفردوس الأعلى من جناته ... من عبيد الله تعالى أحمد بن بوجمعه المغراوى ثم الوهرانى .. سائلا من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء ، ومؤكدا عليكم فى ملازمة دين الإسلام ، آمرين به من بلغ من أولادكم ، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور ، وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع ، ... فالصلاة ولو بالإيماء .. والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء ، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ولو عوما فى البحور ، وعليكم بالتيمم ولو مسحا بالأيدى للحيطان ، وإن أكرهوكم فى وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية ، وانووا صلاتكم المشروعة ، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله ، و إن كان لغير القبلة تسقط فى حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ، وإن أجبروكم على شرب الخمر ، فأشربوه لا بنية استعماله ، وإن كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه ، وكذلك إن أكرهوكم على محرم ، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل كتاب ، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه

لولا الإكراه وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم. ولو وجدتم قوة لغيرتموه. وكذلك إن أكرهوكم على ربا أو جرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقي إن تبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التورية والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمدا فاشتموا ناوين أنه الشيطان، أو محمد اليهود فكثير عندهم اسمه، وإن قالوا عيسى ابن الله فقولوها إن أكرهوكم، وأنووا إسقاط مضاف، أي عبد الله أو ابن مريم، وإن قالوا عيسى توفى بالصلب فانووا من التوفية والكمال والتشريف من هذه صفته، ومايعسر عليكم فابعثوا إلينا فيه نرشدكم إن شاء الله على حسب ماتكتبون به، وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غير محنة ولا وجلة، بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدى الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به، والسلام عليكم جميعاً»(١٦).

وتعد هذه الفتوى برنامجا كاملا فى التقية، اتبعه الموريسكيون فى جملته للحفاظ سرا على دينهم الإسلامى، وإن كانت قد أدت من ناحية أخرى إلى تهيئة الظروف لتلاشيه التدريجى؛ فالمضطرون من الأجيال الأولى، الذين عانوا المحنة فى أشدها، وحاولوا التمرد والثورة فى جبال غرناطة دون جدوى قد استطاعوا أن يحتفظوا بجذوة الدين متقدة فى قلوبهم، بل كانت التحديات تذكيها وتضرمها، أما الأجيال التالية ممن تباعدت بهم الشقة فد أخذوا يتخففون شيئا فشيئا من التكاليف الدينية، فلجأوا أولاً إلى بعض التعديلات اليسيرة فى ممارساتهم الدينية والاجتماعية للتخفى عن عيون محاكم التفتيش المبثوثة فى كل مكان؛ فلم يكونوا يجهرون بالأذان قبل كل صلاة، وكانوا يكتفون من الوضوء بأيسره، أو يتيممون خفية خشية أن يراهم أحد وهم يتوضأون، بيد أن هذا التظاهر والتسليم للغالب بحقة فى مراقبة الضمائر لم يلبث أن أدى بمرور الوقت وبطبيعة الحال إلى ضعف الانتماء الدينى وتلونه بأشكال

---

(١٧) تقع هذه الوثيقة ضمن مجموعة خطية فى مكتبة الفاتيكان بروما بعنوان «المقدمة القرطبية» انظر: محمد عبد الله عنان، المصدر المشار إليه فى هامش رقم ١٠ ص ٣٤٢ — ٣٤٤.

المتغيرات الاجتماعية الجديدة، وساعدت فتوى الغرباء التي كتب منها عشرات النسخ على إقامة لون من المصالحة بين الموريسكي ومصيره التاريخي المحتوم، وأخذ ميراثه الحضارى الناضج يذبل وينكمش حتى استحال فى نهاية الأمر إلى حفنة من الآثار الفولكلورية، والبقايا الأنثروبولوچية لشعب اختفى تحت الأرض وخضع لسطوة القهر واكتفى بأضعف الإيمان، وسنرى أن كل ذلك لم يغفر له أمام عدوه، واضطر فى نهاية الأمر إلى نفيه من أرضه.

ويذكر بعض المؤرخين الإسبان، أنه عقب صدور قرارات ١٥٥٦م التى أطلقنا عليها قرارات محو الشخصية، فإن بعض الكتب النبوية التى أنقذت من الحرق فى عهد الكاردينال المتعصب «ثيزنيروس»، وبعض الحكايات والأساطير السرية أولت حينئذ على أنها إيذان بالحرية والخلاص، وأشاع بعض الشيوخ الطاعنين فى السن، ممن كانوا يشتغلون بالتنجيم من وراء ظهر محاكم التفتيش صدق نبوءة عودة الدولة الإسلامية للأندلس، فقالوا إنهم رأوا فى جنح الليل جيوشا مسلمة تطير فى الهواء، ونجوما وكواكب سيارة تدور فى الفضاء، وعماليق ثائرون يستعدون للمعركة الفاصلة، ولعبت هذه الحكايات الخيالية التعويضية دورا هاما فى إثارة حماس الموريسكيين المعتصمين بقمم الجبال، ممن ظلوا يحلمون بالخلاص والحرية (١٨). كما أنها من ناحية أخرى تجسد لنا القوى المكنونة فى أعماق هذا الشعب، والتى كانت تمده بطاقات الصمود والدفاع عن النفس، مما وجد متنفسا له فى الصياغات الملحمية لفلذات هامة من التاريخ الإسلامى الأول.

وعلى مستوى آخر لم يكن من الغريب أن يلجأ الموريسكيون الذين بقوا فى شبه الجزيرة الأيبرية، مثل غيرهم من الأقليات، إلى المنفذ «الديموغرافى» الضخم المتمثل فى القارة الأمريكية الجديدة. فقد كانت أمريكا فى نصف القرن الأول بعد اكتشافها تقدم للمهاجر إليها حرية لم يكن يحلم بها، خاصة من قبضة المؤسسات الدينية الصارمة. إلا أن الوثائق العلمية المتصلة بهذا الأمر نادرة، ومعظمها غير

---

(١٨) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٣ ص ٣٥.

مباشر، إذ تتصل فحسب بالأوامر المكررة بمنع هجرة الموريسكيين إلى القارة الجديدة، وهى أوامر كانت تصدر عن البلاط الملكى وعن الكنيسة المسيحية معا، وأولها صدر عقب الفتح مباشرة، وتتابعت حلقاتها طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر، مما يدل على وقوع حوادث التسرب والهجرة والحاجة إلى مقاومتها دائما بأوامر جديدة.

وبالرغم من حرص هذه السلطات على ضرورة ضمان «نظافة» أنساب المهاجرين، وخلوهم من العناصر غير المسيحية، فلم يكن من العسير على أقلية أخرى أن تمارس بانتظام عملية الهجرة وتنجح فى خرق الأوامر، وهى الأقلية اليهودية التى كانت تشملها دائما أوامر التحريم بالإضافة للموريسكيين والملحدين والمسيحيين الجدد. إلا أن الموريسكيين نظرا لقدرتهم على التكيف والاندماج وإتقان حيل التقية كانوا يحسنون التخفى، فلم يصلنا شىء مباشر عن جماعاتهم المهاجرة إلى أمريكا، ولم يكونوا جالية متماسكة فى العالم الجديد مثلما فعل اليهود، غير أن هناك بعض الأخبار المتناثرة عن «عبيد موريسكيين» كما وردت الإشارة إليهم فى القرار الصادر عام ١٥٤٣م، والذى يتحدث عن إماء وعُبيد من العرب والبربر الذين اعتنقوا المسيحية حديثا. ولم يكن الخوف منهم راجعا فى الدرجة الأولى للرغبة الصادقة فى المحافظة على الأنساب ونظافة الأعراق والدم بقدر ما كان يعود إلى خوف السلطات الدينية والمدنية من تسرب العقائد الروحية الإسلامية للهنود الأصليين فى القارة الأمريكية.

ومن أمثلة ذلك ما عثر عليه بعض الباحثين فى الأرشيف الوطنى لمدينة المكسيك ضمن وثائق محاكم التفتيش العام ١٥٨٤م والتى ورد فيها من بيان كنسى:

«عليكم الإبلاغ عمن تعرفون من أشخاص، أو تسمعون عنهم، ممن يقول إن طائفة محمد أخيار، وأنهم هم الذين سيدخلون الجنة، وأن المسيح عيسى ليس هو الله بل نبيه، وأنه لم تلده سيدتنا وهى عذراء قبل الميلاد وفى الميلاد وبعد الميلاد. أو قاموا ببعض شعائر طائفة محمد أو راعوها فى حياتهم، كاتخاذ الجمعة يوم عيد، وأكل اللحم خلاله أو خلال الأيام الأخرى التى تحرم فيها الكنيسة أكل اللحوم؛ قائلين إن هذا ليس ذنبا، وكارتداء القمصان النظيفة والملابس الجديدة يوم الجمع، أو

ممن يقومون بذبح الطيور أو الحيوانات بوضع السكين فى أوداجها وهم يستقبلون القبلة ناحية المشرق، قائلين باسم الله. ولا يأكلون أية طيور لم تذبح، أو ذبحتها امرأة؛ لأن هذا محرم عند طائفة محمد. أو ممن يختنون أبناءهم ويطلقون عليهم الأسماء العربية الإسلامية أو ينادونهم بها، أو ممن ينطقون بعبارة لا إله إلا الله ومحمد رسول الله... الخ»(١٩).

ولا يدهش الدارسون عندما يجدون هذه التفاصيل التى كانت متداولة من قبيل «الشواهد الخارجية» لشبهة الإسلام، التى كانت تأخذ بجريرتها محاكم التفتيش، وانتقلت من اسبانيا إلى القارة الجديدة، ومع ذلك فهناك شواهد أخرى عديدة على تسرب الموريسكيين إلى المهجر الجديد، بناء على تسهيلات بعض القسس أحيانا، إذ عثر الباحثون على خطاب موجه من بطريرك المكسيك للملك يطلب فيه السماح للموريسكيين بالهجرة لأسبانيا الجديدة ـ كما كانوا يسمونها ـ ولم تلبث بعدها أن ازدهرت فى أقاليم المكسيك المختلفة صناعات الحرير وبعض الوسائل التقنية الأخرى مثل رفع الماء وحفر الآبار وصناعة الخزف والزليج والصناعات الخشبية، وإن كان أبرز مظاهر التأثير الموريسكى فى القارة الجديدة مازال يتجلى فى أنماط البناء والمعمار التى تحظى فى الآونة الأخير ببحوث علمية مستفيضة.

---

(١٩) انظر بحث الاستاذ «[Dressendorfer, Peter] .» عن الموريسكيين أمام محاكم تفتيش اسبانيا الجديدة، ضمن أعمال المؤتمر الدولى للأدب الأعجمى والموريسكى المشار إليها، ص ٤٧٥/ ٤٩٢.

المأزق الحضارى:

هؤلاء الموريسكيون الذين انحدروا من أصلاب عرب مسلمين، ذوى حضارة متميزة، وكانت لهم عصورهم المزدهرة فى الفنون والزراعة والعلوم والتجارة فى شبه الجزيرة الأيبيرية، عكف بعضهم على غرس الحدائق حتى يختفى عن عيون المسيحيين، بينما أخذ بعضهم الآخر يعمل بالتجارة والحرف الإنتاجية مثل الحدادة والنجارة وصناعة الصابون والمنسوجات، لم يسمحوا لأحد منهم بأن يحترف الكدية أو الاستجداء، بل كانوا جميعا من ذوى المهن المربحة والبيوت الغنية والثروات الوفيرة، لم يكونوا يتشاكون فيما بينهم، بل يتحملون فى صمت، ويعملون فى جد ومثابرة.

كان أجدادهم قد جلبوا إلى إسبانيا زراعة السكر والقطن والحرير والأرز، وأتقنها أحفادهم بإقامة السدود والسواقى، وتحويل الأراضى إلى أعلى درجات الخصوبة بنظمهم الراقية فى الزراعة والرى ومعاصر الزيوت، وقد جلبوا التين والزيتون والرمان والبشملة، والبرتقال والنخيل والأعشاب والنباتات الطبية. ويذكر المؤرخون الأوربيون أن البساتين الموريسكية قد ازدهر فيها التفاح والجوز واللوز وشتى أنواع الحبوب، وكثرت بها الثروات الحيوانية، كما يعترفون لهم بدورهم النشط فى شق الترع وتنظيم الأنهار وإقامة الطرق والجسور ومحاكم المياه، وإتقان كثير من الصناعات الهامة مثل صناعة المنسوجات والحرائر، والصناعات الجلدية التى كان يمارسها فى غرناطة مثلا الرجال والنساء والصبيان، كما كانت مصانع «المرية» نموذجا لإتقان صناعة المنسوجات فى قشتالة وفرنسا وإيطاليا، وكان صناعات الطوب والخزف والزجاج فى أقاليم بلنسية ومالقة من أفضل ما عرف فى هذه العصور، حتى أن هؤلاء الموريسكيين البارعين فى فن البناء ومواده قد صبغوا جميع الأبنية العظيمة منذ القرن

الخامس عشر بطابعهم المعمارى فى نظم التشييد والزخرف، سواء كانت كنائس أم قلاع وقصور[٢٠]. وقد أدرك رفاقهم فى الوطن أهمية دورهم الحضارى وفعالية مشاركتهم المهنية والعمرانية، خاصة فى بعض الأقاليم التى امتد وجودهم بها فترة طويلة تحت اسم المدجنين قبل سقوط غرناطة، ففى عام ١٥٢٨ توجه مجموعة من نواب قطلونية وبلنسية وأرغون إلى بلاط الأمبراطور، وقدموا له شكوى من سوء معاملة مندوبى محاكم التفتيش للموريسكيين، وطلبوا منه التدخل لمنع هذا الاضطهاد، وإعطائهم فرصة لتشرب المسيحية ببطء، وإن كان السبب الحقيقى لذلك كما يذكر المؤرخون المحدثون، يكمن فى أنهم رأوا مصالحهم الاقتصادية مهددة من جراء موقف الكنيسة، إذ كانت معظم القوة العاملة المنتجة، فى هذه المناطق الزراعية الخصبة، سواء فى الزراعة أو البساتين، أو الحرف اليدوية من هؤلاء الموريسكيين، وكان اضطهادهم يدفعهم إلى الهجرة وترك المصانع والمزارع خالية، مما يؤدى إلى الكساد وتدمير اقتصاد المنطقة، وقد نجحت هذه الوساطة إلى حد ما، فأدت إلى تأجيل قرار الطرد النهائى لفترة طويلة.

وقد عززت هذه المساندة العلنية موقف الموريسكيين، فجعلتهم أشد عنادا ومقاومة للتنصير فى أقليم أرغون، وبذلوا جهدا كبيرا للحفاظ على تعاليم دينهم، وقد دلت بعض الوثائق التى كتبت بين عامى ١٥٥٣ و١٥٨٢، وقدمت من قاضى التحقيق إلى رئيس محاكم التفتيش العام على أنهم لم يكونوا يكتفون بالمحافظة على طقوسهم الإسلامية وإهمال التعاليم المسيحية، بل كانوا يجاهرون بذلك، فيصومون رمضان علنا، ويعلمون أولادهم الشريعة الإسلامية، ويدعون المسيحيين القدماء، خاصة زوجاتهم، لاعتناق الإسلام، ويعيشون حياة عربية صرفة لا أثر للتقية فيها فى تلك المنطقة، بل يتخذون الفقهاء فيا بينهم، ويرفضون جميع محاولات التنصير، حتى لايمكن ذكر حالة واحدة تم فيها تحويل أحد منهم عن دينه بشكل حقيقى، بل

---

(٢٠) انظر: الظروف الاجتماعية للموريسكيين فى اسبانيا، تأليف .Janer, Florencio المشار إليه فى هامش رقم ٣، صفحة ٤٨/ ٤٩.

يؤثرون أن يعدوا من الشهداء ويمارسون شعائر دينهم حتى فى السجون دون خوف (٢١).

وقد أدى هذا العناد من ناحية، وإصرار الكنيسة على تمسيح بقايا المسلمين من ناحية أخرى إلى تفاقم المشكلة الموريسكية، فصدرت ضدهم مجموعة من قرارات الطرد والنفى الجماعى خارج إسبانيا، كان من أهمها قرار سنة ١٥٧٠م، وآخرها قرار الطرد النهائى عام ١٦٠٩م.

وكان لهذه القرارات أثر بالغ السوء على التركيب الاجتماعى وحركة التعمير فى شبه الجزيرة الأيبيرية، مما وضع اسبانيا فى مأزق حضارى حقيقى، وتقدر البحوث الديموجرافية الحديثة عدد الموريسكيين الذين قتلوا أو هربوا من الموت عقب قرار المصادرة والنفى الجماعى من إقليم غرناطة فحسب بحوالى ستين ألف قتيل وهارب، وعدد الذين تم نقلهم إلى منطقة قشتالة بحوالى ثمانين ألف موريسكى؛ مما أدى إلى تخريب ٤٠٠ قرية وضيعة كانت مسكونة وآهلة بالموريسكيين، وتم تهجير ونقل اثنتى عشرة ألف أسرة مسيحية قديمة لتعميرها فلم يعمروا سوى نصفها فحسب (٢٢).

ويقول أحد كبار مؤرخى هذه الفترة، ممن نشروا مجموعة وثائقها وقوانينها كاملة لأول مرة عام ١٨٥٧ بعد تمحيص الروايات التاريخية السابقة عليهم: «وأخيرا خلت شبه الجزيرة الأيبيرية ـ تقريبا ـ من العنصر العربى، بعد أن شيد بوجوده فيها الآثار العظيمة الخالدة، وترك آلاف الذكريات الماجدة، مما جعل العصر العربى لاسبانيا من أزهر وأهم عصورها. وكان هذا الشعب المضطهد فى شبه الجزيرة الأيبيرية قد ضرب بجذوره فيها قرابة ألف عام، وأخذ فى التناقص نتيجة لحروب الاسترداد الطويلة وعمليات الطرد المستمرة، ومع ذلك بقى منه أكثر من مليون نسمة عندما

---

(٢١) انظر: المصدر المشار إليه فى هامش رقم ١١ ص ١ LVII حتى ص LXI.

(٢٢) انظر:

Ladero Quesada, Miguel Angel. Movimientos demograficos, Yeconomicos en el Reino de Granada durante la segunda mitad del siglo XVI. Anuorio de Historia No. 1. Madrid 1968. pag 129-181.

أصدر فيليب الثالث قرار الطرد النهائي عام ١٦٠٩، فتمكن حوالى ٩٠٠ ألف نسمة منهم من الخروج من أسبانيا والهجرة إلى الشاطىءالأفريقى المسلم، ومات حوالى ١٠٠ ألف فى عمليات الانتقام والسطو والقتل والنهب وهتك الأعراض، كما مات الكثيرون منهم خلال عمليات العبور والانتقال إلى الجزائر والمغرب وتونس ومصر من ناحية، وفرنسا وإيطاليا وتركيا من ناحية ثانية. كما ينبغى أن يؤخذ فى الحسبان ويضم إلى تلك التقديرات عشرات الآلاف ممن قتلوا خلال الثورات الموريسكية المتتابعة، وأثناء حركات التمرد والاعتصام بالجبال، وهؤلاء الذين قاوموا الطرد والتنصير وآثروا الموت على الحياة منذ سقوط آخر معقل إسلامى أندلسى (٢٣).

وكانت محاكم التفتيش بالنسبة للموريسكيين ـ وغيرهم ـ هى أس البلاء، إذ اعتبر قرار الطرد النهائي برهانا قاطعا على فشلها، ويذكر هذا الانتصار الموريسكى عادة فى سياق التدليل على صدق مواقفهم، فنجد موريسكيا يدعى محمد الوزير ممن هاجروا إلى تونس يقول فى هذا الصدد: «لأكثر من مائة عام، بعد استرداد المسيحيين لإسبانيا، فإن أبناء المسلمين لم يخرجوا على دينهم إطلاقا بالرغم من تحريق محاكم التفتيش لهم». وكان قرار الطرد هو الدليل الواضح على أن السلطات الدينية فقدت كل أمل فى تنصر المسلمين الحقيقى، لهذا فإن الوزير يطلق هذه الصيحة الظافرة: «فقدوا كل أمل فى أن يعبدوا معهم من قلوبهم هذه الصورة والتهاويل». على أن هؤلاء الموريسكيين قد أدركوا بدورهم أن الظلم الواقع عليهم، والعسف المتسلط من محاكم التفتيش يشمل بقية المسيحيين أيضا، مما يضطرهم لممارسة لون آخر من التقية مثلهم فيقولون: «أيكون بوسع المسيحيين ـ وهم أناس معقولون ـ أن يصدقوا جميع تلك السخافات التى تتعصب لها الكنيسة الكاثوليكية؟ فهؤلاء الناس ليسوا جميعا حمقى، ولكنهم يتظاهرون بذلك لتفادى تعذيب محاكم التفتيش، وكما أنه ليس بوسعهم أن يعترضوا على هذه المحاكم اللعينة فإنهم يضمرون ذلك فى قلوبهم» (٢٤).

---

(٢٣) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٣ لمؤلفه : Janer, Florencio ص ٩٢/ ٩٣.

(٢٤) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ١٤، ص ١١٩/ ١٢١.

وقد اعترف بعض رجال الدين المعتدلين بقيمة المورينسكيين وتقدمهم الحضارى، فأثر عن مطران غرناطة قوله فى منتصف القرن السادس عشر: «لكى نكون مسيحيين صالحين.. نحن وهؤلاء الموريسكيون، عليهم أن يأخذوا عقيدتنا، وعلينا أن نأخذ منهم أعمالهم الطيبة الحميدة» وهذا يذكرنا بعبارة أخرى شهيرة قالها الإمام محمد عبده عندما رأى مظاهر التقدم الحضارى والأخلاقى لأوربا فى نهاية القرن الماضى وقارنها بما رأى عليه حال المسلمين من جهل وتخلف فقال «رأيت هناك إسلاما بلا مسلمين، وهنا مسلمين بلا إسلام».

وسوف نختار وثيقة موريسكية واحدة؛ ونثبتها هنا على طولها النسبى، لما لها من دلالة واضحة على هذا المستوى الحضارى للمجتمع الموريسكى المنتج، وهى أحد عقود الزواج التى عثر عليها ضمن وثائق محاكم التفتيش، والتى تتفاوت فيما بينها فى مدى التزامها بالفصحى أو تسرب عناصر عامية إليها، وتكشف فى جملتها أنه بعد قرابة قرن من سقوط غرناطة كان الموريسكيون لا يزالون يمارسون حياتهم اليومية بنفس الحرص على تقاليدهم الاجتماعية والدينية، حتى وقوع كارثة الاستئصال الكبرى فى بداية القرن السابع عشر، وقد كتب هذا العقد فى ٢٢ أغسطس عام ١٥٨٣م ونصه ما يلى: —

«بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، الحمد لله، هذا عقد صداق أسس على التقوى بناؤه، وارتسمت على السعادة والتوفيق أوقاته وآناؤه، انعقد بحول الله تعالى وبمنه وتوفيقه بين الشاب الجليل الطهر، النبيل الحسيب الأصيل، داود سليمان ابن السيد الفاظل الكريم أبو عبد الله محمد بن سليمان، عرف بالسكين، وبين السيدة الفاضلة والحرة الكاملة فاطمة بنت أب العباس أحمد أب زيد يرحمه الله، انعقادا مباركا ميمونا، يكون كمال النجح فيه إن شاء الله متموما، وعلى صداق نقده وكالية (مؤجلة) خمسون مثقالا من الفضة الخالصة الطيبة الجارية الآن بالرياصة البلنسية التى صرفها عشرة دراهم فى المثقال وأربعة فرود فى الدرهم، معها الهدية العباسية التى مبلغها ثلاثين دنارا ذهبا مسوغة مختلفت الضرب

والصناعة ، ضرب كل منها أربعة وعشرون سلدا ، النقد من ذلك عشرة مثاقيل من الصيغة المذكورة معا المدية الموصوفة بالحلول على الزوج المذكور، والكالى (المؤجل) ساير العدد المذكور، وهية ثلاثون مثقالا مؤخرة عن الناكح المذكور، ومؤجلة عليه إلى انقضاء عامين اثنين من تاريخه ، ولا براءة للناكح المذكور عن أداء العددين المذكورين النقد والكالى إلا بواجب الإشهاد وأوضح البيان على الأذاو إن شاء الله. ونحل أب الناكح المذكورة محمد بن سليمان السكين وزوجته شوشة بنت سليمان السكين ابنهما سليمان السكين فى عقدة نكاحه ومن أحله وصيلة عنه له ، وعونا على نكاحه جميع الدار السكانية لهم ببلاد أنقاليش من عمال جلبة ، حدها بالغرب دارا إلا حسن الرهين ، وبالقبلة دارا إلا أولاد على بن سليمان السكين ، وبالشرق رملت الواد وإليها شرع بابها ، ونحل لها أيضا ثلاثة أثمن من الأرض السقوى الكاين له بجومة أضويعة المعروفة بالسبيكة ، حدها بالغرب ملكا لحسن الفق ، وبالشرق بجومت بلى نويبة (ڤيلا جديدة) حده بالشرق ملكا لمحمد بن عائشة ، غربه ملكا لسليمان السكين ، وشهرته أغنت عن باق تحديده ، ونحل له أيضا خمسة عشر رأسا من إناث المعز ، ونحل له أيضا وقايتين (خمارين) اثنين مطرزتان بخيط الذهب الطايب على أطرافها بيضاء وحمراء ، ونحل له أيضا نصف جميع الأرض البعلى (الجافة) الكاين له بجومت الأركوطة شايعا مع أبيه بالنصف الثانى ، ونحل له أيضا أربعين رطلا من الأرطال الجارية الآن بالرياصة البلنسية التى صرفها عشرون شلد فى الرطل ، واثنا عشر فردا فى الشلد ، نحلة صحيحة تامة دون شرط مفسد ولا ثنيا (رجوع) ولا خيار ، عرف قدرها بمنافعها ومرافقها وحرمها وحقايقها الداخلة فيها والخارجة عنها ، صرمها من ماله وأبانها عن نفسه وسيرها مالا وملكا لابنه الناكح المذكور ، فقبلها منه قبولا تاما ، وحازها حيازة صحيحة ، وحل فى ذلك محل أبيه المذكور ومحل ذى المال فى ماله وذى الملك الصحيح فى ملكه ، ونحل السيدين الفاضلين الأكرمين أحمد بن محمد السكين وزوجته مريوط بنت حسن سعيد عرف بالقجون جميع الفدان السقوى الكاين لهم بالحومت معا النقعه الذى لهم بملاصقة الفدين المذكور ، حد بالقبلة ملكا لابراهيم بن عيسى الروج وبالغرب ملكا لأحمد اب زيد ، ونحل له أيضا جميع السبيكة الكاينة له بالحومت المذكورة باثنتى عشرة من شجار التين .. ونحل له أيضا جميع الخرنوب

الكاينة له بالواد الأبيض.. ونحل له أيضا عشرة من الجباح (الخلايا) محشوة بالشمع والنحل.. فقبل منهم سليمان المذكور النخلة المذكورة قبولا تاما وحازها حيازة صحيحة تامتا، وحل فيها محل ذى المال فى مالة وذى الملك الصحيح فى ملكه، وبعد قبوله النحلتين المذكورتين وانبرامها وإحازته لها وانصرامها، ساق منها لزوجته المنكحت المذكورة الوقايتين الاثنتين بيضاء وحمراء مطرزتان بخيط الذهب الطيب على أطرافها، وسار لها أيضا الربع الواحد من الدار المنحولة أعلاه شايعا معه بالثلاثة أرباع، وساق لها أيضا ثلثة أثمن من الأرض السقوى المنحولة بحومت الضويعة، وذلك باسم فضيلة فضلها بها على حكم الفضيلة وجرى العادة جيرها من قديم إلى الآن، سياقة صحيحة تامت دون شرط مفسد ولا ثنيا ولا خيار، عرف قدرها بمنافعها ومرافقها وحرمها وحقايقها الداخلت فيها والخارجت عنها، وخلص لزوجته المنكحة المذكورة تملك بعد معرفته بذالك كله ومعرفتها ومعرفت وليها بما بدا لها مهرا وسياقة وفضيلة ورضاءهم بذلك الرضا التام. على هذا وعلى ما ذكر مما بينهما أعلاه انعقد بينهما هذا العقد وتم، وبسبب ذالك كله كمل وانبرم. تزوجها بكلمة الله العظيم وعلى سنت نبيه محمد المصطفى الكريم، وبما أحد الله عز وجل للزوجات على أزواجهن المؤمنين من أمن وأمان إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، فعليه أن يحسن صحبتها ويكرم بالمعروف عشرتها جهده، وله عليها من حسن الصحبة مثل ذالك ودرجت زايدة لقول الله العظيم فى محكم وحيه الكريم وللرجال عليهن درجاة (درجة) والله عزيز حكيم. عقده وأمضاه على حكم الشرع العزيز ومقتضاه أخيها شقيقها أبى الحسن بما ملكته من أمرها وجعلت بيديه من العقد عليها وهية تيبة (ثيب) مالكت أمر نفسها صحيحة فى جسمها وعقلها خلو من الموانع كلها بعد أن استيمرها فى ذالك فنطقت إعلانا نطقه عرف منه رضاءها، شهد عليها بذلك من سمع منهما وعرفهما وهما بحال صحة وجواز أمر، فى اليوم الثانى وعشرون من شهر أغشت الذى من عام ثلاثة وثمانين وخمست مآية وألف من تاريخ المسيح عليه السلام.

أحمد بن عبد الله (توقيع) شهد محمد على السكين، شهد يوسف أب زيد»(٢٥).

(٢٥) أنظر:

La barta, Ana: Contratos matrimoniales entre Moriscos Valencianos. Al-Qantara. Madrid 1983. pag 68-70

ومع كثرة الأخطاء الإملائية واللغوية الواضحة فى هذا العقد، مما يشير إلى مدى تدهور اللغة العربية المحفوظة فى صدور فقهاء الموريسكيين وعلمائهم شفاها فى نهاية القرن السادس عشر وضعف مراسهم فى كتابتها نتيجة لأوامر التحريم والتجريم المتتابعة، فإنه بوسعنا أن نلاحظ أمرين على جانب كبير من الأهمية:

أولهما درجة الرخاء الاقتصادى ووفرة العيش وتنوع مصادر الثروة والممتلكات لدى الموريسكيين؛ وحرصهم الشديد على توثيق ذلك وتعداد صنوفه وأنواعه، مما يشير إلى تمسكهم بأرضهم وتمثلهم لحقوقهم ودقتهم فى تحديد مواقع الأرض وأنواع العطايا والهبات.

وثانيهما: الالتزام الكامل بأوامر الشرع والاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة، مع تحريف غير مقصود فى هجائها، والتمسك باتباع التقاليد التى جرى العرف عليها من قديم الزمن والنص على ذلك فى العقد، مع المحافظة جهد الطاقة على الصيغ الفقهية الشرعية المتوارثة، مما يدل على أن الكاتب كان شديد الوعى بمسئوليته فى الحفاظ على ملكية التراث الشرعى واتباعه بنفس القدر الذى كان حريصا فيه على ملكية الأرض والثروة.

وإذا كان بوسع علماء اللغة أن يستخلصوا من مثل هذه النصوص مسار تطور العربية فى العاميات الدارجة من الوجهة الصوتية ـ لاحظ الرئاصة بدلا من الرئاسة مثلا ـ ومن النواحى الصرفية والنحوية والدلالية فإن مؤرخى الحضارة يجدون فيها مادة تصور طبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية لهذه الجماعة المنتجة وما يترتب على اقتلاع جذورهم من دمار إنسانى وثقافى وتاريخى للأرض التى خلعوا منها، مما اعتبر مأزقا حضاريا وقعت فيه شبه الجزيرة الأيبيرية بعد الموريسكيين.

الوجه الآخر:

درس بعض الباحثين المخطوط رقم ٥٦٥ من مكتبة جامعة بولونيا، فعثروا فى طياته على مجموعة من الكتابات الموريسكية التى تمثل بمفردها فصلا متميزا ومتجانسا من آثار الموريسكيين.

ولوحظ أن نسبة عالية منها تأتى من تونس، وأن بينها تشابها كبيرا فى الشكل والمحتوى، ووحدة واضحة فى الموضوع، مما يجعلها مظهرا طريفا للأدب المكتوب بالإسبانية فى تونس فى القرن السابع عشر، كتبه بعض الموريسكيين الذين ينتمون إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، والذين طردوا أو هاجروا منها خلال العقود الأخيرة من القرن السادس عشر والأولى من الذى يليه؛ إذ يشمل تاريخ الحركة الموريسكية فى الواقع مرحلتين مختلفتين: ما قبل قرار الطرد النهائى، وما بعده. وقد استغرقت المرحلة الأولى القرن السادس عشر واتخذت إسبانيا مسرحا لها، واستغرقت الثانية القرن السابع عشر واتخذت شمال أفريقيا ميدانا لها.

ويعود القسط الأعظم من المخطوطات الموريسكية الأعجمية المكتوبة بالعربية والإسبانية إلى القرن السادس عشر، وينقل لنا فى الدرجة الأولى لوحة من ثقافة الموريسكيين الدينية وهم يعيشون فى قلب المجتمع المسيحى، أما المخطوطة التى نتحدث عنها ومثيلاتها فهى تقدم لنا إلى جوار بعض الآثار الأخرى من كتابات الشمال الأفريقى عامة، والتونسى خاصة، بيانا كافيا عن العصر الثانى، وهو عصر الجيل الأول من الموريسكيين المطرودين من ديارهم والمستقرين فى مهجرهم خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. وكان على هؤلاء المهاجرين أن يواجهوا قدرا كبيرا من المشكلات قبل أن يتكيفوا مع البيئة الجديدة المختلفة عن بيئتهم الأصلية جغرافيا

وثقافيا ، وكان لابد لهم أن يبذلوا جهدا هائلا كى يقنعوا إخوانهم من أهل المغرب العربى بأنهم أيضا مسلمون وليسوا نصارى مقنعين بقناع الإسلام .

وإذا كان القدر الأعظم من النصوص الموريسكية المأثورة عن الفترة الأولى الإسبانية قد كتبت بالطريقة «الألخميادية» ـــ كما سنشرحها فيما بعـــد فإن القدر الأوفر من نصوص المرحلة الثانية قد وصلنا باللغة القشتالية ، أى الإسبانية القديمة ، وقليل منه بالعربية ، سواء كان هذا فى تونس والمغرب ، أم الجزائر وتركيا . فالبيئة المعادية التى أدت إلى نشوب الطريقة «الألخميادية» لم يعد لها وجود فى هذه المجتمعات الإسلامية ، فانتهت بذلك أسباب الكتابة السرية الشعائرية . أما فى أفريقيا فإن المضايقات أخذت تنشب على الصعيدين الثقافى واللغوى ؛ إذ لم يغفر المجتمع الإسلامى الأصيل لهؤلاء الموريسكيين جهلهم باللغة العربية وتعلقهم بأرض الأندلس وثقافتها ، واعتبر ذلك عجزا ونقصا فى إيمانهم . فكان ظهور الأدب الموريسكى المكتوب باللغة الإسبانية فى أفريقيا تحديا لهذا الجانب السلبى فى حياتهم ، يؤكد أنهم جماعة أقلية متميزة ، لها خواصها التى يعسر التنازل عنها ، والاندماج الكامل فى البيئة الأفريقية ، فجاء هذا الأدب ليعبر عن شخصيتهم الإسبانية المسلمة ذات التقاليد الغنية والمهارات الخاصة التى يتميزون بها عن سكان الشمال الأفريقى (٢٦) .

وإذا كان الموريسكيون فى المهجر قد كفوا عن الكتابة تقريبا بالحروف العربية ، وأخذوا يكتبون أعمالهم بلغة إسبانية بسيطة ذات مستوى شعبى ، فإن كتاباتهم تلك أخذت تشبه اللهجات الإقليمية للمناطق الجنوبية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، حتى إذا انقضى على ذلك جيلان أو ثلاثة فقدت هذه الطريقة أيضا مبررات وجودها بإتقان الموريسكيين للغة العربية وتلاشى الفوارق المميزة لهم عن الآخرين .

ويلاحظ على هذا الأدب الموريسكى الإسبانى أنه كان يتركز على الجوانب

---

(٢٦) انظر:

Penella, Juan : El Sentimiento religioso de los Moriscos Espanoles emigrados.

فى أعمال المؤتمر الدولى للأدب الموريسكى والأعجمى ، ص ٤٤٧ ـــ ٤٥٠ .

الدينية المتصلة بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ومسائل الفقه المالكى والحنفى، وموضوعات تفنيد المزاعم المسيحية عن الإسلام، ويوشك أن يخلو من الجانب الغنائى الشعرى، إلا بقدر يسير يشبه «الرومانث» التقليدى، أما النماذج التى يستلهم فيها أعمال كتاب العصر الذهبى الإسبانى مثل «لوبى دى بيجا» و«جونجرا» وغيرهم فهى استثناء محدود من هذه السمة العامة الغالبة.

وكان الشعور بالألم، والحنين للوطن السليب من أهم المشاعر التى اضطربت بها قلوب الموريسكيين فى المهجر، كما كانوا بطبيعة الحال مرغمين على لون من الترابط فيما بينهم، يجمعهم على النقمة للماضى والتطلع للمستقبل، فيقول شاعرهم ما ترجمته :—

من فرعون اسبانيا وهن الصدر
وبرغمه شققنا طريق البحر
طريق تحفه الزهور الخضر(٢٧)

كما يلاحظ على هذا الأدب الموريسكى الإسبانى الأفريقى أنه يمثل جملة من الخواص الموزعة بين جماعات الموريسكيين طبقا لأصولهم الجغرافية والبشرية؛ ابتداء من القدرية الدينية التاريخية التى انتشرت بين أهل غرناطة، وأصبحت من أبرز معالم الطابع الروحى للموريسكيين؛ مما دفعهم إلى التحول من الماضى إلى المستقبل تغلبا على آلام الحاضر الموجعة، وفى مقابل ذلك نجد الموريسكيين القادمين من منطقة أرغون قد حلوا إلى أفريقيا نزعتهم التوفيقية الواضحة، المعتدلة فى جملتها والمتسمة بالمرونة فى معظم الأحوال؛ إذ أنهم عند طردهم لم يكونوا يشعرون بقهر الشعب المغلوب الذى خلعت جذوره كما كان يشعر أهل غرناطه، ولهذا فقد كان لديهم الوقت الكافى كى يتعودوا على ظروفهم الجديدة، وعلى أصول لعبة الأقلية التى تمارس أنشطتها بشكل سرى. ومن هنا فإن الموريسكيين الأرغونيين هم الذين كونوا مناطق الهجرة المتقدمة من وجهة النظر التكنيكية والثقافية، بما كان لديهم من كفاءة فى التكيف والمرونة؛ الأمر الذى جعلهم أكثر نجاحا من الوجهة الاجتماعية

---

(٢٧) انظر المصدر السابق، صفحة ٤٦٢.

والثقافية، بينما كان أهل غرناطة وأقاليم الأندلس وبلنسية خاضعين لعقدة الأرض المفقودة، موتورين ومطاردين ومنتزعين قسرا من أرضهم، مما جعلهم يهدرون جزءا كثيرا من طاقتهم الحيوية فى محاولة التخلص من الحقد المتراكم ضد أعدائهم.

وأيا ما كان الأمر فإن النماذج التى تنتمى لهذا الأدب الموريسكى على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط ما تزال قليلة يتم الكشف عنها تدريجيا فى الأعوام الأخيرة بطريقة منظمة، ومن أمثلة ذلك أشعار محمد ربضان (هل هو تحريف لرمضان؟) الدينية، التى تعد حلقة اتصال بين الموريسكيين فى شبه الجزيرة الأيبيرية والمهاجرين منهم إلى إفريقية، ففى إسبانيا يضع عام ١٦٠٣م قصيدة عن العقيدة الإسلامية يعثر على مخطوط لها ينتمى إلى القرن الثامن عشر فى قرية «تستور» فى تونس، ويقول ناشرها إن الشيوخ المسنين فى هذه القرية لا يزالون يحفظون أبياتها ويرددونها فى ذلك التاريخ، وقد كتبت بنفس أوزان الرومانث المعتمدة على المقاطع الثمانية، ولم تكن هذه هى القصيدة الوحيدة التى وضعها الموريسكيون بالإسبانية على نمط شعر الرومانث؛ فأشعار إبراهيم بو الفهد Bolfad الأندلسى الضرير الذى كان مقيما فى الجزائر تبدأ بمقدمة طويلة عن الذات الإلهية بنفس طريقة الرومانث، وقد عثر على أشعار دينية مماثلة فى تضاعيف مخطوط بالمكتبة القومية بمدريد يحمل عنوان «مقالات فى الشريعة المحمدية»، كما درس بعض الباحثين فى العدد الأول من مجلة الأندلس كتابا مجهول المؤلف يعود إلى منتصف القرن السابع عشر كتبه موريسكى كان يعيش فى تونس، ويجمع بين العنصرين الأدبى والتعليمى، ويضم قصة ذات طابع أوربى واضح بعنوان «توبة التعيس» مستلهمة من أعمال «لوبى دى بيجا» وغيره من مؤلفى المسرح الإسبانى فى عصره الذهبى، وفى هذه القصة يتبادل الشعر مع النثر على الطريقة العربية، وتتداخل فيها تسع مقطوعات رومانثية شهيرة مما كانت تحتفظ به عادة ذاكرة أى إسبانى معاصر له، وإن كان بعضها مجهولا فى مصادر الرومانث حتى الآن كما يقول المحققون(٢٨).

---

(٢٨) انظر:

Samuel G. Armistead : Existio un romancero de tradicion oral entre los Moriscos ?

ضمن أعمال المؤتمر الدولى للأدب الموريسكى والأعجمى المشار إليها من قبل، ص ٢٢٧ — ٢٣٢.

وتضم كذلك رومانثا موريسكيا بعنوان «لو كان قلبك يازيد مثل كبريائك»، ويعتبر هذا المؤلف التونسى الموريسكى دليلا هاما على شيوع الرومانث بين المهاجرين المسلمين فى القرن السابع عشر وصعوبة التميز فى الذوق الشعرى بينهم وبين معاصريهم من الإسبان المسلمين، ممايستنتج منه بعض الباحثين أن الموريسكيين كانت لهم تقاليد فى فن الرومانث ابتداء من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مثلهم فى ذلك مثل بقية سكان شبه الجزيرة الأيبيرية، ويستشهد على ذلك بما ورد فى كتاب الرحلات الشهير «الانجيل فى إسبانيا» لمؤلفه «چورچ بورو»؛ إذ يحكى مشهدا غريبا لشخصية عربية فى القرن التاسع عشر تعيش فى تونس وتفخر بأنها من أصلاب «بنى زغل Los zegries » بغرناطة، ويمضى ساعات كاملة ينشد فيها أشعار الرومانث التى يؤمن بأنها جميعا تتصل بأسرته، ويمكن أن يكون هذا المنشد من صنع خيال الرحالة، أو مما رآه فى حقيقة الأمر، وحينئذ لا يصبح ظاهرة منفردة شاذة، بل مظهرا للمرحلة الأخيرة من مراحل الاحتفاظ بذكرى الأجداد وتطور الرومانث الموريسكى. وقد أضافت مجموعة البحوث التى قام بها العلماء التونسيون والإسبان فى الحلقات الدراسية المناوبة بين البلدين منذ عدة أعوام جوانب أخرى بالغة الأهمية فى تأثير الموريسيكيين على أنماط الحياة الاجتماعية والفكرية وطرز البناء والمعمار مما لا سبيل إلى حصره فى تونس خاصة وشمال أفريقيا عامة، وإن لم تلق هذه البحوث العناية اللائقة بها فى المشرق العربى حتى الآن.



فتاة موريسكية

التراث الموريسكى :

كان الموريسكيون يحتفظون بنصوصهم بعناية كبيرة، بالرغم من المخاطر الجسيمة التى يتعرضون لها لو كشف أمرها، وقد عثر على كثير منها فى أماكن عديدة بعد طردهم، ففى قطالونية مثلا وجد فى بيت موريسكى عدد من المخطوطات على الرق من بينها مصحف، وفى أرغون عثر فى العقد الثانى من هذا القرن على مكتبة موريسكية بأكملها فى قرية «منية السيد دى لاسبيرا Almonacid de la serra»، كما كان قد تم اكتشاف هام آخر من هذا التراث الموريسكى بعد قرار الطرد بقليل فى «المدينة الملكية المسماة Ciudad real» بقشتالة، حيث عثر على تجويف بأحد الجدران، ووجد فيه أربع عشرة حزمة من الأوراق سلمت إلى ترجمان، فدرسها ووضع لها فهرسا، وتبين أن بعضها مكتوب بالعربية، والبعض الآخر بالأعجمية «الألخميادية»، وأمكن له تصنيفها إلى المواد التالية :ـ

١ ـ نسخ متعددة من القرآن الكريم.
٢ ـ كتب دينية وأحاديث نبوية وخطب وأدعية.
٣ ـ كتب فى الفقة والتشريع والنظام الاجتماعى الإسلامى.
٤ ـ كتب فى الثقافة العلمية مثل المجسطى لبطليموس وبعض الكتب الطبية [٢٩].

ومن مصادر الأدب الموريسكى الغنية كتاب «تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين» [٣٠] للشيخ نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى الذى عاش فى

(٢٩) انظر: لوى كاردياك، الأستاذ بجامعة بول فاليرى فى مونبلى بفرنسا: «الحياة الدينية للموريسكيين»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، العدد السابع ١٩٨٤ ص ١٣٤.

(٣٠) انظر الكتاب فى طبعته العربية: تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين. مطبعة مصطفى البابى الحلبى بالقاهرة عام ١٣٣٩ هـ.

النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، ومات ــ كما يذكر بروكلمان ــ بين عامى ٣٨٥هـ و٣٩٣هـ. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الرومانث ؛ أى العامية الإسبانية فى تاريخ مجهول بعنوان « Adevertimiento de los descuidados » . ويغلب على الظن أنه كان فى نهاية القرن السادس عشر ، ومازالت هذه الترجمة موجودة بالحروف العربية على طريقة «الألخميادو» ، ثم لم تلبث أن تحولت إلى مجموعة من الكتب المتكاثرة التى حاول بها الموريسكيون الحفاظ على عناصر دينهم وتراثهم وتقاليدهم ، وهو من المخطوطات الموريسكية القليلة التى لم يفقد أصلها العربى الذى نقل عنه المترجم الموريسكى . وقد احتفظت لنا المكتبات من تلك الترجمات بنسختين وبضعة أوراق متناثرة ، ممايوحى بمدى الاهتمام الذى ظفرت به فى حينها ، خاصة لو أخذنا فى الاعتبار نوعية الكتاب واحتواءه على المادة الدينية التى كانت محرمة على الموريسكيين حينئذ ، وإن كانت كثيرة الشيوع فى المشرق والمغرب حتى الآن .

وكتاب تنبيه الغافلين دليل دينى يحتوى على الأحاديث النبوية المتصلة بالعقيدة والسلوك ، وعلى مجموعة من الحكايات التى تعتبر نماذج تربوية دينية ، لم يلبث بعضها أن انتشر وأصبح شهيرا فى الأدب الإسبانى ، وضمته كتب معروفة مثل كتاب « التعاليم الدينية Disciplinas Clericales » وكتاب « النماذج والأمثلة El libro de los ejemplos » ، وكتاب «العقوبات Los Castigos » ووثائق الملك دون سانشو وغيرها . وكان الهدف الأخلاقى الذى تتميز به هذه الأعمال فى الآداب الإسلامية والإسبانية ، والنزعة التربوية للكبار والصغار ، هما المحور الذى تدور حوله ، كما كانت تعتبر استجابة مباشرة لمتطلبات الذوق العام بمستوياته المثقفة والشعبية معاً بما تضمه من عناصر مثيرة للخيال ، والحكايات التى تضفى على المبادىء النظرية المجردة طابعاً تجسيدياً محدوداً . وقد استطاعت البحوث التحليلية المقارنة أن توضح الروابط الوثيقة بين كتاب التنبيه والمجموعات الإسبانية المذكورة مما يصل لدرجة التطابق فى كثير من الأحيان ، فكتاب « النماذج والأمثلة » بالرغم من محاولته تقديم حكاياته بشكل مختلف عن التنبيه ؛ حيث يستهل الحكاية بجملة مترجمة عن اللاتينية شعراً ، يتابع النص العربى فى الحكاية ذاتها ، ويختمها عادة بموعظة تستخلص المغزى الأخلاقى لها كما يفعل التنبيه ، ومثل هذا يحدث فى مجموعة « التعاليم الدينية »

المنسوخة من التنبيه ، مما يعطى لهذا المصدر الموريسكى أهمية بالغة فى إثراء الأدب الأخلاقى الإسبانى (٣١).

أما فيما يتصل بوضع الدراسات الموريسكية ، فقد بدأت أول المؤلفات المتعلقة بهم بعد طردهم بأربعة أعوام فحسب بكتاب «الطرد الشهير للموريسكيين» عام ١٦١٣ م. ثم تتابعت بعد ذلك الدراسات المخصصة للموضوع ، ومن أهمها كتاب المؤرخ الإنجليزى «لى Lea» المسمى «بتاريخ محاكم التفتيش» وكتاب العلامة الإسبانى «مينينديث بيلايو» عن «تاريخ الإلحاد» ، ومؤلفات إسبانية أخرى مثل أعمال «كاخيجاس» و«كارو باروخا» ومن قبلهم «جانير» و«فرنانديث إى جونثاليث» و«برونات» و«جايانجوس» و«سابيدرا» و«روبليس» و«ريبيرا» و«أسين بلاثيوس» و«لونجاس» وغيرهم.

وقد بدأ العلماء فى القرن التاسع عشر فحسب فى بحث وتحليل النصوص الموريسكية نفسها ، وقد جاء ذلك متأخرا إذا أخذنا فى الاعتبار كثرة الدراسات التاريخية السابقة ؛ خاصة وأن النصوص المكتوبة بالأبجدية العربية أو الرومانثية تحتوى على تفاصيل وفيرة ذات قيمة بارزة فى تاريخ اللغتين وتطورهما ، وفى تاريخ الجماعة الموريسكية نفسها ؛ إذ أن عدد الوثائق القضائية والقانونية للموريسكيين يسمح بإعادة تصور جانب كبير من حياتهم العائلية ، وأحوال الميراث والقضايا والمحاكمات المتصلة بهم.

وقد قام الباحث «جين روبليس» ومن قبله «ريبيرا» و«أسين بالانيوس» بوضع قوائم المخطوطات المحفوظة فى المكتبة القومية فى مدريد ، وفى مجلس توسيع الدراسات ، الموجودة الآن فى معهد «ميجيل أسين» التابع للمجلس الأعلى للبحث العلمى الإسبانى. وقد كرس المستعربون وعلماء الدراسات الرومانية جهدهم لبحث القضايا اللغوية والأدبية فى التراث الموريسكى منذ عدة أجيال. ولكن الذى تصدى لأول

---

(٣١) انظر:

Manzanares de Cirre, Manuela : El Capitulo de las Racontaciones del libro del Samarakandi.

بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولى للأدب الموريسكى والأعجمى المشار إليه ص ٢٣٧/ ٢٣٩.

مرة بطريقة علمية منظمة لنشر الأعمال الكاملة لهذا التراث الموريسكى بطريقة محققة، مصدرة ببحوث لغوية وفيلولوجية دقيقة كان هو الباحث «جالميس دى فوينتيس» الذى يعود إليه الفضل فى نشر«كتاب المغازى» وغيره من كتب التراث الموريسكى. كما كان هو الذى نظم أعمال المؤتمر الدولى للأدب الموريسكى والأعجمى التى عقدها قسمه بكلية الآداب بجامعة أوفيدو» عام ١٩٧٢م. ومن الغريب أن يأتى بعد ذلك باحث عربى محدث، فيضع كتابا عن هؤلاء الموريسكيين ويسميهم «المواركة» ولكنه يقول عنهم «وكانوا يكتبون اللغة القشتالية بأحرف عربية، وعرفت هذه اللغة باسم الأعجمية، فكتبت بها مؤلفات كثيرة فى القرن السادس عشر لم يصلنا منها شىء»(٣٢). ومن المؤسف أن يكون المؤلف المهتم بالتاريخ الحضارى والفكرى والثقافى للموريسكيين غير مطلع على تراثهم، مع أنه قرأ مؤلفات الأستاذ محمد عبد الله عنان الذى أورد فى كتابه «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين» معلومات وفيرة عن هذا التراث، وأحسب أن الاعتماد على المؤرخين الانجليز التقليديين، وداء التصدى للدراسات الأندلسية دون معرفة اللغة الإسبانية التى كتبت بها أهم المصادر الموثوق بها هما المسئولان عن هذه الظاهرة الفادحة المتكررة فى الثقافة العربية الحديثة.

---

(٣٢) انظر: عادل البشلاوى: الأندلسيون المواركة، القاهرة ١٩٨٣ ص ١٤٦.

قناع الحروف وأدب الاغتراب

ـــ بين التقية والتقوى
ـــ من السجل النثرى
ـــ الشعر الموريسكى
ـــ أدب النقمة
ـــ المفارقة بين الأصل والصورة
ـــ الرواية الموريسكية وتأثيرها الأوربى

بين التقية والتقوى :

كان استخدام الموريسكيين للحروف العربية فى كتابة اللهجات الرومانثية واللغات التى لا صلة لها بالإسلام لافتا لأنظار الباحثين الذين اكتشفوا المجموعات الأولى من الوثائق الأعجمية . فظنوا للوهلة الأولى أن باعث الموريسكيين على الكتابة بالحروف العربية يعود إلى ضرورة إخفاء تفكيرهم خلف شفرة يستعصى حلها على أعدائهم ؛ مما يجعل من العسير على غير المسلمين فهم هذه النصوص وفض مغاليقها . وبالرغم من أن هذا التفسير ليس مستبعدا تماما الآن ؛ فإن بعض الباحثين الآخرين يرون فى هذه الظاهرة جانبا مغايرا لذلك إذ ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار أن الصفحات المكتوبة بالعربية من شأنها أن تلفت أنظار السلطات قبل غيرها ، وقد جاء فى أحد أوامر الملك فيليب الثانى ما ينص على ضرورة إجبار الموريسكيين على «أن يقدموا لرئيس المحكمة الملكية فى غرناطة جميع الكتب المكتوبة باللغة العربية ، لكى يتم فحصها واختبارها بعناية» كما أشرنا إليه من قبل .

ولا شك أن كلا من السلطات المدنية والدينية كان لديه خبراء ومترجمين للغة العربية ؛ مما يجعل استخدام الأبجدية العربية مثار تهمة بدلا من أن يكون وسيلة للتمويه والتضليل والشفرة السرية . فإذا أخذنا فى الاعتبار أن استخدام الأبجدية العربية لم يكن قاصرا على الموريسكيين فى إسبانيا ؛ إذ أن هناك نظائر أخرى ــ كما سنوضح فيما بعد ــ فى آداب شعوب إسلامية مختلفة ، كان من الضرورى البحث عن سبب آخر لشرح هذه الظاهرة .

ولعل هذا السبب يكمن فى الطابع المقدس للكتابة العربية وارتباطها بالقرآن الكريم ، والنزعة العاطفية التى تجعل المسلمين يتعلقون بحروفها نتيجة لذلك ، هذا

فضلا عن أن الانتماء لدين ما في ذلك العصر لم يكن يمس مجرد العقيدة والمبادئ فحسب؛ بل يتصل أيضا بالقوانين الشرعية التي كانت ولاتزال تحكم حياة المسلمين، ويتصل كذلك بجملة من العادات اليومية وطريقة معيشة المسلم، مما يمثل في نهاية الأمر نظاما أيديولوجيا متماسكا يفرض طريقة معينة للحياة. والتقاليد الإسلامية نفسها ــ كما هو معروف ــ بتفاصيلها الدقيقة تغطي جميع هذه المظاهر. وفي إطار هذا النظام من الطبيعي أن تقوم الأبجدية التي نزل بها القرآن الكريم بدور هام في تشكيل رؤية العالم لدى الموريسكيين باعتبارها مظهرا للإنتماء للأمة الإسلامية. هذا بالإضافة إلى أن رغبة الموريسكيين في أن تعتمد كتاباتهم على نظام «الشفرة السرية» هذا تجعل عملية الكتابة نفسها وسيلة للمباعدة بين الموريسكي والعالم المحيط به، والمعادي له، تتمثل على حد تعبير المستشرق الإسباني الكبير «جارثيا جوميث» نوعا من «السور النفسي» الذي يحتمي به ويهرب خلفه (١). وهذا ما أدركته السلطات الإسبانية عند فرضها الحظر على الكتابة بالحروف العربية.

فانتشار ظاهرة كتابة اللغات الأعجمية بحروف عربية مؤشر واضح إذن للارتباط الحميم بين اللغة والدين، ولم يكن هذا الارتباط قاصرا على الجماعات الإسلامية، فهناك أمثلة عديدة أخرى لجماعات دينية تظهر تماسكها من خلال الإصرار على استخدام أبجدية معينة، كما حدث في الأبجدية العبرية وكتابات اللغات الإسبانية والألمانية واليونانية والإيطالية والفارسية بها من قبل جماعات يهودية ذات لغات مختلفة. ومن الطريف أن موقف بعض المسلمين تجاه الأبجدية العربية قد يخضع أحيانا لاعتبارات غير عملية لايقرها البعض الآخر، فهناك في العالم الإسلامي مؤلفات كثيرة عن الأبجدية العربية تعزو قوة سحرية خارقة لحروفها وتعتبرها رموزا كونية، وفي بعض هذه المؤلفات ــ المكتوبة باللغة الصينية مثلا ــ ينسب المؤلف الحروف العربية إلى أصول خيالية، حيث يقول أنها وجدت محفورة على حجر في نهر بالغ العذوبة والصفاء، أمام قصر «امبراطور العالم»، ثم ينسب جميع الأبجديات الأخرى المعروفة

---

(١) انظر بحوث كل من Hegul, Ottmar, Garcia Gomez حول هذه القضية في أعمال المؤتمر الدولي للأدب الموريسكي والأعجمي المنشورة في مدريد عام ١٩٧٨.

إلى أصول عربية، «ومن هنا كان استخدام الأبجدية فى التعاويذ والسحر وغيره من الأغراض الروحية الخفية»(٢).

وهناك حالات أخرى بارزة لاستخدام الأبجدية العربية فى اللغات الأوربية، منها ما حدث فى بلاد البلقان وبعض بلاد أوربا الشرقية؛ حيث وصلت إليهم الأبجدية العربية عن طريق الأتراك. وفى هذا الإطار تجدر الإشارة إلى الأدب الأعجمى المكتوب باللغات «الصربوكرواتية» الذى كتبه المسلمون فى منطقة «بوسينا» فى يوغوسلافيا. وقد بدأ ذلك فى أوائل القرن السادس عشر أيضا، لكنه استمر حتى مطلع القرن العشرين. ويشير الباحثون إلى بعض الخواص المميزة التى تتكرر فى جميع الآداب الأعجمية؛ منها ظهور الصعوبات فى ضبط الكتابة بالحروف العربية، مثلما يحدث فى استخدام حروف المد الضرورية فى هذه اللغات المختلفة فى طبيعتها ووظيفتها عن اللغة العربية، وكما يحدث فى كل الآداب الأعجمية تكثر استعارة المفردات، لكنا نجد إلى جوار العربية استعارة كلمات كثيرة من الفارسية والتركية، ويغلب عليها الطابع المولد، وكثرة ذكر الآيات القرآنية باللغة العربية، ونجد هذه النصوص أحيانا مرافقة لنصوص أخرى عربية أو فارسية أو تركية، ومما يجعل من العسير على الدارسين اكتشافها لكتابتها كلها بالأبجدية العربية. كما وجد الباحثون بعض الكلمات التى تمتزج فيها العناصر التركية والعربية ذات اللواحق السلافية، أو كلمات سلافية بلواحق تركية. أما من حيث دلالتها فهى آداب ذات طابع دينى بصفة عامة، وإن لم تكن دائما مستلهمة من التراث التقليدى، نظرا لانتشار كثير من الطرق الصوفية فى الأوساط الشعبية، وهى طرق تعتبر امتدادا للطرق التركية. بالإضافة إلى كتب لغوية ونحوية لتعليم اللغة التركية، وبعض المنظومات الشعرية، ولون آخر من شعر «التروبادور» المتأثر فى جملته بالأدب التركى.

وفيما يتعلق بالأدب الأعجمى المكتوب باللغة «الصربوكرواتية» فإنه لم يحظ خارج نطاق الجماعة الإسلامية بكثير من العناية والاهتمام، فهو أدب اتخذ فقط للتواصل بين أتباع الدين الواحد، كما أن الأبجدية العربية كانت قد دخلت

---

(٢) انظر: نفس المصدر السابق، ص ١٥٩.

«ألبانيا» تدريجيا مع التحول الإسلامى بعد سيطرة تركيا التامة على «ألبانيا» عام ١٤٦٨م، مع أن الوثائق الأولى التى تظهر فيها اللغة الألبانية مكتوبة بحروف عربية تعود إلى القرن الثامن عشر فحسب، ومن أهمها ديوان أشعار «نظيم» المولود فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر. كما عثر على أشعاره مكتوبة أيضا بحروف يونانية. وهى فى جملتها أشعار «تروبادورية» تستلهم الأدب التركى وتشبه ما أثر عن أهل «بوسينا». ويلاحظ على أشعار «نظيم» أنها مليئة بالكلمات الشرقية من عربية وتركية وفارسية، وهى وإن كانت غزلية إلا أنها تميل فى بعض الأحيان إلى الجانب الدينى؛ حيث يذكر فى بعض قصائده نهاية العالم وظهور الدجال كما نرى فى الأدب الموريسكى. وكانت هناك محاولات لكتابة اللغة اليونانية بحروف عربية، منها بعض كتابات المتصوفة مثل «ميفلانا» «وسلطان بيليد»، وهى كتابات تختلط فيها الفارسية والتركية بالأشعار المنظومة باليونانية. ويتم ذلك فى مزيج طريف يذكر الباحثين بالخرجات المميزة للموشحات الأندلسية.

ويذكر الباحثون أنه خلال المناقشات الأولية للإصلاحات الأبجدية فى مجموعة الجمهوريات الإسلامية من الاتحاد السوفيتى فى آسيا الوسطى، كانت المعارضة الإسلامية شديدة، حتى فرضت الأبجدية اللاتينية عام ١٩٢٨، ثم حلت محلها بعد عشر سنوات الأبجدية «السيريليكية cirilic» وكان قد صدرو قرار بتحريم النشر بالحروف العربية ومنع استيراد أية مواد طباعية عربية، ولا يخلو من دلالة ما قاله أحد المهتمين بهذه القضية من أن التقدم فى عملية تغيير الأبجدية يسير ببطء شديد، نظرا لأن المسلمين يعتقدون أن هجر الأبجدية العربية يعد ذنبا فى حق الله وفى حق الدين، مثلما كان عليه وضع الموريسكيين فى عصر محاكم التفتيش الإسبانية (٣).

---

(٣) انظر المصدر السابق ص ١٦١.

من السجل النثرى:

يقدم لنا الأدب الأعجمى الموريسكى رصيداً ضخماً من الأعمال الأدبية يستحق الاهتمام الكبير، طبقا للمبادئ المعاصرة للنقد الأدبى واللغوى، فضلا عن أهميتها البالغة فى مجال الدراسات الأدبية المقارنة، وهو الأمر الذى يعنينا فى هذا المقام. وتكفى الإشارة إلى أبرز هذه الأعمال الأدبية للتأكد من ذلك.

فمن بين الأعمال القصصية الأعجمية من روايات وحكايات وأساطير، ما نشره المستشرق «نيكل» منذ بداية هذا القرن، مثل حكاية ذى القرنين أو الملك الاسكندر، ونجد فيها جبالا تتكلم، وطيورا وأشجارا تتحاور، ومدنا تطير فى الهواء أو تسبح فى الماء، ووحوشا غريبة، وأنهارا من الأحجار الكريمة، وغير ذلك من العجائب.

وقصة أخرى بعنوان «توبة التعيس»، وتحتوى على مجموعة من المشاهد التاريخية الواقعية، التى تعكس الحياة الإسبانية فى القرن السادس عشر، من خلال رحلة يقوم فيها البطل بدخول مدينة كبيرة؛ حيث يرى العروض المسرحية والمشاهد الغرامية وغزل الشباب على شواطئ نهر الوادى الكبير بالأندلس، والمهرجانات والحفلات، و«قصة حب باريس وفيانا» وهى من أهم روايات الفروسية وأعظمها ذيوعا فى أوربا الغربية، وكان لها حظ كبير من عناية الموريسكيين واهتمامهم، وقصة أخرى طريفة بعنوان «حمام زرياب» تدور أحداثها فى قرطبة، وترجع إلى أصل عربى ورد فى الكتب الشرقية مثلما جاء فى «معجم الأدباء» لياقوت، وإن كانت تحتوى على بعض العناصر التفصيلية عن الحياة اليومية لأهل الأندلس خلال ازدهار الخلافة فى عصر المنصور كما شرح «أسين بالاثيوس». وحكاية يوسف التى تروى قصة حب

يوسف بن يعقوب طبقا لما جاء فى القرآن الكريم. و«حكاية موسى مع يعقوب القصاب» التى يرى بعض النقاد تأثيرها فى مسرحية الكاتب الإسبانى الكلاسيكى «تيرسو دى مولينا» المسماة «المدين لفقدانه الثقة». و«حكاية الصديقين» ذات الأصول العربية التى نجد شبيها لها فى مجموعة «بوكاشيو» الشهيرة «ديكاميرون» و«حكاية الفتاة أركايونا» التى تروى قصة فتاة بريئة تتهم ظلما وتقطع يدها وتساق للغابة، ولكنها تنقذ وتظهر براءتها فى النهاية. و«حكاية العربى والصبية» التى تروى قصة الفتاة التى حكم عليها بالإعدام عقب مولدها، ولكن عطف أبيها عليها يسعفها، ثم تصلى على النبى محمد وهى فى المهد أمام أبويها المشركين فيثور عليها أبوها ثانية ويذبحها فى الغابة، فيعلم النبى بذلك ويذهب إليها ويبعثها إلى الحياة فيسلم أمامه الأبوان. وكذلك حكاية «تميم الدارى» صاحب الرسول، الذى رحل إلى وادى الجن ثم عاد لدنيانا يحكى ما رآه فى قصة شيقة تضارع قصص ألف ليلة وليلة. و«حكاية معجزة القمر» وتروى معجزة الرسول الذى جعل القمر يختفى ويعود للظهور فى حضرة الملك «حبيب»، ثم جعله يهبط من السماء ليزين الكعبة ويطوف حولها سبع مرات، ويدخل فى كمه الأيمن ليخرج من كمه الأيسر. وكذلك «حكاية الدجال ويوم الحشر» التى يوجد نظيرها فى كتاب السمرقندى المشار إليه من قبل، وتروى قصة المسيح الدجال طبقا للمنظور الإسلامى التقليدى، إلى جانب مجموعة أخرى غزيرة من الحكايات المتصلة بالدار الآخرة والجنة والنار وأدب القيامة مما راج لدى الموريسكيين بشكل لم يكن له نظير من قبل (٤).

وهناك فصل آخر هام فى الأدب الموريسكى يتصل بمجموعة من القصص المتعلقة بأنبياء وشخصيات بنى إسرائيل الواردة فى العهد القديم طبقا للروايات الإسلامية، مع زيادات خاصة بالموريسكيين أنفسهم، وذلك مثل قصة إبراهيم وفداء إسماعيل، وقصة موسى مع الحمامة والصقر، وحكاية موته، وحكاية أيوب، وقصة سليمان

---

(٤) انظر:

Galmes de Fuentes, Alvaro : El intres literario en los escritos Aljamiado - Moriscos.

ضمن أعمال المؤتمر الدولى الأعجمى والموريسكى، ص ١٩٠/ ١٩٥.

وقضاياه العديدة، وحكايات مختلفة عن المسيح وميلاده، والأحداث التى جرت على يديه، مثل حكايته مع الجمجمة، وحكايته وهو يحيى سام بن نوح، ومجموعة أخرى من الروايات والحكايات المتصلة بالرسول عليه السلام وأصحابه المقربين، مثل «كتاب الأنوار» الذى يحكى قصة سلالة الرسول و«تاريخ مولد محمد» و«حكاية الضب الذى كلم النبى» و«حكاية موت المصطفى محمد» و«حكاية موت بلال مؤذن الرسول»، وحكاية إسلام عمر، وحكاية ابن عمر مع اليهودية، وحكاية سليمان الفارسى، مما يشكل مجموعة ضخمة من الأقاصيص والروايات التى كان يتداولها الموريسكيون ويزيدون عليها من الأحداث والأساطير مما يشبع رغبتهم فى تقديس السيرة النبوية وإحاطتها بهالة فولكلورية.

وفيما يتصل بلغة الكتابات الموريسكية فإن أسلوبها التقليدى يهبها سحرا خاصا، ويمكن القول مع الباحثين بأن معظم نماذج الأدب الأعجمى الموريسكى قد ظفرت بالشيوع الشعبى عبر روايات تقليدية مجهولة المؤلف، تعيد صياغة الأعمال مع بعض التنويعات المستمرة والإضافات المتتالية التى يقوم بها أدباء مجهولون ليس لهم أساليب شخصية متميزة. وفى نطاق هذا الطابع التقليدى التراثى فإنه يلاحظ على هذا الأدب أنه فطرى ورفيع معا، دون أن يفقد لذلك مرونته وقوته التعبيرية، فلا نجد فيه بطبيعة الحال التنويع الأسلوبى ولا التعقيد اللغوى الخاصين بالأعمال المثقفة، إلا أن البساطة المعبرة لهذه الكتابات هى التى تمثل مركز الجذب الرئيسى لها. كما يلاحظ على هذه الكتابات أيضا أن اللغة العربية فيها قد أصبحت بالتدريج لغة غريبة على الموريسكيين أنفسهم، بعد اعتمادهم على الرومانثية الإسبانية. وأخذت تظهر بوادر هذه الغربة من حين لآخر، ويتجلى بعضها فى النسخ الحرفى لدلالة بعض الكلمات مع الجهل بمعناها الصحيح، مثل كلمة «قلب» فى اللغة العربية التى تعنى الفؤاد حينا، والتحول والانقلاب حينا آخر، ولكنا نقرأ فى النص التالى مثلا باللغة الإسبانية ما ترجمته :—

«ويقول علماء آخرون بأن قلب النون هو هذا الحرف الذى يبدو ميما، وقال

غيرهم أن قلب النون إنما هو النقطة الحمراء» ، ومعنى هذا أن الكاتب الموريسكى لم يعد يميز بين معانى كلمة قلب المختلفة كمايتضح من نصوص أخرى مشابهة لذلك (٥).

ومن ناحية أخرى فقد تبين للباحثين من تحليل نماذج هذا الأدب أنه جدير بالاهتمام البالغ فى حد ذاته ، نظرا لوفرة رصيده القصصى والأسطورى ونماذجه الشعرية ، فضلا عن علاقاته الخصبة بالآداب الأخرى كما أشرنا من قبل ، فقصة «الفتاة أركايونا» ترجع إلى موضوع فولكلورى ذى أصل شرقى عن الفتاة البريئة التى تتهم زورا فى عرضها وتهرب إلى الغابة ، وهو موضوع ظفر بشهرة واسعة فى الأدب الرومانتيكى ، وأقدم نص يتصل بهذا الموضوع يوجد ضمن مخطوط لاتينى فى المكتبة القومية بباريس ، ويعود إلى القرن الحادى عشر ، وفى الأدب اللاتينى الذى يعود إلى العصر الوسيط توجد أيضا حكاية الفتاة التى فقدت يديها — والتى أشرنا إليها من قبل — فى مخطوط آخر كتب فى انجلترا فى القرن الثانى عشر ، ويعثر الباحثون على هذا «الموتيف» الموضوعى فى الأدب المتأخر عن ذلك ، فى الأغانى البطولية والقصائد الروائية الفرنسية مثل «ماكير Macaire » التى تعود روايتها الأولى إلى القرن الثانى عشر ، وتقوم ببطولتها زوجة «كارلوماجنو» أو شارل العظيم ، وتعد من أقدم الأغانى التى تدور حول هذا الموضوع ، وأساسا ملهما لجملة من القصص والروايات الأخرى التى جاءت بعدها وأخذت منها كثيرا من العناصر.

ومن ناحية أخرى فإن أدب القديس «سان خوان دى لاكروث» الصوفى الشهير الذى حلل «أسين بلاثيوس» مصادره فى الفكر الأندلسى الإسلامى ، كان وثيق الصلة بكتابات الموريسكيين الدينية ، خاصة من أمثال «فتى أريبالو El Mancebo de Arevalo» الذى كان على علاقة صوفية بإحدى الزاهدات وتسمى «عربية أو بيدا La Mora de Uveda » نسبة إلى المدينة التى زارها الكاتب الموريسكى ، وهى نفسها التى عاش فيها ومات القديس «سان خوان دى لاكروث» ، كما أن المدن الأخرى التى مر بها وتردد عليها مثل المدينة وسلمنقة

(٥) انظر: Kontzi, Reinhold : Calcos semanticos en textos Aljamiaodos.
ضمن أعمال المؤتمر الدولى للأدب الأعجمى والموريسكى . ص ٣٣٢/ ٣٣٣.

وغرناطة والقلعة وشيقوبية وطليطلة كانت مراكز أثبتت البحوث وجود جماعات موريسكية بها. وقد برهن بعض الباحثين على أن نسب «القديسة تيريزا» و«سان خوان» ينتميان إلى عائلات مسيحية جديدة، أى موريسكية الأصل، ومن شواهد ذلك أن والدة القديسة قد لقيت اعتراضا من أسرتها عند زواجها بأبيه نتيجة لانحداره من أصول موريسكية، مما يشرح الامتدادات الفكرية والصوفية التى تمثلت لديها (٦).

و«فتى أريبالو» المشار إليه من قبل يعد نموذجا طريفا للموريسكى المثقف الذى كان يعرف اللغة الإغريقية ويقرأ «هوميروس» خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، وقد جمع فى كتابه «الخلاصة الموجزة» بالإسبانية ترجمات النصوص الدينية الإسلامية، ووصف بدقة المخطوطات والكتب الموريسكية التى كانت تحت يده. ويصفه ناسخ مخطوطة كمبردج بأنه كان «عظيم الخبرة والمعرفة بالقراءة العربية والعبرية والإغريقية واللاتينية، وطويل الباع فى الأعجمية»، وهو يقول عن نفسه: «قبل أن أتوفر على دراسات القرآن الكريم كنت لا أكف عن قراءة الكتب القديمة، وغزوات الصحابة، والملاحم الإغريقية، والكتب الرومانية، وكبار المؤلفين اللاتينيين والعبريين، وبعد أن اتجهت للقرآن بدا لى كل هذا على أنه باطل، لأن كل القراءات الأعجمية مشكوك فى صحتها، وبعد أن تمعنت فى القرآن غرقت كلها فى صدرى، حتى لم أعد أذكر «شيشيرون» اللاتينى كما لو لم أكن قد درست أبدا كتابه عن الكون، وأقرأ فى بعض الأحيان «هوميروس» وما كتبه عن حروب طروادة الطويلة، ثم تركت كل ذلك فى نهاية الأمر، وعكفت فى سلام على دراسة تفسير القرآن الكريم، عازما على أن أبرحه مادمت فى هذه الحياة»(٧).

واللافت للنظر فى حالة هذا الموريسكى النموذجية أمران على قدر عظيم من الأهمية:ـــ

---

(٦) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٤ ص ٢٠٢ـــ ٢٠٦.

(٧) أنظر: Harvey, L.P.: El macebo de Arevalo Y la literatura Aljamiada.

ضمن أعمال المؤتمر الدولى للأدب الأعجمى والموريسكى، صفحة ٢٢.

أحدهما علاقته المباشرة بالثقافة اليونانية واللاتينية، وتصريحه بولعه القديم بالأدب الملحمى، مما يعد عميق الدلالة على نوعية ارتباط المثقفين الموريسكيين بالأدب الغربى القديم، ويشير إلى قدرتهم على اتخاذ بعض أنماطه وأجناسه إطارا لإبداعهم الأدبى المتجذر فى الثقافة الإسلامية، مما يجعل الحديث بعد ذلك عن الصياغات الملحمية لبعض مواد التاريخ والأساطير الإسلامية مشروعا لا ينقصه الدليل التاريخى الموثق.

أما الأمر الثانى فهو ما عنى به الباحثون من إثبات خط اتصال الأدب الموريسكى بالأدب العربى من ناحية والأوربى من ناحية ثانية، فقد اتضح أن كتابات «فتى أريبالو» هذا قد تلقاها مؤلف موريسكى آخر يسمى محمد ربضان، وهو كاتب أرغونى حفظت أعماله الأدبية بفضل المخطوطات المكتوبة بحروف لاتينية قبل أن ينتقل إلى شمال أفريقيا، ومنها مخطوط فى مكتبة المتحف البريطانى، وآخر فى باريس، ويتصور الدارسون خطا من التناقل، يمر عبر محمد ربضان ويصعد إلى فتى أريبالو حتى يصل إلى أستاذه، وهو مفتى شيقوبية، مما يدل على وجود تقليد غير منقطع، يعود إلى مرحلة ما قبل سقوط غرناطة، ويستمر خلال العصر الموريسكى، ويصل فى نهاية الأمر بعد طردهم إلى الارتباط مرة أخرى بالثقافة العربية فى خط تطورها العربى الإسلامى فى تونس(٨)، بعد أن يكون قد اشتبك فى جذوره بمكوناتها القديمة فى الأندلس، وتغذى على ما تمثله من الآداب اليونانية واللاتينية، وترك أثره فى آداب اللغات المشتقة من اللاتينية، ثم عاد ليصب مرة أخرى فى المجرى الواسع للثقافة العربية.

---

(٨) المصدر السابق.

الشعر الموريسكى:

بالإضافة للإنتاج الموريسكى النثرى الغزير، فإن الإنتاج الشعرى المأثور عنهم يتيح لنا منذ القرن الرابع عشر نماذج هامة من الأدب «الألخميادى»، مثل قصيدة «يوسف» التى تحكى قصة يوسف عليه السلام الواردة فى القرآن الكريم، ولكنها تتوسع فيها استفادة من التفاسير المختلفة، وهى لا تقل فى شاعريتها عن بعض الأعمال الكلاسيكية؛ فعندما يتمكن إخوة يوسف مثلا من إقناع أبيهم بأن يأذن لهم باصطحابه معهم يقول مؤلف القصيدة الموريسكى:

وكم قالوا من معسول الكلمات
وأثاروا من جميل العبارات
حتى ترك لهم الطفل، سلمهم أمره
فأنقذه الله من شر الغدر.

وتنتمى إلى نفس القرن الرابع عشر قصيدة أخرى بالأعجمية فى مدح الرسول عليه السلام مكتوبة بنفس النمط الرباعى، وتبدأ بداية شبيهة ببداية قصة يوسف هكذا: ـــ

الحمد لله العلى الحق
سبحانه وتعالى سيد الخلق
رب العالمين الأحد الصمد
الخبير القدير الآمر بالرشد.

ود استخدمت هذه المدائح فى أعمال كثيرة وصلت لذروتها عام ١٦٠٣م فى

«تاريخ أنساب محمد» الذى وضعه أشهر شاعر موريسكى وهو «محمد ربضان» المشار إليه من قبل، ويقدم فيه رواية حرة لبعض كتابات الزاهد الإسلامى الكبير أبو الحسن البصرى، وقد استلهمه ربضان مغيرا لهجته بسهولة فائقة؛ حيث يستخدم مثلا ظلالا فنية فى حديثه عن ملك الموت عندما يأتى إلى إبراهيم ليزف له البشرى :ـــ

أنا من يخشى اسمه
كل من يذكر اسمى
من أسفل الأرضين
لأعلى البروج

أنا من لا يبرأ أحد
من عواطفه المريرة
فالكل سواسية عندى
من الكبار والصغار

من أحقر العمال
إلى أعظم الأباطرة
من أعلى الملوك المتوجين
إلى أقل الرعاة الشاردين

أنا الطليعة الفريدة
لا يخفى عن ناظرى
مخلوق ذو روح
ولا كائن حىّ

أنا ممزق الجيوش
ومفرق الجماعات
ونازع أرواح الأحباب
من غلائل الأجسام (٩).

(٩) انظر: G. Ilcknor: Historia de la literatura Espanola, Vol. IV. Madrid 1850. pag 279.

كما كتب محمد ربضان نفسه رواية شعرية عن الحج إلى مكة المكرمة بعنوان «أغانى الحاج بوى مونثون» ونشرت فى القرن الماضى بمدينة سرقسطة . وهناك أيضا شاعر آخر موريسكى يسمى «محمد الخرطوش» أثرت عنه مجموعة من الأشعار بعنوان «أغانى باينا . Cancionero de Baena » ، بالإضافة إلى شعراء آخرين نعرف أسماءهم مثل «خوان ألفونسو» و«إبراهيم أبو الفداء» وهو من الجزائر «أعمى النظر ، بصير القلب والفهم» كما كتب فى مقدمة مخطوطه الذى شرح فيه بالرومانسية فى مجموعة من الخماسيات أصول الإسلام وقواعده الشرعية ، وهناك قصائد أخرى مجهولة المؤلف تشير إلى استمرار ظواهر الزجل الأندلسى فى هذا الإنتاج الموريسكى ؛ وإن كان التعرف على خواصها اللغوية الزجلية يتطلب مقارنة لهجات الأدب العربى بالظواهر المناظرة لها فى اللغة الإسبانية ، ومن أمثلته هذه المدحية النبوية :

الله يا ربى
يا محمد دارابى (١٠)
يانبى الحق
عربى من عربى

الله أحد صمد
لا يشبهه أحد
ورسوله محمد
جاء بكل الحق
والإسلام أبى

الله يا ربى
يا محمد دارابى

(١٠) كتبت هذه العبارة هكذا بالحروف اللاتينية « Dara bi. » ويمكن أن نفهم منها معنى هذا ربى على أساس أن «دا» صيغة عامية لاسم الاشارة العربى ، ويمكن أن تقرأ « دار أبى » إشارة للموطن ، ويمكن أن تتصل بمعنى المداراة وتكون بمعنى « داربى » أى تستر علىّ ، وربما كانت توريه مقصودة تحمل أكثر من معنى .

يانبى الحق

عربى من عربى.

كما استخدم الموريسكيون إلى جوار الرباعيات والخماسيات شكلا شعريا أوربيا هو «الرومانث» الذى يجمع بين الأقصوصة الشعرية وخواص «البالاد» المعروفة فى الآداب الغربية (١١) وذلك مثل رومانث «العربية المخدوعة» الذى يستخدم صيغة التصغير المحببة فى كلمة «عربية Mora» فتصبح « La morilla »، وقد ورد فى مجموعة الرومانث القديمة المطبوعة فى أوائل القرن السادس عشر، وترجمته ما يلى:

أنا عربية عروب
عربية من نسل ابن قطر
مسيحى جاء لبابى
جاء يبغى لى الخطر
حدثنى بلغتى الحبيبة
كأنه من أهل طيبة
افتحى الباب يا عربية
صانك الله من الشر
ويلى كيف أفتح لك
وأنا لا أعرف من تكون
خالك المحزون
قد صرعت مسيحيا
وهم خلفى يعدون
إن لم تفتحى لى يا حياتى
سترين دمى يسفحون
عندما سمعت هذا

(١١) انظر: صلاح فضل: «من الرومانث الإسبانى دراسة ونماذج» الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٤ ص ٥ــ٨.

شرعت في النهوض
ارتديت مشيّتي
إذ لم أعثر على الشال
ومضيت نحو الباب إليه
أفتحه على مصراعيه ... إلخ.

وقد عكف الدارسون على تحليل الجوانب اللغوية في هذا الرومانث، خاصة تلك الكلمات التي اتضح لهم أنها ذات أصل عربي، وإن كانت لا تميز الرومانث الموريسكي من غيره، وقد توقفوا عند كلمة « Morayma » وهي فيما يبدو تصغير لاسم «مريم» إلا أنها وردت في بعض الروايات بنون في آخرها، فتصبح تصغيرا عربيا لكلمة إسبانية هي « Morena » أي سمراء، ويستنتج الباحثون أن واضع هذا الرومانث لابد أن يكون مزدوج اللغة، لأنه يتقن العربية وينقل عنها حرفيا إلى الإسبانية، فبالرغم من أن الإسبانية تخلط بين العم والخال؛ إذ تسمى كليهما « Tio » إلا أنه يطلق عليها هنا «أخو أمك» أي خالك على وجه التحديد، ويرى بعضهم أيضا أن الشاعر لا يقصد «يا حياتي» وإنما «لعمري» وأنه عندما اختار اسم مسعود، وهو قليل الشيوع في الجزيرة الإيبيرية دل بذلك على أنه وطيد الصلة بالعالم الإسلامي، ويخلصون من ذلك إلى أنه لا ينبغي أن يعد هذا الرومانث مجرد انعكاس للأفكار والمشاعر العربية كما يراها الجانب المسيحي، بل أولى به أن يكون لمؤلف عربي موريسكي، ويمكن حينئذ أن يكون ترجمة لأغنية عربية، أو أنه قد وضع أصلا بالإسبانية على الطريقة الموريسكية، ويؤيد هذا الاحتمال الأخير تمكن مؤلفه من أساليب الإسبانية مما لا يتأتى عادة في الترجمة، ومعرفته العميقة بوسائل الأداء الشعرى الخاصة بجنس «الرومانث»، وموقفه المعادى أساسا للمسيحيين، فلسنا إذن أمام شاعر متعاطف مع العرب كما يحدث في أشعار الثغور، بل إنه يعبر بقوة عن إدانته لهؤلاء المنتصرين لغدرهم وفقداهم المروءة والأخلاق، مما لا يمكن أن يصدر عن مؤلف مسيحي، ولا بد حينئذ أن يكون مسلما إسبانيا، أي موريسكيا (١٢).

---

(١٢) انظر:
Armistead, Samuel : Existio un romancero de Tradicion oral entre los moriscos ?
ضمن أعمال المؤتمر الدولي ص ٢١٨/ ٢٢١.

أدب النقمة:

نتيجة لظروف القهر التى عاشها الموريسكيون، شاع لديهم نوع آخر من الكتابة يفتح لهم بعض منافذ الأمل، عبر المقاومة والنقمة على من شردهم وضيعهم، فنجد شاعرا منهم، هاجر إلى الشمال الأفريقى، واتخذ له هناك اسما عربيا هو «الأستاذ» بعد أن كان يسمى «خوان ألفونسو» يقول:

جسد لعين إسبانى
منتن كلبى
برؤوسك الثلاثة
على أبواب الجحيم.

كما نجد كتابا آخرين من الموريسكيين ينذرون إسبانيا بالويل والثبور، ويطلقون عليها «ناكثة العهود» وعلى رجال الدين فيها «ذئاب لصوص بلا رحمة، يحترفون الكبر والتعالى، ويمارسون اللوطية والفسق، والإلحاد والكفر، والتجبر والظلم»، وينشد شاعر موريسكى آخر:

فلينم العقل
ولْتَصْحُ الخيانة
وليغب العدل
ولْيَسُدْ الشر[١٣].

وكانوا يرون فى اندفاع الجيوش التركية الإسلامية، وتهديدها للبلاد الأوربية فى

(١٣) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٤ ص ١٩٦.

القرن السادس عشر الأمل المنشود فى جبر كسرهم واسترداد وطنهم السليب، ولهذا استخدموا بعض النبوءات والتكهنات المنسوبة إلى القديس «إيسيدرو» التى انتشرت فى منطقة قشتالة إبان هذه الفترة، وهى تتنبأ بتدمير إسبانيا على يد الأتراك، فأخذ الموريسكيون يتداولون فيما بينهم مجموعة من الكتب والرسائل فى الزجر والطيرة والتكهنات الشعبية، مثل كتاب «الأقوال العجيبة» الذى يعده للنشر الآن الأستاذ المستشرق «فرناندو دى لاجرانخا»، ويحتوى على مجموعة كبيرة من الوصفات السحرية ورموز القبالة و الرقى والنبوءات وعلامات التفاؤل والتشاؤم التى تصلح لمختلف الأغراض، وكذلك كتاب «الحظوظ» وهو موجز يشرح الوسائل التى يتمكن بها الإنسان من معرفة نتائج مساعيه فى الخير والشر، وكتاب «حكاية ذى القرنين» وهو مجموعة من النبوءات والتكهنات التى يعتقد أن لها صلة وثيقة بما كان شائعا لدى العرب فى الجاهلية و«كتاب الأحلام» ويشرح أنواع تفسير الأحلام وتأويلها، والرقى والتعاويذ المختلفة. و«حكاية الأسماء» ويقدم نصائح عملية لمواجهة الكوارث الطبيعية.

ولم يقتصر الأدب الموريسكى على تقديم هذه المواد الغيبية الوفيرة، التى قامت بوظيفة حيوية فى حفظ التراث الأنثروبولوچى للموريسكيين من ناحية، ومدهم بالقوة المعنوية الضرورية لمواجهة القهر والاستلاب المهيمنين عليهم من ناحية ثانية، بل انتشرت فى تضاعيفه أيضا كثير من العناصر التى تستثير القوى الروحية لمقاومة الخطر الماحق، فانتشرت لديهم الكتب التى تدحض العقيدة المسيحية واليهودية للحفاظ على جذوة الإسلام متقدة فى نفوسهم، فنجد لديهم عددا كبيرا من الكتب فى التوحيد والفقه المالكى الذى كان سائدا فى الأندلس والمغرب، بل وبعض الرسائل فى الفقه الحنفى الذى كان سائدا فى الامبراطورية العثمانية كذلك. وكان هناك أيضا بعض المتحمسين من ذوى الحس الدينى المرهف، ممن آثروا لونا من الأدب الإسلامى الصوفى وكتابات الزهد، والنموذج البارز لهؤلاء هو «فتى أريبالو» الذى أشرنا إليه من قبل، والذى يعد كتابه «تفسيرة» عرضا وافيا للمبادئ والأحكام الإسلامية، وكتابه الآخر «موجز العلائق والتطبيقات الروحية» عرضا لأهم أفكار الغزالى فى

الإحياء، وأفكار غيره من مؤلفى الإسلام فى الزهد والتصوف. وهى كلها كتب هامة تكشف عن دور التراث الفكرى والروحى الإسلامى فى صون شخصية الموريسكيين فى اسبانيا خلال القرن السادس عشر[١٤].

(١٤) المصدر السابق، ص ١٩٨.

المفارقة بين الأصل والصورة:

أما كيف رسم الأدباء الإسبان ــ ومن بعدهم الأوربيون ــ هذا العربى الموريسكى فى أدبهم ، فإن لذلك حديثا مطولا يستغرق كثيرا من البحوث ، ولابد أن نعرض له بقدر من الإيجاز والتركيز قبل أن ننتقل إلى مركز الجذب فى الدراسة المقارنة للتراث الملحمى الموريسكى.

وقد كانت هناك دائما فى العصور الوسطى مفارقة واضحة بين صورة العربى النبيل ، عاشقا وفارسا ، قد يغازل الحبيبة حينا ، ويتودد إليها ويركب الصعاب من أجلها أحيانا أخرى ؛ فيتخطى معسكر الأعداء عندما تلتهب مشاعره ، ويشتعل قلبه الذى لا يعترف بالفوارق بصبية حسناء من المسيحيات أو الروميات ــ كما كانوا يسموهن حينئذ ــ وقد ينصب غزله على مدينته الغالية وهو يرى من يخطب ودها ويتهدد ولاءها ليقترن بها غصبا ، فتثور فى نفسه حمية الرجل العربى المسلم ، وهو يقاوم تيار الأحداث ، ويحاول أن يدفع بيديه غضبة الطوفان ، مما يجعله جديرا بكثير من الإعجاب والإشفاق معا . فتبرز حينئذ مفارقة حادة بين هذه الصورة الشجية الأسيانة ، وبين صورة أخرى قريبة وأليمة ، عميقة الارتباط بالواقع ؛ وهى صورة الموريسكى المغلوب على أمره ، الممتهن فى و سطه ، الذى يعد سليل هذا الفارس الماجد الأصيل وإن كان قد ساء حاله وتدهور أمره وفقدمكانته الاجتماعية كمواطن ممتاز ، وأصبح يتوارى بدينه وأصله وعاداته ، واضطر إلى تغيير اسمه وجلده ، وإن ظل دائما مسيحيا جديدا يكمن فى إهابه روح هذا العربى القديم وأشواقه وأحزانه .

لكن الأدب الإسبانى لا يكاد يولى بطبيعة الحال مأساته الداخلية عناية ما ، فهو يراه دائما بمنظور الغالب المنتصر ، قد يتعاطف معه فى لحظة خاطفة ، لكنه مسوق إلى

تبرير صنيعه به، وتمجيد مصيره معه، وقد يصطنع شيئا من النبل فيصوره فى بعض أبعاده الإنسانية مناضلا أو عاشقا، بيد أنه لايلبث أن يسدل عليه ستارا من حماية بطل مسيحى يحتضن طموحه ويقدر مشاعره.

ومن اللافت للنظر أن هذه المفارقة تجد تعبيرا عنها فى شكلين أدبيين مختلفين؛ فبينما تتجسد اللحظة الأولى أو الصورة الأولى فى الشعر الغنائى، لا تجد الثانية متسعا لها سوى فى الأدب الروائى أو الدرامى، ولعل هذا اقرب إلى مقتضيات هذه الأجناس الفنية. ففى الشعر المسمى برومانث الثغور ــ الذى أشرنا إليه من قبل ــ تبرز صورة حياة العربى الغرناطى على وجه الخصوص بشكل مثالى؛ إذ تتعاون العناصر المختلفة على إحاطته بهالة شعرية رقيقة، وتصطبغ الأحداث بالألوان المرهفة الدقيقة، والموسيقى الشجية، والحركات المميزة لعالم الفروسية الجميل؛ فهو يسارع إلى المعركة بروح الفداء، أو يبكى بألم عميق بلده السليب، أو يستعد لهجران قلعته دون أن يفقد شموخه؛ فالحرب دوارة والمعارك دول وهو لا يزال على ثقة من إمكانية استردادها. ويلاحظ بعض الباحثين أن ثلث هذه الأشعار تقريبا تقدم الأحداث من منظور هذا العربى دون أن يعنى ذلك بالضرورة أنه هو الذى كتبها، بل ربما يكون مجرد إجراء فنى يلجأ إليه الشاعر الإسبانى لتلوين رؤيته للموقف، بينما يذهب البعض الآخر إلى احتمال وجود أصل عربى لهذه الأناشيد مالبثت أن ترجمت عنه (١٥)، وهو فرض لم يقم عليه دليل حتى الآن، ويضعفه أن الرومانث ــ وهو الأنشودة الغنائية القصصية المركزة ــ كان جنسا أدبيا خاصا بالإسبانية دون العربية، فلم يؤثر منه شيء فى صيغ هذه الأخيرة حتى يعد أصلا لغيره.

وبعد أن تمت فتوح الاسترداد المسيحية، وأصبح العرب الذين بقوا فى إسبانيا يسمون بالموريسكيين أخذ الرومانث الذى يدور حولهم يسمى موريسكيا كذلك، إلا أن مركز الثقل لم يلبث أن انتقل إلى الرواية ثم عبرها إلى الدراما المسرحية. وكان

(١٥) انظر:

Carrasco urgoiti, Maria Soledad: El Morode Granada en la literatura. Madrid 1956. pag 40-41.

أول عمل روائى إسبانى يدور حول الموريسكيين هو قصة ابن سراج ، وهى لمؤلف مجهول ، نشرت عام ١٥٥١م . وهى تحكى بطولة فارس عربى نبيل من آل سراج وزراء بنى نصر وضحاياهم ؛ مما يجعلهم يبدون وكأنهم برامكة الأندلس ، ويقع هذا الفارس فى كمين نصبه الأعداء ، لكنهم لا يستطيعون التغلب عليه فرادى لبطولته وشجاعته فيأسرونه مجتمعين ، وعندما يخف لنجدتهم قائد المدينة وعمدتها «ناربا بيث» يأبى إلا أن ينازله كفارس مغوار ، ولا يتغلب عليه إلا بعـد أن يبلغ منه التعب والإرهاق مداه ؛ لكنه يدرك أنه أمام فارس عظيم ، وعندما يسمعه يزفر بحرقة وموجدة شديدة يسأله عن سر أحزانه ، فيدور بينهما حوار مرهف يبوح فيه الأسير بأصله النبيل وقصته الشجية ، وفحواها أنه من سلالة بنى سراج الذين نكبوا فى البلاط الغرناطى ، وقد استقر به المقام سرا فى طفولته فى بيت عمدة «قرطامة» وهو يظن أنه أبوه ، وتربى مع ابنته الوحيدة «خريفة أو شريفة» وهو يحسبها أخته ، غير أنه لم يلبث أن أدرك حقيقة شعوره العاشق تجاهها عندما علم بجلية أمره ، وهى تبادله الحب ، حتى انتقل العمدة إلى بلد آخر فاشتدت عليه لواعج الغرام ، وشد رحاله ليلحق بصاحبته عندما وقع في الكمين . عندئذ يأذن له «ناربا بيث» أن يواصل الطريق لرؤية حبيبته على أن يعده بالرجوع إلى أسره حتى يدفع الفدية ، فإذا وصل إلى حبيبته لم تشأ أن تتركه فى محنته ، بل تقترن به سرا عاصية أباها ، وتصحبه إلى الأسر مخاطرة باسمها وثروتها كى تفتديه ، وعندما يعلم «ناربا بيث» بتضحية العاشقة يعفو عن أسيره دون فديه ، ويتوسط لهما عند أبيها كى يبارك زواجها ويأخذهما فى رعايته .

ويعتقد بعض الباحثين أن أحداث هذه القصة ذات أصل تاريخى حقيقى ؛ إذ وجدت بعض الأغانى الشعبية التى تدور حول نفس الموضوع ، كما قدم المسرح الإسبانى فى عصره الذهبى ابتداء من «لوبى دى بيجا» صيغا درامية عديدة لما اصبح يسمى بزفرة العربى ابن سراج ، وأصبحت قصته منبعا لإلهام الأدباء ، فيقول عنها «جاياردو» إنها تبدو كما لو كانت قد كتبت بقلم ملاك طاهر ؛ مفعمة بالحنان والنبل والمودة والعواطف الإنسانية الطيبة ، ويكفى أن نورد بعض ملامح هذا الفارس

الموريسكي كما تقدمه القصة لندرك طابعها العام، فهو «فارع الطول، جميل المحيا، يبدو في أبهى أشكاله وهو يمتطي صهوة جواده العربي الأصيل، عليه رداء قرمزي وعباءة دمشقية، مطرزة بخيوط الذهب والفضة، وقد طوى ذراعه اليمنى التي نقشت عليها بالوشم صورة فتاة حسناء، وبيده رمح حديدي طويل، وعليه درقة سابغة وحزام عريض، وفوق رأسه قلنسوة تونسية تزينه وتحميه» فظاهر الحسن وكرم المحتد هي التي تحيط بابن سراج كهالة تطوق قومه الذين تصفهم الرواية قائلة: «كانت في غرناطة كوكبة من الفرسان ينتمون إلى بني سراج، ويفوقون من عداهم فروسية وبهاء، وكان الملك عظيم التقدير لهم، والشعب وعامة الناس يحبونهم، وكانوا يخرجون منتصرين من كل المعارك التي يخوضونها، ومزهوين في كل الحفلات التي يحضرونها؛ كانوا يبتدعون الزينة واللباس الفاخر، ويمضي بقية الناس في إثرهم، فكانوا قادة المملكة في الحرب والسلم، حتى ليمكن القول بأنه لم يخلق أحد من بني سراج معدما أو جبانا أو سيء الحال، ولم يكن منهم من لم يقم على حب سيدة كريمة، كما لم تكن هناك نبيلة غرناطية لم تقع في هوى أو صبوة مع أحد فرسان بني سراج» (١٦).

وقد ذاعت هذه الرواية في الأدب الإسباني والأوربي من بعده، وقدمت نموذجا للعربي العاشق المتدله، والفارس المسيحي النبيل الذي يعطف على عدوه، كما أبرزت نموذج التزاوج والاندماج في رحاب الحماية الغالبة، كحل أدبي يجسد في ضمير الفنان الإسباني مصالحة مثالية يعرف أنها البديل الخيالي لما حدث في الواقع من قهر وإبادة، ولكن التضاد الفادح بين الأصل التاريخي والمثال الأدبي يبرز وجوه المفارقة بدلا من محوها.

---

(١٦) انظر: **Marales Oliver, Luis : La novela morisca de tema granadino. Madrid 1972. pag 35.**

الرواية الموريسكية وتأثيرها الأوربى:

يعد العمل الأساسى فى هذا الأدب الموريسكى المكتوب باللغة الإسبانية، القصة التاريخية الكبرى التى كتبها «بيريث دى هيتا» بعنوان «حروب غرناطة الأهلية»، خاصة الجزء الأول منها الذى نشر عام ١٥٩٥م تحت عنوان «تاريخ الفرقاء الزغليين والسراجيين من فرسان غرناطة العرب».

وقد جمع فيه المؤلف حشدا من البيانات التاريخية كاد يطغى على النسيج القصصى للرواية، فأخذ يصف لقاءات الفرسان المسلمين والمسيحيين فى غرناطة، وحوادث الحب والتنافس، والحيل والمكائد التى تحفل بها أوساط النبلاء ورجال القصور ونساؤها، كما يصف بدقة وإمعان الحفلات والمهرجانات والصراعات التى كانت تولد وتنمو بين بنى سراج وبنى زغل، ومايتميز به الأولون من فروسية وشهامة، وتصل الأحداث لذروتها بتهمة الخيانة التى يوجهها أربعة من الفرسان الزغليين للملكة «مورايسيلا» زوجة الملك أبى عبد الله مع الفارس السراجى ابن حامد، ممايدفع الملك لمذبحة رهيبة يحصد فيها رؤوس بنى سراج، وتتحول مدينة الألعاب والملاهى لمدينة مكسوة بالدم والحداد. فيثور النبلاء على الملك الطاغية، وينادون بأبيه مولاى الحسن ليتولى الحكم، وينجح القائد موسى، شقيق أبى عبد الله، فى تهدئة خواطرهم، وينظم —على طريقة كتب الفروسية— مبارزة بين الفتيان الزغليين الأربعة الذين يتمسكون باتهام الملكة— لاحظ دلالة هذا الرقم ومطابقته لعدد الشهود فى وقائع القذف بالزنا فى التشريع الإسلامى— وأربعة فرسان آخرين من حماة الملكة يتقدمون للميدان مرتدين الملابس العربية، بينما هم فى حقيقة الأمر فرسان قشتاليون مسيحيون عهدت إليهم الملكة ذات الأصل الإفرنجى بالدفاع عن

شرفها، وتظهر الحقيقة فى المبارزة وهى براءة الملكة، لكن الموقف يزداد توترا فى غرناطة لأن العرش قد أصبح يتنازعه ثلاثة ملوك، وتتوالى الأحداث التاريخية بعد ذلك حيث يسجن الملك الصغير، وتتقدم الجيوش القشتالية مهددة المملكة، وتتفاقم الخلافات بين قادة غرناطة حتى تنتهى بتسليم المدينة ورحيل أبى عبد الله باكيا كالنساء على ملك لم يعرف الحفاظ عليه كالرجال كما قالت له أمه فى عبارة تاريخية شهيرة، وتنتهى القصة بحكاية حب بين الفارس العربى «غزول» و«ليندا راجا»، وموت القائد المسيحى «ألونسو أجيلا» وهو يحاول القضاء على ثورة الموريسكيين فى جبال غرناطة الشهباء».

وقد ظفرت هذه الرواية بنجاح منقطع النظير داخل اسبانيا وخارجها بالرغم من تغير الأذواق والأمزجة الثقافية، فطبع منها داخل إسبانيا ست عشرة طبعة فى القرن التالى، بالإضافة لطبعتين فى البرتغال ومثلها فى باريس، وفى فرنسا أدت إلى ظهور موجة الأدب الموريسكى التى استمرت على مدى قرنين من الزمان، وأثرت فى عدد كبير من روايات الفروسية والأعمال الدرامية، وفى انجلترا برزت أعمال هامة متأثرة بالأدب الموريسكى مثل «غزو غرناطة» «لجون درايدن». وظل كتاب «بيريث دى هيتا» يمثل مصدرا لا ينضب للكتاب الإسبان والأوربيين من أتباع المدرسة الكلاسيكية، حتى جاءت الرومانتيكية فاحتفت به حفاوة بالغة، واكتشفت فيه كثيرا من قيمها المولعة بالآداب الشرقية والمفعمة بالروح العاطفى التاريخى النبيل (١٦).

وقبل أن نتحدث عن هذا الاستثمار الرومانتيكى للرواية الموريسكية يجدر بنا أن نحدد طرفا من خصائصها كما تجلت لدى معظم الكتاب؛ فنلاحظ أولا أن تفردها ينبع أساسا من موضوعها؛ فالإطار الزمنى لها، وخواصها الفنية تتحدد باسمها، فعندما نقول «موريسكى» فإن هذا يكتسب قوة إيحائية لا تلتبس بغيرها، ولا تختلط بمصطلحات أخرى مثل مستعرب ومدجن وعربى كما أوضحنا من قبل، على أساس

(١٧) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ١٥ صفحة ٦٨.

أن كلمة موريسكى نفسها وريثة كلمة مدجن؛ فبعد سقوط غرناطة وإخماد بقايا ثورات المسلمين فى جبالها خيروا بين أمرين كما شرحنا إما التنصر وإما الهجرة؛ فمن اختار التنصر الظاهرى سمى موريسكيا، وقد يسمون أيضا «المسيحيين الجدد».

فالقصة الموريسكية إذن هى التى تقع أحداثها بين عام ١٥٠٢م وأعوام ١٦١٠ — ١٦٢٠ التى شهدت الهجرات الأخيرة لبقايا الموريسكيين إلى شمال أفريقيا وموانى الشرق الأوسط. ومع هذا فإن مصطلح الموريسكى قد يسمح ببعض التجوز الزمنى بإدخال الموضوعات المتصلة بالقرن الخامس عشر فى مملكة غرناطة نظرا لأنها غالبا ما كتبت فى القرن الذى يليه، مما يجعلها داخلة فى الزمن الموريسكى. ولكى نفهم الحقائق الجوهرية فى الرواية الإسبانية الموريسكية لابد أن نعرض لأهم الخواص المهيمنة عليها؛ وهى خواص تنبع أساسا من طابعها الإسبانى الذى تميزت به عن بقية الآداب الأوربية؛ فقرون المعايشة والصراع الطويلة بين الثقافة العربية والإسبانية وما تمخض عنها من تقاليد أسهمت فى بزوغ وازدهار حركة أدبية روائية وشعرية تضرب بجذورها فى أعمال هذا العالم المزدوج الشخصية بين العروبة والإسبانية، وبهذا صارت إسبانيا مهدا لجنس فنى جديد وطريف وشائق تجددت به إمكانياتها الجمالية فى النثر الروائى بصفة خاصة، إلى جانب الأجناس الأخرى مثل الرومانث والبيكاريسك وحواريات «ثيربانتيس» ومسرح العصر الذهبى والفصول المقدسة، فالرواية الموريسكية دمغت بالطابع الإسبانى فى الأدب العالمى بأكمله، ونبرز من أهم خصائصها مايلى:

أ — التفاؤل المثالى: فأول مايتضح من ثنايا أهدافها هو الطابع المثالى الذى نجد شبيهه فى الروايات العاطفية وقصص الرعاة والروايات البيزنطية، هذا بالإضافة إلى أنها جميعا تتسم بالبساطة فى أحداثها؛ إذ تتراوح بين الحب الرقيق والولاء الذى يتغلب على العوائق والصعوبات، والمناخ اللطيف الذى ينتهى منطقيا إلى الحل المتفائل السعيد، فتتحول قراءتها إلى لون من التهدئة على المستوى النفسى، وتستحيل مأساتها إلى متعة هاربة رائقة.

ب ـ تكثيف الأحداث: تعتبر الرواية الموريسكية من قبيل فنون المصغرات «منياتورا» ، فهى مثل القطعة الثمينة المنمقة ، وامتدادها الكمى محدود إذا قيس إلى نوعها الفنى ، فهى قصص قصيرة كتبت فى كثير من الأحيان لتتخلل القصص الطويلة وتحليها ، وحتى النماذج الاستثنائية المطولة منها مثل حروب غرناطة يمكن أن تعتبر من الوجهة الأدبية مجموعة مختارة مركزة من الأقاصيص القصيرة أو للوحات الفنية المزركشة .

جـ ـ كلاسيكية الأسلوب: فأسلوب هذه الروايات يخضع لمقاييس الجمال الكلاسيكى وقيمه الأخلاقية ، فكل شىء فيها مختار بعناية وإتقان ، طبقا للنظام الكلاسيكى الذى يجمع بين أناقة الجمل ودقة التراكيب وصفاء المفردات والتوازن المثالى بين الأسماء والصفات ، دون أن تحرم أحيانا من استخدام بعض الكلمات ذات الأصل العربى ، ممايسهم فى موقعة الأحداث وواقعية الشخصيات .

د ـ الجمال الزخرفى: فإذا كانت مادة الحياة التى تحتفل بها هذه الروايات مصوغة فى أهم حلقاتها ممايدور فى الحلقات المنمنمة والبساتين المرسومة والأحياء المزخرفة والفنون الصناعية التى تستخرج من الخزف والخشب والحرائر والمنسوجات أرهف وأجمل أشكالها ، بطريقة تفوق ما كان مألوفا فى هذا العصر ، فإن كل ذلك لابد وأن ينعكس على مشاهد هذه الروايات بحيث تصبح قطعا زخرفية محتشدة بآيات الصنعة ودقائق الوصف لمظاهر الترف والجمال الطبيعى والمصنوع فى حدائق الجعفرية بسرقسطة وقصور مدينة الزهراء بقرطبة ، وقصر إشبيلية وحمراء غرناطة بآياتها الفنية التى بقيت على مر التاريخ .

هـ ـ التآخى: كذلك من خواص هذه القصص الموريسكية أنها تعبر بعمق عن توق حقيقى للتعايش السلمى ، ورغبة عارمة ــ ربما لأنها لم تتحقق تاريخيا ــ فى التآخى الروحى فى الأندلس ، ولعل هذه النقطة على «حداثتها» هى التى

تمثل المحور النبيل المتفهم لمجموعة من القصص الموريسكي، مثل قصة ابن سراج وحروب غرناطة الأهلية، وبعض أعمال «ثيربانتيس» التي ينتصر فيها الكرم وتسود قيم المحبة والقلب المفتوح على غيرها من الاعتبارات(١٨).

ولعل جملة هذه الخواص المنعكسة في الرواية الموريسكية مما تتميز به الروح الإسبانية التي ورثت الثقافة الأندلسية بعناصرها العربية الإسلامية، وورثت معها كما أشرنا إليه من قبل جملة من القيم التي اختلت بعض أولوياتها على مر التاريخ. وإن بقيت فيها جذوة المثالية وحب الجمال والتوق للتآخي الروحي الحميم.

أما فيما يتصل بتأثير هذه الروايات فقد اتضح منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، إثر اكتشاف مخطوطات الأدب الأعجمي الموريسكي؛ إذ أن العقلية الرومانتيكية التي كانت متوهجة في تلك الفترة قد أحاطته بهالة تختلف عن منظور الباحثين اليوم، وتجاوزته إلى الأدب الذي يدور حول الموريسكيين، فيقول كاتب إسباني شهير هو «إستيفان كالديرون» في خطابه الافتتاحي لكرسي الدراسات العربية في مدريد عام ١٨٤٨م «ليس على من أصابه الضجر من أدب اليوم سوى أن يفتح باب الأدب الأعجمي بمفتاحه العربي، وسيجد أمامه قارة حقيقية جديدة عليه أن يكتشفها مثل أمريكا» ويصف نفس الكاتب المخطوطات الأعجمية المعروفة عندئذ مضيفا «إن دراستها تزود الكتاب بمادة وفيرة عن العادات والتقاليد، وتلهم القصاص موضوعات جديدة، مما يمكنهم من الابتعاد عن الطرق المطروقة في تقليد الروايات الفرنسية»(١٩).

وكانت قد جدت خلال العصر الرومانتيكي بعض العوامل التي جعلت موضوع الموريسكيين يبرز للصدارة على المستوى الأوربي، منها تغير صورة الإسباني في خيال المؤلفين الغربيين؛ حيث أصبح نموذجا مثاليا في طريقة حياته وصراعاته العقلية

---

(١٨) انظر المصدر المشار إليه في هامش ١٦ ص ٢٢/ ٢٦.

(١٩) انظر الأهمية الأدبية للكتابات الموريسكية بحث الأستاذ Galmes de Fuentes في أعمال المؤتمر الدولي للأدب الأعجمي والموريسكي، ص ١٨٩/ ١٩٠.

والحيوية والتاريخية، مما جعله ممثلا حادا للتطرف فى الحب والكره، ولخص بهذا أهم خواص الشخصية الرومانتيكية.

كما كان من دواعى جاذبية إسبانيا طابعها الشرقى الذى يجمع خلاصة العناصر العربية الإسلامية ممتزجة بالروح الإسبانى الخالص. فكان مترجمو الأشعار الرومانثية الموريسكية وما سمى برومانث الحدود يظنون أن لها أصلا عربيا كما ألمحنا من قبل مما جعلها تحتل مكان الصدارة فى الأدب الأوربى، ونفس رواية «بيريث دى هيتا» شاع أنها منقولة عن أصل عربى، وقد ذكرت «مدام دى ستيل» فى كتابها عن الأدب أنها مولعة بكتب العرب فى غرناطة، وذلك خلال عرضها لمحاضرة «وليم شليجل» عن الأدب الإسبانى.

وقد لفت نظر الدارسين والناشرين فى انجلترا المذاق الخاص لأشعار الرومانث الموريسكية، وترجموا «حروب غرناطة الأهلية» ومجموعة من الرومانث الموريسكى وفتنوا بها حتى ترجم رومانث «ويلى عليك يا ألحامة» خمس مرات فى الربع الأول من القرن التاسع عشر(٢٠). وشارك فى هذه الترجمة كوكبة من كبار الشعراء الإنجليز مثل جريجورى لويس، وروبرت شاوثى، ولورد بايرون، وصدرت مجموعات كاملة، منها لجون جبسون لوكهارد عام ١٨٢٣ "Ancient Spanish' Bablad" ولسير جون باورنج عام ١٨٢٤ "Ancient Poetry and Romances of Spanish" وفى ألمانيا ترجمت أيضا رواية بيريث دى هيتا، وقام «شليجل» بترجمة مجموعة من الرومانث الموريسكى فى نهاية القرن الثامن عشر، وفى فرنسا أعيدت ترجمة رواية «حروب غرناطة الأهلية» ونشرت مجموعات من رومانث الحدود الموريسكى، مما استهل تيارا أطلق عليه فى الدراسات الأوربية «ماورو فيليا» أى الأدب المتعاطف رومانسيا مع العرب الموريسكيين(٢١).

(٢٠) انظر ترجمتنا العربية لهذا الرومانث فى المصدر المشار إليه فى هامش ١٢ ص ٧٩/ ٨٠.

(٢١) انظر فى المصدر المشار إليه فى هامش رقم ١٦ عن الرواية الموريسكية ذات الموضوع الغرناطى ثبتا ببليوجرافيا بأهم المراجع باللغات الانجليزية والفرنسية عن هذه الموضوع ص ٥٠.

ويبرر «فيكتور هوجو» تضمين كتابه «الشرقيات» لموضوعات إسبانية بأن اسبانيا شرقية شبه أفريقية وشبه أسيوية، وقد كتب بعض القصص الغنائى على طريقة الرومانث الموريسكى، كما أشار فى مقطوعات أخرى إلى اعتبار المدن كالنساء فى أسرها وفديتها على الطريقة الموريسكية؛ حيث يتحدث عن «السلطان أحمد» الذى يعرض ملكه للخطر، ويقدم المدينة قربانا لحب «خوانا» الغرناطية، ويتصور «فيكتورهوجو» أيضا غرناطة نفسها كامرأة جميلة تعتنق المسيحية كصدى لرومانث ابن عمار، ويتغنى بالحمراء وقلاعها الحصينة التى تزخر بالألوان والأضواء، ويقارن غرناطة التى تعنى بالإسبانية «ثمرة الرمان» بنفس هذه الثمرة، وبالقنبلة اليدوية التى تعد أيضا إحدى دلالات هذه الكلمة، مستغلا لأقصى درجة الإيحاءات الشعرية والأسطورية لها، خاصة مايروى عنها من أنه عندما يجن الليل تمتلىء ردهات قصر الحمراء بصرخات بنى سراج الذين ذبحوا قرب النافورة وصبغوا بدمهم النبيل رخامها الأبيض حتى الآن، ثم لم يلبث أن عاد «فيكتور هوجو» لموضوع الموريسكيين وغرناطة بعد ذلك بنصف قرن عام ١٨٧٥، ممايوحى بتأصل هذه الروح فى إنتاجه الشعرى.

ومن المعروف أن «شاتوبريان» كتب قصته «مغامرات آخر بنى سراج» قبل نشرها عام ١٨٢٦م بمايزيد على عشر سنوات، وقد برر تأخيره فى نشرها بأنه لم يكن يستطيع فى عهد «نابوليون» أن ينشر قصة متعاطفة مع إسبانيا؛ ولكن الأهم من ذلك فى نظر المؤرخين أنها كانت ترتبط بذكرياته العاطفية عن لقائه فى الأندلس بحبيبته «ناتاليا نواليه»، وعندما زار الشاعر قصر الحمراء كانت «ناتاليا» تشغل كل وقته وفكره، حتى يقال إنهما حفرا اسميهما على جذع شجرة السلطانة فى حديقة القصر، وابن حامد، بطل القصة من سلالة بنى سراج، يزور غرناطة بعد سقوطها بخمسين عاما، وتدور الأحداث حول غرامه لبلانكا، ويتأمل العاشقان معا جنبات الحمراء، ويقسمان على حبهما الخالد بجوار نافورة بنى سراج، عاقدين عزمهما على أن يحتفظ كل منهما بدينه، وبالرغم من حبهما الجارف إلا أنهما لايستطيعان التغلب على هذا الفاصل الدينى، ويعود الفارس العربى ثلاث مرات إلى إسبانيا ليجد حبيبته وفية بعهدها مصممة على عزمها بعدم التخلى عن دينها، ويلقى فى المرة الثالثة

أخاها «رودريجو» الذى يمثل النبلاء الإسبان وبصحبته فارس فرنسى مثالى، وتحيط الشخصيات الثلاث ــ العربى والإسبانى والفرنسى ــ بالبطلة، ويمثل كل منهم ثقافة مختلفة، لكنهم جميعا يخضعون لنموذج الفروسية وقيمها الأخلاقية الأصيلة، وتمضى الأحداث إلى نهايتها المحتومة، فتتوثق عرى الصداقة والتقدير بين المسيحيين والمسلمين، ولكن صراع العاشقين لا يجد له حلا فيعود ابن حامد إلى الصحراء للأبد(٢٢).

ولا يسعنا فى ختام هذه الكلمات عن توظيف النموذج الموريسكى فى الأدب الرومانيتكى إلا أن نشير للكاتب الأمريكى الشهير «واشنطن إيرفنج» الذى ألف عدة كتب عن غرناطة والموريسكيين، وكان قد رحل إلى إسبانيا عام ١٨٢٦ لجمع مادة تاريخية لكتاب يعده عن مكتشف أمريكا «خريستوف كولومبس»، مما جعله يطلع على مجموعة كبيرة من الوثائق والمخطوطات المتعلقة بسقوط غرناطة الذى وقع فى نفس عام اكتشاف القارة الجديدة، فقرأ أعمال «بيريث دى هيتا» و«فلورين» وما يتصل بحياة الموريسكين، وظهر أثر ذلك فى كتابه «طالب سلمنقة» الذى تقع أحداثه فى غرناطة. ويحكى «إيرفنج» أن تاريخ غرناطة قد فتنه إلى الحد الذى لم يستطع معه أن يكمل بحثه عن «كولومبس»، فوضع أولا كتابه «غزو غرناطة» عام ١٨٢٩م، ثم أتبعه بكتابه الشهير «حكايات من الحمراء» الذى ترجم إلى اللغة العربية، وهو مجموعة من الأقاصيص الخيالية عن قصر الحمراء وعن الأساطير المحيطة به، والعادات المتصلة بسكان غرناطة المعاصرين وما ينسجونه من روايات خيالية عن معالم الحمراء والأرواح التى تسكنها والكنوز المخبأة فيها، والطقوس التى كان السحرة مازالوا يمارسونها فى القرن الماضى لفتح مغاليقها، والاطلاع على الجلسات المسحورة التى يعقدها الملوك العرب تحت أرضها، فى حشد من الشعر والأساطير يتميز بقدر كبير من الحركة والوصف الدقيق للحياة اليومية المفعمة بعبق التاريخ القديم(٢٣).

---

(٢٢) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ١٥ صفحة ٢٥٧/ ٢٥٩.

(٢٣) انظر: واشنجتن ارفنج: قصص الحمراء. ترجمة ابراهيم الابيارى، دار المعارف القاهرة ١٩٥٥.

وكانت تلك الأخيلة الرومانتيكية أقصى ما وصل إليه الأدب الأوربى فى التعامل مع الموريسكيين كموضوع ، مغفلين — إلا قليلا — الثورات الموريسكية نفسها ، ولب مأساة التغريب وهول محاكم التفتيش التى تعرضوا بشكل منتظم لقهرها ، ولعل الضمير الأوربى قد حاول فى هذا النوع من «الماوروفيليا» أن يكفر عن أقدح ذنب اقترفه فى العصور الوسطى . لكن يظل الإنتاج الثقافى والكتابات المقنعة لهؤلاء الموريسكيين مادة أساسية للبحوث التاريخية والفكرية المقارنة ، ولعل كتاب المغازى الذى سنعرض له فيما يلى أن يكون نموذجاً لهذا العطاء الفنى الخصيب .

كتاب المغازى وبطولة على

- وصف الكتاب الأعجمى
- بطولة على وفكرة التشيع
- الروح الملحمى الشعبى .

وصف الكتاب الأعجمى:

كتاب المغازى مجموعة من روايات الفروسية الملحمية التى تتسم بالطابع التراثى التقليدى، وتحفل بالخوارق العجيبة؛ حيث تحكى قصة الغزوات الأولى فى الإسلام، بإسناد دور البطولة الأساسى فيها للإمام على بن أبى طالب، مما يكون منها ملحمة شبه متماسكة، تتابع حلقاتها، وتتراوح أحداثها بين الواقع التاريخى والخيال الفنى، وقد كتبت فى القرن السادس عشر باللغة القشتالة ــ أى الإسبانية ــ المرسومة بالحروف العربية على الطريقة المميزة للأدب الأعجمى «الألخميادو»، وتبدو فيها مجموعة من الخواص اللغوية المعروفة فى تاريخ اللغة الإسبانية إبان القرن السادس عشر الذى تعود إليه المخطوطات، وإن كان ذلك بطبيعة الأمر لا ينفى الامتداد التاريخى القديم لهذه الروايات قبل تسجيلها كتابة؛ عن طريق التداول الشفاهى بين الناس أولا خلال آماد طويلة، شأن الآداب الشعبية الجماعية، قبل أن يتم تثبيتها بهذه الطريقة الكتابية الطريفة التى اختص بها الموريسكيون.

وتقع هذه القطعة الأدبية الفريدة فى مخطوطة تحمل رقم ٥٣٣٧ بالمكتبة القومية بمدريد، مكتوبة بالخط المغربى المميز للقرن السادس عشر، وتتكون من ١٤٨ صفحة مجلدة بالرق، وقد كتبت بعض العناوين والآيات القرآنية فيها بالمداد الأحمر. وبالإضافة لهذا المخطوط هناك مخطوطان آخران يتضمنان بعض الروايات الواردة فى «كتاب المغازى»؛ أحدهما يحتوى على حكاية «وراء الحجرات» والآخر يحتوى على معركتى بدر وحنين وإن كتبت تحت عنوان «قصة فتح بيت مكة المكرمة»، وكلا المخطوطين فى مجموعة «جايانجوس» التى تملكها الآن الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد، كما يضاف إلى هذه القصص أيضا قصتان تدوران حول نفس

الموضوعات، وهما «حديث القصر الذهبى»، و«حكاية الثعبان مع على بن أبى طالب»، ويضمهما مخطوط رقم ٣٢٢٦ بمكتبة القصر الملكى بمدريد، أما حكاية «على ابن أبى طالب والأربعين فتاة» فهى ملحقة بمجموعة «جايا نجوس» المشار إليها من قبل (١).

وترتكز هذه الروايات على مايسمى بأدب السير والمغازى من جانب، وعلى تقاليد آداب الفروسية من جانب آخر. وقد كان مصطلح السير والمغازى يدل على المعارك التاريخية التى قام بها الرسول أو أمر أصحابه بالقيام بها، وقد أصبح فيما بعد علما على هذا الجنس الأدبى التاريخى، الذى بدأ كما يقول المحققون فى المدنية على يد عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤هـ، وأبان بن عثمان المتوفى عام ١٠٥هـ الذى ألف كتابا بعنوان «كتاب المغازى»، ووهب بن منبه اليمنى المتوفى عام ١١٠هـ، وشرحبيل بن سعد المتوفى عام ١٢٣هـ، وابن شهاب الزهرى ١٢٤هـ، وعاصم بن قتادة ١٢٠هـ، وكلهم قد وضع كتبا بعنوان «المغازى»، ولكن أهم مؤلف استوعب ماقبله هو سيرة محمد بن إسحق ١٥٠هـ التى رواها ابن هشام ٢١٨هـ. وإن كان قد ضم إلى الروايات التاريخية عددا من القصائد والأشعار والحكايات الشعبية، واستخدم كذلك بعض المصادر المسيحية واليهودية مما يعرف عند علماء السيرة النبوية بالإسرائيليات.

وقد ترتب على ذلك تراكم الصور والروايات التى شكلت فيما بعد معالم أدب الفروسية بعناصره الملحمية البارزة كما يتجلى فى كتاب المغازى الموريسكى. ومن المألوف فى روايات الفروسية أن تلتف مجموعة العناصر المكونة له حول نواة أولى صلبة ترتكز على الوقائع التاريخية الثابتة، ولكنها تصوغها بحرية واضحة وثراء عجيب فى جملة من الحكايات الملحمية، مما يجعل وحدتها تعتمد على مبدأ التجانس الموضوعى من ناحية ووجود بطل رئيسى واحد يتكرر ذكره فى جميع الحكايات من ناحية أخرى.

---

(١) انظر:

Galmes de Fuentes, Alvaro : El libro de las Batallas, Narraciones Epico - Caballerescas. Tomo 1. Madrid 1975. pag 9-11.

وهذا مايتحقق فى كتاب المغازى الوريسكى الذى يعتمد على تجانس الموضوع المتصل بالفتوح والغزوات الأولى فى الإسلام، ويقوم بها بطل أساسى هو على بن أبى طالب ابن عم الرسول وزوج فاطمة البتول.

وقد ارتبطت نواة هذه الروايات التاريخية بتقاليد أدب الفروسية الإسلامى الذى ازدهر فى التراث الشفاهى للملاحم العربية، وأخذ ينمو بمحاذاة تراث السيرة المكتوب مستمدا عناصره منه، وإن كان مستقلا عنه فى تشكلاته إلى حد بعيد(٢). على أن وظيفة القصاص التى تكتسب أهمية كبرى فى نقل الروايات الملحمية كانت شائعة بدورها بين عرب الأندلس، وقد حضر بعض رواة الأندلس مواقع تاريخية مثل ابن قطان الذى شهد موقعة الحرة حين انتصر يزيد على الخارجين عليه بالمدينة، وقد ساعد الأمويون على زيادة الاهتمام بتقاليد الرواية والقص فى الأندلس، وكان هذا شأنهم منذ أيامهم الأولى، فعاوية كان أول خليفة بدأ بالاهتمام بالقصاص وضمهم إلى بلاطه، وعبد الرحمن الداخل كان يعنى بولديه هشام وسليمان؛ أما الأول فكان يخصص له من يحدثه عن الأدب والتاريخ وأخبار الحروب وسير الأبطال والقواد، وكان سليمان مشغولا بلهوه ولعبه، ويورد المؤرخون روايات عديدة تشير إلى ولع الأندلسيين بسير البطولة وأخبار الشجعان نتيجة لاستعار روح القتال والجهاد بصفة دائمة فى الثغور المحيطة بهم مع أعدائهم من ناحية، ولكثرة المنازعات والشقاقات الطائفية والقبلية بين العرب والبربر وفصائل العرب نفسها من ناحية ثانية. وكان أمراؤهم مدركين لأهمية التربية على تقاليد الفروسية ودور الأقاصيص والأشعار فى إلهاب الحماس وإشعال الفتن، وربما كان للتراث الثقافى القديم المستقر فى الوجدان الجماعى لبقايا السكان الأصليين وامتزاجه بالعناصر العربية والبربرية الوافدة أثر فى إذكاء هذه الروح، ولا يخلو من دلالة أن يكون من أول وأبرز المؤلفين الذين جمعوا ماروى عن أيام العرب وأخبار البطولات بتوسع لا يدانى المؤلف الأندلسى الموسوعى ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد(٣).

---

(٢) المصدر السابق، صفحة ١٥ — ١٦.

(٣) انظر: كتاب الفريدة فى الحروب ومدار أمرها، وكتابى العسجدة الثانية واليتيمة الثانية=

كما لا يخلو من دلالة أيضا أن تنتشر كتب السير والمغازى فى الأندلس ابتداء من ملخصات يحى بن يحيى المتوفى عام ٣٦٧هـ، وابن عبد البر صاحب «الدرر فى اختصار المغازى والسير» ٣٦٨هـ، إلى الموسوعات الشارحة مثل ماكتبه السهيلى ـ ٥٨١هـ ـ بعنوان «الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام». كما انتشرت أيضا الأراجيز التى تنظم السيرة النبوية مثل أرجوزة الجزيرى ٥٨٨هـ التى تقع كما قيل فى اثنى عشر ألف بيت من الشعر، مما جعلها تفوق أية منظومة تاريخية أخرى.

وكان الأدب الموريسكى يستقى مادته الأدبية والتاريخية بطبيعة الحال من عيون هذا التراث الإسلامى فكتاب المغازى ينسب ماورد فيه منذ الصفحة الأولى إلى ابن إسحق، ويضفى قدرا كبيرا من الطابع الأدبى على رواياته بتطعيمها بعدد من المقطوعات الشعرية والأراجيز المنظومة، ولكنه يستخدم إلى جانب هذه المادة الثقافية الموثقة مادة أخرى من إنتاج الخيال الشعبى الذى يغلفها بالأساطير والمعجزات، ويضفى عليها مسحة من الاستغراق الخيالى استجابة للحاجات العميقة للجماعة الإسلامية المضطهدة فى نداء الأجداد وابتعاث البطولات واستثارة الأمجاد لمقاومة الواقع المرهق الأليم.

وقد يتولد لدى الباحث عند تحليله لبعض هذه العناصر الخيالية وروايات الفروسية فى كتاب المغازى شعور ببعدها الفادح عن الحقيقة التاريخية، ولكن هذا غير دقيق؛ فهذه الحكايات بالرغم من اشتمالها على عناصر خيالية أسطورية تعتمد فى صلبها على أحداث واقعية تاريخية مؤكدة لايمكن للإطار الملحمى أن يطمس صدقها وحرفيتها أحيانا، مما يختلف جوهريا عن الملحمة الفرنسية مثلا المتكئة على الأسطورة والخيال فى وقائعها والمعروفة بطابعها اللا واقعى، وكذلك الملاحم الأنجلو سكسونية والجرمانية؛ وفى هذا الصدد فإن الباحثين يقيمون علاقة مباشرة بين هذه

فى أخبار الغزوات والتاريخ الإسلامى، وكتاب الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم فى العقد الفريد لابن عبدربه، أجزاء ١و٥،٦ طبعة بيروت ١٩٨٣.

الروايات الإسلامية والملاحم القشتالية التى تتفق معها فى احترام الوقائع التاريخية والبناء عليها، إذ أن الرابط الجمالى الذى يشد الواقع إلى الخيال فى كل منهما هو الأمانة فى عرض الأحداث الرئيسية، والدقة فى تمثيل روح التاريخ.

فالمغازى التى يدور حولها الكتاب هى بدر وأحد والخندق واليرموك وحنين، وكلها وقائع تاريخية عظمى ثابتة؛ بل إن بعض التفاصيل الصغيرة تتفق تماما مع ما ورد فى كتب التاريخ الموثقة مثل قصة دريد بن الصمة مع مالك بن عوف، كما أن أسماء معظم الأماكن والقبائل والأفراد ذات أصل تاريخى ثابت، ويتمثل السياق الملحمى حينئذ فى توحيد البطل والمبالغة فى صفاته، والمغالاة فى دور العناصر الخارقة وإضفاء طابع الأسطورة عليها، أما ماعدا ذلك ــ وهو الهيكل العظمى للروايات ــ فهو من صلب التاريخ المعتمد ووقائعة.

ومن المدهش فى كتاب المغازى أن يتسم أبطاله بنفس الخصائص الإنسانية المعروفة عنهم فى التاريخ، فبالرغم من بطولة على المطلقة وقيامه بأعمال معجزة إلا أنه فى تواضعه الجم، وصفاته الخلقية، بل وبعض عيوبه الطبيعية، يتفق تماما مع ما ترسمه كتب التاريخ له؛ فإلى جانب شجاعته الفائقة، ووفائه العظيم للرسول، وتقواه البارزة، وحبه للعدل والحكمة، وكرمه وبلاغته، وقدرته على الاجتهاد فى القضايا، وروح المبادرة التى ترفعه لمصاف الأبطال العظماء، لا يخلو من الشعور بالضعف والرقة، والنقائص البدنية والعجز المادى الواضح لدرجة الفقر الشديد. فهو لا يعتمد مثل بقية الأبطال الأسطوريين على أصل إلهى مقدس ولا يبطش ظالما بغيره، بل إن سلم القيم التى يمثلها يتسق تماما مع سلم القيم الإسلامية الراسخة؛ من اعتبار التقوى ذروة النبل، وخدمة الإسلام قمة البطولة، وما تضفيه الروايات على شخصيته من مسحة مثالية يستقى عناصره من الواقع التاريخى ويبالغ فيه دون افتئات على الحقيقة أو خرق للتاريخ، بل يعد امتدادا للصورة المأنورة عنه كما سنفصل فيما بعد.

وربما كانت الأهمية الأدبية للنصوص الموريسكية عامة، ولكتاب المغازى بصفة

خاصة، نابعة من تصويرها الفنى للحياة الداخلية والمعتقدات الحميمة لبقايا مسلمى الأندلس، فضلا عن روابطها الوثيقة بالأدب الإسبانى؛ إذ أن المسيحيين والموريسكيين كان كل منهما على علم تام بما ينتجه الآخر من أدب وفن. ولا يخلو من دلالة خاصة فى هذا الصدد أن يختار «ثيربانتيس» لقصته الشهيرة «دون كيخوتى» مصدرا روائيا متميزا؛ إذ ينسبها إلى موريسكى أعجمى؛ وليس لمؤلف عربى كما يقال عادة، والمشهد الذى يروى فيه المؤلف ذلك طريف إذ يقول:
«كنت أجلس يوما على قنطرة طليطلة، فرأيت فتى يبيع قراطيس ولفائف وأوراقا قديمة كانت لدى أحد الوارقين، ولما كنت شغوفا بالقراءة، لا أكاد أترك شيئا حتى تلك الأوراق الممزقة الملقاة فى الشوارع، فقد دفعنى هذا الميل الغريزى إلى أن أتناول لفيفة من تلك التى كان يبيعها الفتى، فوجدتها مسطورة بحروف عرفت أنها عربية، ومع أننى تبينتها إلا أننى لم استطع قراءتها، فأخذت أبحث عن موريسكى أعجمى ليقرأها، ولم يكن من العسير علىّ أن أجد مثل هذا المترجم». فثيربانتيس ـ كما يدل عليه المشهد ـ كان يميز الحروف العربية لكنه لا يستطيع قراءة النص بها؛ إذ تكمن الصعوبة فحسب فى الحروف، مما يستخلص منه أن الأمر لم يكن يتصل بترجمة نص مكتوب باللغة العربية، بل بقراءة حروف كتب بها نص إسبانى، مثل كتاب المغازى الذى نحن بصدده، لهذا لجأ إلى موريسكى أعجمى، ولم يلجأ لعالم باللغة العربية.

على أن العلاقة الوثيقة بين الأدبين المسيحى الإسبانى والموريسكى الإسلامى قد قامت عليها شواهد متواترة سبق أن أشرنا إلى بعضها، ويهمنا الآن ما يتصل بكتاب المغازى وارتباطه الجدلى بأدب الفروسية والملاحم، وهو ارتباط ترجع جذوره للتلاقح المستمر فى التراث الشفاهى للأدبين نتيجة للمعايشة المشتركة ولحرية الفنان الشعبى فى استقاء مادته وأنماطه مما يقع له فى البيئة المختلطة، بل ولعه بتتبع النماذج الدخيلة واستيعابها، ثم قدرته على تأويل عناصرها بما يتسق مع حاجاته الفنية والتاريخية.

ومن أمثلة هذا التأويل الحر مارصده الدارسون فى مجموعة المخطوطات الموريسكية الأخرى التى عثر عليها بمكتبة «بولونيا» مما يعد نوعا من الاستمرار لموضوعات كتاب

المغازى داخل الخط الموالى للإمام على، لكن بتركيز الضوء على شخصية الحسين الذى استحال فى التاريخ الإسلامى لسيد الشهداء، ولكن تأويل الموريسكيين له جعل حياته وموته نموذجا إسلاميا اكتسب.خصائص قصص الشهداء المسيحيين من القديسين دون أن يخرج على قواعد فن السيرة الإسلامى؛ فبعد أن يضفى المخطوط على شخصية الحسين الخواص النوعية للقديس البطل، يضيف مجموعة من الاختبارات الغريبة عن القصة لكى يبرهن على سيادة الفكر الإسلامى وتفوقه على كل من اليهودى والمسيحى إذ يقول:ــ

«عندئذ أجاب اليهودى: لقد وجدنا مكتوبا فى التوراة ياسيدى أن الحسين حبيب الله وأن قاتله فى النار» ويعبر عن مثل ذلك القسيس المسيحى عندما يلقى الكتيبة التى تحمل رأس الحسين فيقول: «أعدكم أننى وجدت فى أناجيلنا أن الحسين حبيب الله وأن قاتله سيخلد فى النار» كما نجد بقية خواص الحكايات الملحمية الدينية فى قصة الحسين؛ مثل إضفاء القوة السحرية على الكلمة، فيشرع الحسين فى المعركة وهو ينشد أبياتا من الشعر الشبيه بالشعر الصوفى المسيحى فيقول:

فليتم ما أمر به الله.
ولنخرج من هذه الحياة
فالخير فيها عارية
ولننازل اليوم بجسارة
كتائب أعدائنا الضارية (٤).

ونعود إلى كتاب المغازى لنجد أنه قد ظفر بنشرتين فى اللغة الإسبانية؛ إحداهما جزئية صدرت عامى ١٨٨٥/١٨٨٦م فى مجلدين أخرجها مع مواد أخرى «چين روبليس F. Guillen Robles» معيدا كتابتها بالحروف اللاتينية دون تحقيق دقيق بعنوان «أساطير موريسكية» تضم مجموعة ضخمة من الحكايات الإسلامية المختلطة بأمشاج من الروايات المسيحية ويشكل كتاب المغازى جزءا منها. أما النشرة

(٤) انظر: بحث الشعور الدينى للموريسكيين المهاجرين لمؤلفه .Penella, Juan المنشور فى أعمال المؤتمر الدولى للأدب الموريسكى والأعجمى المشار إليها من قبل، ص ٤٧١/ ٤٧٢.

الأخرى — وهى العلمية المعتمدة — فقد أصدرها عام ١٩٧٥ الباحث الكبير «جالميس دى فوينتيس Gálmes de Fuentes » فى مجلدين أيضا ، لكنهما يقتصران على كتاب المغازى فحسب وقد أعاد رسمه بالحروف اللاتينية بدقة بالغة ، مع دراسة لأهم الخصائص اللغوية والفكرية والأدبية للكتاب ، وسنقدم فى القسم الثانى من هذا البحث أول ترجمة عربية للنص الموريسكى الهام ، معتمدين على هذه النشرة المحققة .

بطولة على وفكرة التشيع:

لا ينبغى فى تقديرى أن نستخلص من اختصاص شخصية الإمام على بدور البطولة فى كتاب المغازى أن هذا دليل على انتشار تيار من التشيع ـ بالمفهوم السياسى للكلمة ـ بين الموريسكيين. وإذا كان بوسعنا أن نبحث فى الفكر السياسى الأندلسى عن بعض ملامح لهذا التشيع ونعثر عليها بالفعل ـ كما سنرى فيما بعد ـ فإن موقف الموريسكيين المهددين فى صميم انتمائهم العربى الإسلامى المواجهين بمحنة التنصير القسرى ومحو الشخصية لم يكن يسمح لهم باختيار سياسى لا يعتصم بالإسلام ككل ولا يستغيث بجميع ما يسعفه من عناصره.

وقصارى ما يمكن الإشارة إليه فى هذا الصدد هو أن اختيار شخصية الإمام على للبطولة لدى الموريسكيين كان ينبع من حس إسلامى تاريخى صادق، يحتفظ به المعتدلون من أهل السنة والشيعة معا من إعزاز أهل البيت النبوى، وتمجيد شخصية الإمام الشجاع، وتحولها التدريجى فى الوجدان الشعبى إلى رمز أسطورى للبطولة الفذة، والقدرة البدنية الخارقة، والفتوة التقية المعجزة، إنه لون من التشيع الوجدانى الكامن فى أعماق الشعب المسلم يتجلى فى الأدب الشعبى المشرقى والمغربى معا.

ولعل من أبرز مظاهر هذا التمجيد الشعبى فى المشرق، دون أن تكون له دلالة مذهبية ـ مجموعة السير التى تنشر تباعا للإمام فى طبعات شعبية رائجة تختلف عن كتب المناقب الرسمية وتوازى سير الأبطال الشعبيين الآخرين بما تحفل به من الخوارق والمعجزات. ومنها «سيرة الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى تعالى عنه، وسيره إلى الملك الهضام بن الجحاف، وقطعه الحصون السبعة حتى وصل إليه،

ونصره الله عليه، وماجرى له من ألوان الطعن والضرب وإظهار البسالة فى ميدان الحرب»(٥).

وربما يكون من الشائق فى دراسات لاحقة إجراء موازنة تفصيلية دقيقة بين المادة الموجودة فى مثل هذه السير المشرقية ونظائرها فى كتاب المغازى الموريسكى والسير الأندلسية والمغربية، حتى يتسنى لنا أن نضع أيدينا على القواسم المشتركة بينهما، وعلى ماينفرد به كل تراث شعبى من خواص تكونت نتيجة لظروفه التاريخية والثقافية المتميزة.

وقد تتبع بعض الباحثين العرب التيارات الأدبية الأندلسية المتأخرة التى كانت متعاطفة مع آل البيت، وفيها تكمن الجذور الحقيقية لموقف الموريسكيين، فوجدوا أنه ابتداء من القرن السادس الهجرى خلال عصر المرابطين نعثر على بداية تتسم بالحرارة والصدق والإخلاص فى التعاطف مع آل البيت، دون غلو أو انحراف عن نهج أهل السنة، ويعد شعر أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الشقورى (٤٦٥ ـــ ٥٤٠هـ) نموذجا لهذا النوع من الأدب؛ إذ يبكى الحسين فى قصيدتين قرأهما عليه ابن خير، ولديه عدة قصائد مدحية تناول فيها مأساة أهل البيت، كما اشتهرت عنه رسائل بكائية أيضا، ولعل العصر الذى عاش فيه ابن أبى الخصال كان مليئا بمايثير العواطف ويبعث على التأمل لما وقع فيه من أحداث جسام غيرت معالم الحياة الأندلسية؛ ولم يستطع صدق المرابطين والموحدين فى الجهاد والدفاع عن «اليتيمة والأيتام» علاج الانهيار العنيف الذى كان يعيث فى الروح الأندلسية ويؤذن بالاتجاه الذى تمضى فيه حركة التاريخ، وفى شرق الأندلس نبغ شاعر آخر «انفرد من تأبين الحسين وبكاء آل البيت ومدحهم بما ظهرت عليه بركته فى حكايات كثيرة» وهو أبو بحر صفوان بن إدريس (٥٦١ ـــ ٥٩٨هـ) وقصة تحوله عن مدح الملوك والرؤساء

(٥) يلاحظ أنه قد كتب بأسفلها، تطلب من مكتبة الجمهورية بالأزهر بمصر، وهى بدون تاريخ، وأود أن أنوه بالجهد العلمى المنظم الذى يبذله الباحث الفولكلورى الأستاذ عبد الحميد حواس فى جمع التراث المتصل بالإمام على وفضله فى لفت نظرى لهذه الطبعة.

إلى مدح النبى وآله مبسوطة فى كتب الأدب، ورثاؤه للحسين يتسم بعمق الإحساس وتوهج العاطفة، وقد استعان بالتشخيص واستحضار المشاهد المؤثرة، كتصويره لمشهد فاطمة وهى على مسرح المأساة تتوجه إلى أبيها عليه السلام شاكية إليه ما أصاب ولدها وهى تذرف الدموع، وكانت هذه القصائد تلقى فى محفل رهيب يقام بمرسية وشرق الأندلس بمناسبة ذكرى مقتل الحسين ليلة عاشوراء من كل سنة، ومن مراسيم هذه الذكرى مشهد جنائزى يشخص المأساة بطريقة تمثيلية، كما تشعل الأضواء ويوقد البخور ويحضر القراء المحسنون والمنشدون البارعون، وتقدم الموائد والأطعمة، وترتفع الأصوات منشدة المراثى الحسينية. وقد ظلت هذه العادات الإنشادية الجماعية إلى عهد ابن الخطيب في أواخر الدولة الأندلسية. وهناك شعراء آخرون لهم قصائد وبكائيات فى مقتل الحسين، مثل ناهض الوادى آشى، وابن المناصف، وأبو البقاء الرندى الذى ألف قصيدة طويلة في رثاء الحسين. ولم يقتصر بكاء الحسين على المستوى الشعبى، بل شارك فيه بعض الملوك والأمراء مما ينفى عنه أية صبغة شيعية سياسية، فكتب يوسف الثالث من ملوك بنى الأحمر قصيدتين فى رثاء الحسين يعبر فيها عن حبه وولائه لآل البيت، وقد عبر بعض الكتاب عن هذا الموقف من آل البيت بقولهم «أحبهم حب تشرع لا حب تشيع»(٦).

كما كان حب الرسول وآله، وتداول الحكايات عن مآسيهم ومعجزاتهم مصدراً موحيا لكثير من الشعراء الأندلسيين فى الماضى، فإن الموريسكيين قد ورثوا هذه التقاليد، وأضافوا إلى المدائح جملة من الملامح الجديدة، حيث تركز اهتمامهم على التعبير الحار عن الحب الصادق البرىء ذى الطابع العائلى البسيط، هكذا نرى مثلا فى مقطوعة عربية يتكرر فى ختامها :

يا حبيبى يا محمد، والصلاة على محمد

---

(٦) انظر المقدمة الضافية التى كتبها الاستاذان الدكتور عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب لتحقيقهما لكتاب ابن الأبار البلنسى «درر السمط فى خبر السبط» تطوان عام ١٩٧٢م، صفحات ط ــ م.

وفى جملة من المقاطع الرومانثية ذات القوافى المتوائمة ، مما يترجم هكذا :

نورى سرى فى الأنبياء
تحدر فى أصلاب الأولياء
من أشرف الرجال الأنقياء
حتى استقر على محمد

وهى أبيات تجرى فى عمومها على نمط الأوزان المسماة بالاسكندرانية «أليخاندرينا» والتى برع الموريسكيون فى استخدامها . وتوزيع القوافى فى الأبيات السالفة نموذجه :

أ	أ	أ	ب
ث	ث	ث	ب
د	د	د	ب

وهو نفس توزيع بعض أنماط الزجل الأندلسى الذى يمتد عمره وحيويته فى جزء هام من الشعر الموريسكى ، ويدل محتوى هذه الأبيات على تأثير الشعر الصوفى ونظرية الإشراق فى فكرة تناقل النور وتوارثه الجسدى فى الأصلاب من ولى إلى آخر ، كما يدل عدد المدائح المتوارثة على المجهود الواضح الذى كان يبذله الموريسكيون للحفاظ على تراثهم الدينى ، ويرى بعض الباحثين أن انتشار الطريقة الشاذلية بينهم ، واعتمادهم على كتابات الإمام الغزالى التى ظلوا يتناسخونها حتى نهاية القرن السادس عشر كان له أثره فى حصر تشيعهم على النطاق العاطفى الإسلامى العام (٧) .

وإذا عدنا لشخصية الإمام على وحاولنا تقديم صورة موجزة عنها منتزعة من أشهر كتب المغازى فى التراث الإسلامى الأول ، وهو كتاب الواقدى المتوفى عام ٢٠٧ هـ ، لوجدنا أنها توشك أن تتطابق مع الصورة التى يقدمها الموريسكيون فى الملامح الرئيسية ، فالواقدى نفسه كان يروى أن عليا عليه السلام كان من معجزات

(٧) انظر: الموريسكيون فى ضوء الوثائق ، بحث ألفه Hoenerbach, Wilhem : ونشر ضمن أعمال المؤتمر الدولى للأدب الأعجمى الموريسكى المشار إليه ، صفحة ٥٦ / ٥٧ .

النبى ***، كالعصا لموسى عليه السلام، وإحياء الموتى لعيسى بن مريم، وغير ذلك من الأخبار(٨). كما يروى أن عليا وحده قد قتل قرابة نصف صرعى بدر إذ يقول: «جميع من يحصى قتله من المشركين فى بدر تسعة وأربعون رجلا، منهم من قتله أمير المؤمنين على عليه السلام وشرك فى قتله اثنان وعشرون رجلا»(٩). كما يروى أهم مآثره فى أحد قائلا:

«ودنا القوم بعضهم من بعض، وقدموا صاحب لوائهم طلحة بن أبى طلحة، وصفوا صفوفهم، وأقاموا النساء خلف الرجال بين أكتافهم يضربن بالأكبار والدفوف، وهند وصواحبها يحرضن ويذمرن الرجال، ويذكرن من أصيب ببدر ويقلن:

نحن بنات طارق ... نمشى على النمارق
إن تقبلوا نعانق ... أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وصاح طلحة من يبارز؟ فقال على عليه السلام: هل لك فى البراز؟ قال طلحة نعم، فبرزا بين الصفين، ورسول الله *** جالس تحت الراية عليه درعان ومغفر وبيضة، فالتقيا، فبدره على فضربه على رأسه، فضى السيف حتى فلق هامته حتى انتهى إلى لحيته فوقع طلحة، وانصرف على عليه السلام، فقيل لعلى: ألا ذففت (أى أجهزت) عليه؟ قال: إنه لما صرع استقبلتنى عورته فعطفنى عليه الرحم، وقد علمت أن الله تبارك وتعالى سيقتله، هو كبش الكتيبة»(١٠).

ويروى الواقدى كذلك ملحمة على مع يهود بنى النضير قائلا: «لما حرض ابن أبىّ يهود بنى النضير ثم قعد عنهم، قيل لحيىّ: أين نصر ابن أبىّ كما زعمت؟ قال

---

(٨) انظر: مقدمة الدكتور مارسدن جونس لكتاب المغازى للواقدى، الجزء الأول مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦، صفحة ١٦.

(٩) المصدر السابق ص ١٥٢.

(١٠) انظر: الكتاب المغازى للواقدى، الطبعة السالفة، الجزء الأول، ص ٢٢٥/ ٢٢٦.

حيىّ : فما أصنع ؟ هى ملحمة كتبت علينا ، ولزم رسول الله (ص) الدرع وبات وظل محاصرهم ، فلما كان ليلة من الليالى فقد علىّ بن أبى طالب عليه السلام حين قرب العشاء ، فقال الناس : ما نرى عليا يا رسول الله ، قال رسول الله (ص) دعوه فإنه فى بعض شأنكم ، فلم يلبث أن جاء برأس «عَزْوَك» فطرحه بين يدى رسول الله فقال : يا رسول الله ، إنى كمنت لهذا الخبيث فرأيت رجلا شجاعا ، فقلت ما أجرأه أن يخرج إذا أمسينا يطلب منا غرة ، فأقبل مصلتا سيفه فى نفر من اليهود ، فشددت عليه فقتلته ، وأجلى أصحابه ولم يبرحوا قريبا ، فإن بعثت معى نفرا رجوت أن أظفر بهم ، فبعث معه أبا دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة من أصحابه ، فأدركوهم قبل أن يدخلوا حصنهم ، فقتلوهم وأتوا برؤوسهم ، فأمر رسول الله (ص) برؤوسهم فطرحت فى بعض بئار بنى خطمة (١١) .

أما موقف على فى غزوة الخندق فهو الذى يتصدى للبطولة أيضا بشكل درامى طبقا لنفس رواية الواقدى إذ يصف ما حدث بقوله : «جعل عمرو بن عبد يدعو إلى البراز ويقول :

ولقد بححت من النداء لجمعكم ، هل من مبارز ؟

وعمرو يومئذ ثائر ، قد شهد بدرا فارتث جريحا فلم يشهد أحدا ، وحرم الدهن حتى يثأر من محمد وأصحابه ، وهو يومئذ كبير ، يقال بلغ تسعين سنة ، فلما دعا إلى البراز قال على عليه السلام : أنا أبارزه يا رسول الله ، ثلاث مرات ، وإن المسلمين يومئذ كأن على رؤوسهم الطير ، لمكان عمرو وشجاعته . ، فأعطاه رسول الله (ص) سيفه وعممه وقال : اللهم أعنه عليه ، قال : وأقبل عمرو يومئذ وهو فارس وعلى راجل ، فقال له على عليه السلام : إنك كنت تقول فى الجاهلية : لا يدعونى أحد إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها ، قال : أجل ، قال على : فإنى أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتسلم لله رب العالمين ، قال : يابن أخى ، أخر هذا عنى ، قال : فأخرى ؛ ترجع إلى بلادك ، فإن يكن محمد صادقا كنت أسعد

---

(١١) نفس المصدر السابق ، ص ٣٧١/ ٣٧٢ .

الناس به، وإن غير ذلك كان الذى تريد. قال: هذا مالا تتحدث به نساء قريش أبدا، وقد نذرت ما نذرت وحرمت الدهن. قال: فالثالثة؟ قال: البراز، فضحك عمرو ثم قال: إن هذه الخصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يرومنى عليها، إنى لأكره أن أقتل مثلك، وكان أبوك لى نديما، فارجع فأنت غلام حَدِث، إنما أردت شيخى قريش، أبا بكر وعمر، فقال على عليه السلام: فإنى أدعوك إلى المبارزة فأنا أحب أن أقتلك، فأسف عمرو ونزل وعقل فرسه. فدنا أحدهما من صاحبه، وثارت بينهما غبرة فما نراهما، فسمعنا التكبير تحتها فعرفنا أن عليا قتله، فانكشف أصحابه الذين فى الخندق هاربين، وطفرت بهم خيلهم(١٢).

وسنجد أن حرص الإمام على الشديد على هداية من ينازله أولا إلى الإسلام، ثم شجاعته الفائقة ومواجهته البطولية لتحدى الأخطار، وانتصاره الواثق فى نهاية الأمر، من أبرز ملامح شخصيته الملحمية كما ترسمها حكايات الموريسكيين دون شطط فى الخطوط الجوهرية، بل إن صورة الغبار الثائر ونبوءة النصر المتمثلة فى التكبير كثيرة الدوران فى هذه الحكايات، وهى تعتمد على المصادر التاريخية الوثيقة فى أصلها، وتستثمر بعض الإشارات الوصفية الفنية المحتدمة فيها، ثم تزيد عليها بعد ذلك من نسج الخيال ما يرقى بها إلى المستوى الأدبى المحكم.

وتتابع بعد ذلك مظاهر بطولة الإمام على فى مغازى الواقدى خاصة عند فتح الحصون المنيعة والهداية لدين الله، فيحكى أنه عندما انتهى رسول الله إلى حصن ناعم ومعه المسلمون، رمت اليهود يومئذ بالنبل، وترّس أصحاب الرسول عنه، وعليه يومئذ درعان ومغفر وبيضة، وهو على فرس يقال له الظَّرِب، فى يده قناة وترس، وأصحابه محدقون به، وكان قد دفع لواءه إلى رجل من أصحابه من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئا، ثم دفعه إلى آخر فرجع ولم يصنع شيئا، ودفع رسول الله لواء الأنصار إلى رجل منهم فخرج ورجع ولم يعمل شيئا، فحث رسول الله (ص) المسلمين، وسالت كتائب اليهود أمام الحارث أبو زينب يقدم اليهود يهد الأرض هدا... ووجد

---

(١٢) انظر: مغازى الواقدى، الجزء الثانى، صفحة ٤٧٠/ ٤٧١.

رسول الله (ص) فى نفسه جدة شديدة، وقد ذكر لهم الذى وعدهم الله. فأمسى رسول الله (ص) مهموما .. فقال: لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار... فلما أصبح أرسل إلى على بن أبى طالب عليه السلام وهو أرمد، فقال: ما أبصر سهلا ولا جبلا، قال: فذهب إليه فقال: افتح عينيك، ففتحهما فتفل فيهما، قال على عليه السلام فما رمدت حتى الساعة، ثم دفع إليه اللواء، ودعا له ومن معه من أصحابه بالنصر، فكان أول من خرج إليهم الحارث أخو مرحب فى عاديته، فانكشف المسلمون وثبت على عليه السلام، فاضطربا ضربات فقتله على عليه السلام، ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن فدخلوه وأغلقوا عليهم، ورجع المسلمون إلى مواضعهم، وخرج مرحب وهو يقول:

قد علمت خيبر أنى مرحب ... شاكى السلاح بطل مجرب
أضرب أحيانا وحينا أضرب

فحمل على عليه السلام فقطره (أى ألقاه على أحد جنبيه) على الباب، وفتح باب الحصن(١٣).

ويحكى الواقدى كذلك جملة من السرايا التى خص بها النبى (ص) عليا، منها السرية التى بعثه فيها مع مائة وخمسين رجلا من الأنصار فيها وجوه الأوس والخزرج، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائى، وسار على عليه السلام إلى الفُلْس، وكان صنما لطىء، عليه ثياب يلبسونه إياها، فهدمه وخربه، ووجد فى بيته ثلاثة أسياف، رَسُوب، والمخذم، وسيفا يقال له اليمانى(١٤).

ومنها سرية إلى اليمن، وهى التى رويت بتوسع فى كتاب المغازى الموريسكى، ويوجزها الواقدى كما يلى: «بعث رسول الله (ص) على بن أبى طالب فى رمضان سنة عشر، فأمره رسول الله أن يعسكر بقُباء، فعسكر بها حتى تتامّ أصحابه، فعقد له

---

(١٣) نفس المصدر السابق، ص ٦٥٣/ ٦٥٤.
(١٤) السابق، ص ٩٨٤.

رسول الله (ص) يومئذ لواء؛ أخذ عمامة فلفها مثنية مربعة فجعلها فى رأس الرمح، ثم دفعها إليه وقال: هكذا اللواء، وعممه عمامة ثلاثة أكوار، وجعل ذراعا بين يديه وشبرا من ورائه، ثم قال: هكذا العمة. فقال على عليه السلام: يارسول الله كيف أصنع؟ قال: إذا نزلت بساحتهم فلاتقاتلهم حتى يقاتلوك، ثم تقول لهم: هل لكم أن تقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوا نعم، فقل لهم: هل لكم أن تصلوا؟ فإن قالوا نعم فقل: هل لكم أن تخرجوا من أموالكم صدقة تردونها على فقرائكم؟ فإن قالوا نعم فلاتبغ منهم غير ذلك، والله لأن يهدى الله على يدك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت. فخرج فى ثلاثمائة فارس، فكانت خيلهم أول خيل دخلت تلك البلاد. فلما انتهى إلى أدنى الناحية التى يريد– وهى أرض مَذْحِج– فرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم وسبى ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك.. ثم لقى جمعا فدعاهم إلى الإسلام وحرض بهم فأبوا ورموا فى أصحابه.. فبرز رجل من مذحج يدعو إلى البراز، فبرز له الأسود بن الخزاعى السلمى، فتجاولا ساعة وهما فارسان، فقتله الأسود وأخذ سلبه، ثم حمل عليهم على بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا، فتفرقوا وانهزموا وتركوا لواءهم قائما، فكف عن طلبهم ودعاهم إلى الإسلام، فسارعوا وأجابوا، وتقدم نفر من رؤسائهم فبايعوه على الإسلام، وقالوا نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله (١٥).

وسوف تتكرر هذه القصة مع تفصيلات كثيرة، ومعجزات متتابعة، وبطولات فذة، للإمام على فى مغازى الموريسكيين، لكن مع المحافظة الشديدة على روح الأحداث ومقاصد الغزو وفحوى الرسالة، فعلى هو وريث النبى وشاهد معجزاته، كما ورد فى هذا الخبر الذى نسوقه لنختتم به تلك الصورة التراثية للإمام على:

«عن ربيعة بن ماجد أن رجلا قال لعلى بن أبى طالب: ياأمير المؤمنين، لم ورثت دون أعمامك؟ قال: جمع رسول الله بنى عبد المطلب، فصنع لهم مدا من الطعام، فأكلوا حتى شبعوا وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا وبقى الشراب كأنه لم يمس، فقال: يابنى عبد المطلب، إنى بعثت

---

(١٥) انظر كتاب المغازى للواقدى، الجزء الثالث، صفحة ١٠٧٩/ ١٠٨٠.

إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآيات ما قد رأيتم، وأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ووارثى، فلم يقم إليه أحد، فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، فقال: إجلس، ثم قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول: إجلس. حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى[١٦].

وبغض النظر عن الدلالة السياسية لهذه المبايعة، وأيا ما كان قدر هذه الرواية من الصحة التاريخية أو الضعف، فهى وما جاء فى معناها من آثار مروية ترشح شخصية الإمام على فى الوجدان الشعبى الجماعى للشيعة والسنة معا ليكون بطل الإسلام الذى تستغيث به مخيلة الموريسكيين المقهورين، فتبعث أمجاده، وتعظم أخباره، وتسبغ عليه مسحة ملحمية أسطورية، وإن كانت ذات نواة تاريخية صلبة.

---

(١٦) انظر: تهذيب خصائص الإمام على، للإمام الحافظ أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤ ص ٦٥.

الروح الملحمى الشعبى:

كان إطلاق كلمة «ملحمة» على قصائد البطولة القصصية من أسعد التعريبات المقدمة للمصطلح الغربى .epic المأخوذ بدوره من اليونانية واللاتينية، ولا نعرف بالضبط من الذى اهتدى إلى استخدام هذا المصطلح العربى الموفق، لأن مترجم العصور الوسطى أطلق كلمة مدائح بطولية على الملاحم، أما كلمة «ملحمة» طبقا لمعاجم اللغة فتعنى: «الوقعة العظيمة القتل، وقيل موضع القتال والحرب، والجمع الملاحم مأخوذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها كاشتباك لحمة الثوب بالسدى، وقيل هو من اللحم لكثرة لحوم القتلى، والملحمة: القتال فى الفتنة، قال ابن برى شاهد الملحمة قول الشاعر:

بملحمة لا يستقل غرابها ... دفينا ويمشى الذئب فيها مع النسر(١٧)

ويحدثنا الواقدى أيضا أن رسول الله (ص) أعطى رايته يوم فتح مكة لسعد ابن عبادة وهو أمام الكتيبة، فلما مر سعد براية النبى نادى: يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً، فلما نقل ذلك للرسول قال: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشا (١٨).

فإطلاق كلمة «ملحمة» التى كانت تعنى الموقعة قديما، على القصائد الشعرية التى تحكى بطولات الحروب الدامية، وتهدف إلى تمجيد مثل جماعية عظيمة، سواء

---

(١٧) راجع: ابن منظور؛ جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى: لسان العرب، الجزء السادس عشر، القاهرة، الطبعة المصورة عن طبعة بولاق، بدون تاريخ، ص ١٠.

(١٨) انظر: مغازى الواقدى، الجزء الثالث، ص ٨٢١.

كانت دينية أو وطنية أو إنسانية، وتسرد مآثر الأبطال الحقيقيين أو الأسطوريين(١٩). نقل يبرره منطق اللغة، وضرورات التوسع الجيد فى مفاهيم الكلمات، فإذا كانت تعنى فى الأصل الحرب نفسها، وقيل مكانها، فإن رواية أخبارها أدبيا يمكن أن تكون قولا ثالثا سعيدا وموفقا كذلك(٢٠).

ولعل أقرب أشكال الأدب العربى الفصيح لمفهوم الملاحم كان تلك الأراجيز التاريخية المطولة التى اشتهرت فى العصور الوسطى خاصة فى المغرب والأندلس، ويعد كتاب المغازى الموريسكى ترجمة حرة لإحدى هذه الأراجيز التاريخية الملحمية؛ لكنه لما يحفل به من عناصر الخوارق والمعجزات، ولارتباطه بسيرة بطل واحد، يتتبع مآثره المجيدة فى مختلف المواقع، ولقوة تجسيده لمثل التقوى والشجاعة، وهى دينية إنسانية، يعد أدخل فى باب الملاحم من غيره، خاصة لأنه يحكى عن عصور البطولة المطلقة، ويرتكز على تراث شهير خلفه البطل العظيم. ويرى علماء «سوسيولوچيا الأدب» أن شعراء الأناشيد البطولية كانوا رواة مدائح يمجدون الشهرة، فوجودهم يعتمد على القيام بتلك الوظيفة التى يستلهمونها فى أعمالهم، وموضوع الشعر الملحمى لا يتكون من رغائب وآمال، ولا من طقوس سحرية وشعائر ثقافية حية، بل يتمثل فى رواية المعارك المنتصرة المجيدة، والغنائم التى ظفر بها الغزاة، وعندما تفقد القصائد طبيعتها الطقوسية تفقد أيضا طابعها الغنائى وتصبح ملحمية، ومن ثم فإنها تمثل أقدم شعر دنيوى، وتصبح لونا من البيانات العسكرية، وتاريخا للأحداث الحربية، وتقتصر لهذا على رواية آخر الأنباء للمعارك المنتصرة ونزاعات القبائل بحثا عن الغنائم، وكما كـــان يقول «هوميروس» سيد الملاحم فإن «أحدث نشيد هو أسمى مديح»، لكن المنشدين ليسوا مجرد مؤرخين، لأن الأخبار التى يسوقونها قد أصبحت جنسا بين التاريخ والأسطورة، واكتسبت خصائص قصصية شعرية، اختلطت بعناصر درامية

---

(١٩) انظر: مجدى وهبة، معجم مصطلحات الأدب، بيروت ١٩٧٤، صفحة ١٤٠.

(٢٠) أطلق أبو زيد القرشى فى كتابه جهرة أشعار العرب (القاهرة ٨١ ص ٩٨) اسم «الملحمات» على القصائد التى تدور حول الحرب أو الصيد، وهو إطلاق قريب مما نحن بصدده.

وغنائية ، فالقصائد البطولية التى تعد أساس الملاحم اتسمت بخاصية مولدة امتزجت فيها أجناس عديدة ، وإن ظل العنصر الملحمى هو الغالب عليها (٢١). فالقصيدة الملحمية الغربية ثمرة لامتزاج العناصر الروائية بالأسطورية ؛ إذ أن الأسطورة هى التى تحول القصيدة الروائية إلى ملحمية. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن العالم الجاهلى العربى لم يكن عالما متدينا ، بل كان عالما يحفل بالسحر ، أدركنا أن الأسطورة لم تتخلل بعمق كيانه الثقافى. وقد أشار بعض الباحثين إلى الفارق الكبير بين مفهوم الفروسية فى الجاهلية وعند الرومان ؛ والملاحظة الحاسمة فى هذا الصدد أن البعد الدينى للفارس الرومانى ، والذى كان يعبر عنه بخضوعة للكنيسة ، وحمّياه فى نصرتها ، كان مخالفا لما يشعر به الفارس العربى الجاهلى تجاه الدين ، فقد كان ولاؤه اجتماعيا ، يتجلى فى حماسه للقبيلة ، واحترامه لآبائه ، وكل القيم الاجتماعية والأخلاقية العربية تنتظم حول مفهوم الفتوة والمروءة ، وكان الإشباع الطبيعى لهذه الحاجة يتأتى لهم غن طريق السحر والشعر ، ولعل السبب فى ذلك يعود إلى أن ظروف الحياة البسيطة فى الصحراء كانت تدفعهم إلى إهمال الأديان ذات البعد الميتافيزيقى والاكتفاء بعقد علاقة نفعية مباشرة مع القوى الخارقة ؛ لأن هذه القوى هى التى تدعمهم فى حياتهم ، وكانت الكهانة الساحرة هى التى تقوم بتلك المهمة ، ولم ترق هذه القوى إلى مرتبة الألوهية أو الأسطورية ، ومن ثم فقد افتقدوا الأبعاد الدينية الحقيقية أو الأسطورية. فلما دخل العرب فى الإسلام ، واندمجوا فى شعوب ذات تاريخ حضارى عريق ، وأصبحت جزءا من النسيج العربى أدى هذا إلى تغيير الأبنية الاجتماعية العربية ، ونفى الدين الجديد أية صبغة أسطورية لطقوسه ، وتغيرت النظرة إلى العناصر الخارقة ، وأدينت الوثنية ، وتطورت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بشكل انتهى إلى تقلص دور البطولات الفردية ، مما أدى إلى حصار إمكانية خلق ملاحم أدبية على صعيد الإبداع الثقافى الرسمى المعترف به ، ولم يعد

---

(٢١) انظر:

Marcos Marin; Francisco: Poesia narrativa Arabe Y epica Hispanica. Madrid 1971. pag 157.

هناك من منفذ لسد حاجة هذه الشعوب العاشقة للبطولة والمعتمدة على الخيال والتى تعتز بالمعجزات، سوى آدابها الشعبية الفطرية الحية.

وقد يرى بعض الباحثين أن ثمة علاقة توليدية بين الأجناس البشرية والأدبية، وهذه فكرة تجاوزتها علوم الإنسان الحديثة التى لا تعترف بالأساس العنصرى للإبداع، ولا تخضع لضغط الحتميات الثلاث؛ التاريخية عند الماديين، والجغرافية عند الطبيعيين، والعرقية عند العنصريين، وتؤثر أن تبحث الإبداع الإنسانى مرتبطا بكل شروطه، ومتحررا من الأفكار المسبقة معا، فلا يثبت من هذه الشروط إلا ما يقوم عليه الدليل العلمى المضبوط. إلا أن بعض المستشرقين فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن كانت قد راجت لديهم بعض هذه الأفكار، ولا مفر من أن نعرض طرفا يسيرا منها فى سياق الحديث عن العناصر الملحمية فى الأدب العربى، فيرى «ماسينيون» مثلا أنه ارتكازا على مبدأ تخالف رؤية الكون لدى الشعوب الآرية والسامية فإن تراسل الأجناس الأدبية وتقابلها بينهم يسير على النمط التالى:

فى مقابل الملحمة ذات الطابع البطولى الرفيع والصيغ الشعرية تقع القصيدة الغنائية؛ وفى مقابل الدراما تقع الحكاية التى تراوح فى تكوينها بين الشعر والنثر، وتتعدد فيها الشخصيات والأصوات، وفى مقابل القصة بالمفهوم الفنى نجد المقامة الأدبية. ويلاحظ على هذا الرأى أنه يتجاهل أهم الفوارق الداخلية بين هذه الأجناس الأدبية، كما أن التفرقة العنصرية التى يضعها أساسا لموقف هذه الشعوب مما كان يطلق عليه فى النقد الأدبى حينئذ الشكل والمضمون لا يمكن الاعتداد بها الآن، فهو يرى «أن الأريين يعتبرون الشكل أمرا عشوائيا، أما المضمون فلابد أن يكون دقيقا، بينما نجد الساميين يعدون الشكل جامدا متصلبا والمضمون عشوائيا»، ومع أن «ماسينيون» أشار إلى القيمة الدرامية للحكاية إلا أنه لا يمكن خلط ذلك بمفهوم الدراما، لأن كلمة حكاية قد تسبق بعض أعمال السيرة، فيقال «سيرة عنترة» و«حكاية أو قصة عنترة» ويرى باحثون آخرون أن سوابق السير الحقيقية تتمثل فى أيام العرب وما كتب حولها، ويلاحظ أن العنصر الأيديولوچى قد عاق تطور السير إلى قصص، وأنه فى خلال القرنين الثامن والتاسع الميلادى كان التاريخ

يعد من علوم الدين ؛ مما جعل السير تأخذ فى تطورها مسارا شعبيا مختلفا ، وتكتسب طابعا أسطوريا دون أن تتحول إلى قصص تاريخى ، ومن ثم فإن ولادة القصة التاريخية العربية قد تأخرت إلى القرن التاسع عشر إبان فترة البعث (٢٢) .

وإذا كان الأساس الفكرى لهذه الآراء قد تعدل منهجيا فى شروط البحث العلمى الحديث فإن إعادة تقييم التراث الشعبى العربى من ناحية ، واكتشاف بعض النصوص التى كانت مجهولة مثل «كتاب المغازى» الذى نحن بصدده من ناحية ثانية ، قد أدى إلى موقف جديد فى الدراسات التحليلية المقارنة ، فقد اتضح أن فكرة الأجناس لابد من حلها إلى عناصرها المكونة ، وبحث أنساقها المتميزة فى الآداب المختلفة ، ودراسة العلائق التاريخية والتوليدية بين هذه العناصر. وعندئذ لن يقف الأمر عند حد إثبات وجود تراث ملحمى عربى ، بل سيتجاوز ذلك إلى تحليل تسرب عناصر هذا التراث إلى الملاحم الأوربية فى العصر الوسيط ؛ خاصة عن طريق الأندلس ، ولعل النموذج المكتمل من الوجهة المنهجية المقارنة فى هذا الصدد هو ماثبت بالبرهان التاريخى والوثائق القاطعة من تأثير الثقافة الإسلامية فى الكوميديا الإلهية لدانتى ، مما فصلناه فى مقام آخر.

ويتمثل النموذج الثانى من تأثير كتاب المغازى الموريسكى على الملاحم الإسبانية والفرنسية بالرغم من سبقها التاريخى على النص المدون للكتاب ، وذلك على أساس أن هذا النص المدون لا يمثل بجال بداية تخلق العمل ، بل نهايته ، لأنه قد سبق تداوله شفاهيا خلال عصور طويلة . بين أجيال من الموريسكيين ومن قبلهم العرب الأندلسيون ، وقد تسربت عندئذ عناصر منه أسهمت فى تكوين أولى الملاحم الإسبانية ، وهى «ملحمة السّيد» ، وأهم الملاحم الفرنسية وهى «أنشودة رولان» .

وكان المستشرق الإسبانى «خوليان ريبيرا» أول من قال بالتأثير العربى فى أصول الملاحم الإسبانية ، وذلك فى بحث ألقاه أمام الجمعية الملكية التاريخية عام ١٩١٦م ، اعتمادا على ماورد فى ذخيرة ابن بسام عن السيد بطل الملحمة الإسبانية

---

(٢٢) انظر المصدر السابق ، صفحة ٨٣ .

من أنه «كانت تدرس بين يديه الكتب العربية، وتقرأ عليه سير العرب، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب، وطفق يعجب منها ويتعجب»(٢٣). وقد توسع «ريبيرا» فى فهم دلالة هذا النص، واستنتج منه ــ مضافا إلى بعض القرائن الأخرى ــ وجود «شعر رومانث» باللغة القشتالية فى إسبانيا المسلمة فى القرن التاسع الميلادى، عدا أشعار «الخرجات» المعروفة فى الموشحات الأندلسية، ومن ثم فقد رفض رأى «دوزى» فى إنكاره الكلى للشعر الملحمى والروائى العربى، وذكر ما روى عن أراجيز الغزال وتمام بن علقمة كشواهد على قصص الفتوحات و أناشيد الغزو، ثم أخذ يحلل العناصر الحية من اللغات التى كان يتحدث بها أعاجم الأندلس، ويرى فيها بقايا الأدب الرومانى، ومجموعة من الروايات العربية الإسبانية ذات الطابع الإسلامى، لكن هذا النهج الذى سلكه المستشرق الإسبانى كان مجرد احتمال تتوقف صحته على العثور على نص ملحمى فى هذه اللغات الأعجمية.

وجاء باحث عربى فخطا بالبحث فى إتجاه آخر؛ إذ درس «لطفى عبد البديع» فى رسالته المنشورة باللغة الإسبانية «الشعر الملحمى فى إسبانيا الإسلامية وتأثيره على الملاحم الإسبانية»، حيث يتفق مع «ريبيرا» فى القول بالتأثير على الملاحم الإسبانية، لكنه لايثبت هذا التأثير للعناصر الأعجمية فى اللغات الإسبانية، بل للعناصر العربية وهو فى سبيل ذلك يحلل أولا الأدب القصصى فى الشعر الجاهلى والإسلامى، ثم يدرس الشعر الملحمى فى إسبانيا المسلمة، فيعرض للمشاكل التى تثيرها التقاليد الشرقية خاصة فيا يتعلق بالسير عموما وسيرة عنترة على وجه الخصوص، ثم ينتقل إلى القصائد الملحمية الأندلسية؛ من أراجيز تاريخية عند الغزال وتمام بن علقمة وابن عبد ربه، ثم يتناول بالتحليل مجموعة الروايات والأساطير الملحمية فى الأندلس بشقيها الذى يشيع بين السكان ذوى الأصل الإسبانى والسكان

---

(٢٣) انظر: ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن على المتوفى عام ٥٤٢ هـ: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، القسم الثالث، المجلد الأول بيروت ١٩٧٩، صفحة ١٠٠

العرب ، ثم يأخذ فى تصنيف هذه الروايات ويربط المغربى منها بالمشرقى مقيما فروضه على أساس علمى متين؛ لكنه عندما يدرس التأثير العربى فى الملاحم الإسبانية الكبرى مثل «ملحمة السيد» و«أمراء لارا» و«سعيدة العربية» و«الكونتيسة الخائنة» وغيرها من القطع الملحمية يحلل العناصر التى يفترض أنها ذات أصل عربى فى كل قصيدة على حدة، بدلا من تجميع الملاحم المتشابهة ودراستها طوليا فى جملة القصائد البطولية، مما كان من الممكن أن يضفى على بحثه طابعا نقديا أشد إقناعا وأكثر تماسكا ، لكن تظل مقولات «لطفى عبد البديع» فى هذه الدراسة المبكرة أساسا للبحوث التى جاءت بعده (٢٤).

إلا أن الخطوة الحاسمة فى إثبات علاقة العناصر الملحمية العربية والموريسكية بما يناظرها من الملاحم الإسبانية والفرنسية قد خطاها «جالميس دى فوينتيس» الذى نشر النص الموريسكى لكتاب المغازى كما أشرنا من قبل، وأتبعه بجملة من الدراسات التحليلية المقارنة التى تثبت بما لا يدع مجالا للشك العلاقة العضوية الحميمة بين عناصر التراث الأندلسى ، بشقيه العربى والموريسكى ، بهذه الملاحم .

ولما كنا سنتناول بالتفصيل هذه العناصر المقارنة فى الفصل التالى ، ومعظمها يدور حول النظائر الماثلة فى أدب اسبانيا الإسلامية والمسيحية ، فإننا نود أن نشير منذ الآن إلى أن هذا التأثير قد «أشع» بنظائره على الأدب الفرنسى كما يثبت البحث الحديث ، وفى هذا السياق فلا ينبغى أن ندهش مثلا لأن اسم السيفين الشهيرين فى «أنشودة رولان» هما «الماسة Almace » وهو سيف بطريرك توربين ، و«ذو الأنضار Durandal » وهو سيف البطل نفسه من أصل عربى ، فالماسة كلمة عربية أصيلة ، ومن السهل أن ندرك لماذا يسمى بها السيف؛ إما لأنه مزين بالماس طبقا للعادة المعروفة بتطعيم السيوف بالأحجار الكريمة ، وإما على سبيل الاستعارة للإشارة إلى صلابته وقوته الباترة وقيمته ، أما اسم سيف «رولدان» فهو على نمط الأسماء المركبة

---

(٢٤) انظر الكتاب المشار إليه من قبل عن الشعر العربى والملاحم الإسبانية لمؤلفه Marcos Marín صفحة ١٥٨ / ١٥٩ .

من «ذو» — وهى من الأسماء الخمسة — وماتضاف إليه، مثل «ذو الفقار» اسم سوط على بن أبى طالب، و«ذو الحياة» اسم سيف أحد الأبطال فى قصة عنترة، من هنا يقرأ «ذو الانضار» بإبدال الراء لاما كما يحدث كثيرا من الوجهة الصوتية، وبمعنى ذو النضرة والبريق، ويشير «جالميس دى فوينتيس» صاحب هذه النظرية إلى فكرة أخرى متصلة بسيف «رولدان» تؤكد استقاء اسمه من الأدب الأندلسى الإسلامى، فكما أنه فى قصة عنترة يصاب البطل «حارث السالم» إصابة قاتلة، فيحاول كسر سيفه «ذو الحياة» بضربه فى الصخر تفاديا لوقوعه فى يد أعدائه، فتنشق الصخرة ويبقى السيف سليما، نجد نفس هذه الواقعة فى «أنشودة رولان»، وربما أمكن الظن بأن هذا محض صدفة، لولا أن هناك تفصيلا صغيرا ذا دلالة كبيرة يؤكد تأثر الملحمة الفرنسية بالأصل العربى، وهو أن البطل فى الأنشودة يحاول تحطيم سيفه على صخرة «صوان Sardonice» بالذات، وهى غير موجودة فى جبال البرانس الفرنسية، حيث تدور أحداث الملحمة، بينما على العكس من ذلك تتوفر بكثرة فى شبه الجزيرة العربية. ومما يؤكد أيضا أصل اشتقاق «ذو الأنضار» أن «رولدان» عندما تبين استحالة كسر سيفه أخذ يحدثه حديث العارف بمعنى اسمه، واصفا إياه بأنه ناصع البياض لامع البريق فى الوقت الذى يتأكد له أن صفته البارزة كانت فى هذه اللحظة بالذات هى الصلابة واستحالة الكسر.

وفى المشهد الشجى للبطل المحتضر الذى يحكى فى الأبيات من ٢٣١٢ إلى ٢٣١٧ من الأنشودة، نرى تلخيصا لهذه الأفكار الأدبية حول السيف ودلالة اسمه إذ يقول:

رولدان ضرب صخرة الصوان
الصلب يئز، لا يتكسر ولا ينثنى
وعندما رأى أنه لا يمكن تحطيمة
أخذ يحدث نفسه بأسى:
آه ياذا الأنضار، ناصعا وأبيض أنت

تبرق ضد الشمس شديد اللمعان (٢٥)

أما عن كيفية انتقال هذه العناصر إلى الأدب الملحمى الفرنسى فى العصور الوسطى، فإنه عند الإجابة على هذا السؤال تبرز بصفة واضحة خاصية أساسية من خواص الأدب الموريسكى تجعله على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للدراسة المقارنة؛ إذ أن الباحثين يغفلون عادة هذا النمط من الأدب التقليدى، ويعدونه أقل من غيره من مظاهر الأدب المثقف، ومع ذلك فإن الأدب الموريسكى كان يلتقط دون تحرج مظاهر الأدب الشعبى التى يلهج بها الناس فى الأسواق وفى السهرات الليلية، ولعل هذا الطابع الشعبى للأدب الموريسكى واعتماده على الروايات الشفوية هو الذى ضمن له الامتداد عبر التاريخ من جانب، وعبر الحواجز الجغرافية بين الشعوب الأوربية من جانب آخر؛ فالأدب الموريسكى وقد احتفظ فى ثناياه بنصوص روائية من أدب السير والملاحم القصصية العربية القديمة يظل مثل الكنز المطمور يتكشف من حين لآخر على مستويات مختلفة، وينتقل عبر عروق الاتصال الكامنة فى حياة الشعوب، والمتمثلة فى التجارة والحروب وتبادل الرقيق والأسرى والتراث الغنائى والقطع الأدبية المجهولة المتداولة فى الروايات الشفوية، حاملا معه أدق تفاصيل الإبداع الثقافى والفنى بين الشعوب.

وربما كان افتراض الطابع الشعبى فى أدب المغازى قضية تحتاج لمزيد من التحليل؛ إذ ليست لدينا نصوصه العربية الأصيلة، وإن كان عندنا ما يشبهها، مما يجعلنا لا نتكئ على قرينة اللغة كدليل على تلك الشعبية؛ إذ لا نستطيع أن نجزم بمدى استخدامه فى أصوله للصيغ العامية أو الفصحى أو مزاوجته بينها، وإن كان يغلب على الظن أنه قد استخدم أسلوب المزاوجة اللغوية، كما كان يمزج بين الشعر والنثر مثل غيره من الكتابات المشابهة له، على أن هناك اعتبارين يرجحان كفة الطابع الشعبى لهذا الأدب:

---

(٢٥) انظر: الأهمية الأدبية للكتابات الأعجمية، بحث الأستاذ Galmes de Fuentes المنشور ضمن أعمال المؤتمر الدولى للأدب الأعجمى والموريسكى المشار إليها من قبل، صفحات ٢٠٢ ــ ٢٠٨.

أولهما: أنه أدب جماعى لم يقم بصياغته مؤلف متفرد معروف، بل تداوله الناس واعتبروه ملكا مشتركا لهم، واعترف كاتبوه بهذه الملكية المشتركة فلم ينسبوه لشخص محدد، فهم مجرد رواة، والخيال الشعبى هو الذى يحدد الأدوار ويزيد فى المواقف، ويضبط إيقاع الأحداث.

وثانيهما: أن روحه ورسالته ـ بمفهوم علم الاتصال الحديث ـ مما لا يعكس منظورا سلفيا تقليديا مثقفا غالبا ما يلتزم به الكتاب المعروفون، وإنما يعكس رؤية هذه الجماعة الموريسكية للماضى كما يتمنونه ويتصورونه، مفعما بالمعجزات والنبالة والبطولة الفذة التى يشعرون بشدة حاجتهم إليها فى محنتهم الماحقة، إنه رؤية الماضى على نار الواقع المعاصر لهم، ومن ثم فهو أدب شعبى بالمفهوم العميق لهذا المصطلح، وفى ذلك تكمن خصوبته وقدرته على التلقيح والانتشار، كما تكمن قيمته فى الكشف عن الوجدان الجماعى للأندلسيين والموريسكيين وبلورته لوعيهم التاريخى طبقا لسلم القيم المتجسد لديهم. وكلما بعد عن منظومة السير العادية، واستغرق فى المعجزات الأسطورية، دون مساس بالروح المثالى الإسلامى كلما كان أعمق تجذرا فى هذا الوجدان، وأشد تمثيلا لخواصه الشعبية الأصيلة.

ويبقى علينا بعد ذلك أن نورد بإيجاز أهم معالم التحليل النقدى المقارن بين هذا النص الموريسكى ومايقابله من عناصر مميزة من الملاحم الإسبانية والفرنسية، مع مراعاة الفارق فى المستوى الفنى بين الجانبين ومايتصل به من درجة التماسك فى البنية العامة وبقية الخصائص الأسلوبية التى لانستطيع التعرض لها نتيجة لضياع الأصل العربى.

تحليل العناصر المقارنة

- وصف الأبطال وأدوات القتال
- الجهاد وتقاليد الحروب
- الخوارق والمعجزات
- بين الصيغ والقيم والبنية العامة

وصف الأبطال وأداوت القتال:

هناك جلة من الملامح التي تلتقى فيها الملاحم العربية مع نظائرها القشتالية؛ تتصل بما يطلق على الأبطال من ألقاب، وما يتخذونه من شعارات، وما يمارسونه من عادات حربية تعبر عن مواقفهم وأحوالهم، وكذلك بما يطلقونه من أسماء على أسلحتهم وأدوات قتالهم، ولما كانت التقاليد العربية وتجسداتها الأدبية سابقة على الإسبانية فى الواقع التاريخى فإن ذلك يعتبر مؤشرا لتأثير التراث العربى فى الملاحم الإسبانية.

والملمح الأول الذى يتصل بروح الفروسية وشعاراتها يتمثل فى ألقاب التعظيم التى تطلق على الأبطال، فعلى – رضى الله عنه – بطل كتاب المغازى، مثله فى ذلك مثل بقية أبطال الملاحم العربية، يتلقى ألقابا تمجده وتبرز علو قدره كفارس محارب، فتارة يسمى حيدرة أو الأسد، وأخرى يطلق عليه الغالب، أو سيد بنى غالب، وقد درجت روايات الموريسكيين على جمع هذه الألقاب وترجمتها، فنقرأ فى كتاب المغازى عبارة مثل: «وأين هذا الفارس الصنديد الذى عرف بالشجاعة، أسد بن غالب، على بن أبى طالب؟» كذلك نجد «رودريجو دياث» فى ملحمة السيد يتلقى أيضا لقبا حربيا يكرمه هو «القمبيطور» ويعنى أيضا «الغالب». ولما كان على هو نموذج الفرسان العرب فإن العلائق القائمة بين أفكار ومشاعر الفروسية من ناحية، واسم فارس الإسلام الأول وبطل الملحمة القشتالية من ناحية ثانية لا تخلو من دلالة، ومع أنه من المحتمل أن لا يكون شاعر ملحمة السيد الجوال هو المسئول عن إطلاق هذا اللقب عليه، إلا أن التوافق بين اللقبين له مغزاه الواضح، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك بقية اللقب القشتالى «سيدى الغالب» فالجزء الأول صريح الإبقاء على الصيغة العربية، وهى صيغة متداولة فى أشعار البطولة العربية الأخرى،

فالمهلهل ـ نموذج السيد المفضل ـ هو سيد بنى ربيعة ، والأمير أبو محمد ، يسمى أيضا «سيدى البطل» ، وإذا كان الشاعر الإسبانى الجوال لم يبتدع هذا اللقب ، فإنه فى أغلب الظن كان على علم بتقاليد الملاحم العربية عندما صك الاسم الكامل لبطله .

وربما كان يرتبط بهذه البطولة ويجسدها خضوع الأسد أمام شخصية السيد :

الأسد عندما رآه استحى
وبين يدى السيد أحنى رأسه وخفض وجهه
أما السيد «دون رود ريجو» فقد أمسك برقبته
وحمله مروضا ، ووضعه فى الشبكة .

وقد لمح بعض الباحثين الصلة بين هذا المشهد وبين نظائره المكرورة فى الملاحم الشعبية العربية ؛ خاصة ملحمة الزير سالم حيث يقتل البطل الأسود ويروضها ويمتطى صهوتها حاملا على ظهرها مياه بئر السباع لشفاء زوجة أخيه كليب (١) .

وإذا كانت فكرة الشرف وصورة الدفاع عنه تلعب دورا هاما في تقاليد الفروسية العربية ، فمما يترتب على ذلك أنه عندما يتعرض الشرف للعدوان فإن الفارس يرسل ذوائبه ويطلق لحيته ويحرم على نفسه الدهن والطيب ، ويقسم أغلظ الأيمان على تحريم ما أحل له حتى ينتصر لكرامته ، وكذلك نجد «السيد» يطلق لحيته حتى يظفر بعفو الملك :

«ولقد نمت لحيته ، واستطال شعرها
لأن سيدى قال ذلك بفمه ولم ينسه
حبا فى الملك ألفونسو
الذى تفانى من هذه الأرض
لن تمس لحيتى موسى ،
ولن أقص من رأسى شعرة» (٢) .

---

(١) انظر: دكتور سليمان العطار فى ترجمة المختصرة لكتاب أميريكوكاسترو «الواقع التاريخى لاسبانيا» تحت عنوان «حضارة الإسلام فى اسبانيا» القاهرة ١٩٨٣ صفحة ٨٢ .

(٢) انظر ملحمة السيد ، ترجمة الدكتور الطاهر مكى ، القاهرة ١٩٨٣ صفحة ٢٧٧ .

ونجد فى كتاب المغازى أيضا انعكاسا لهذا الالتزام من الفارس العربى، فالأصيد يقول وهو يحارب عليا: «لن أجرع شرابا من قدح، ولن أطعم لحما ساخنا، ولن ألف رأسى بعمامة حتى أودعك اللحد»(٣). وبالرغم من أن النص الموريسكى لا يشير إلى الذوائب المرسلة إلا أنه يتضمن تفصيلا آخر له إيحاءات هامة فى الملاحم القشتالية، فالفارس العربى يقول إنه لن يلف رأسه بعمامة، أى بعد ذلك، مما يعنى أنه لن يكشف شعره حتى يجبر شرفه، وفى ملحمة السيد فإن «القمبيطور» يذهب إلى البلاط:

والكوفية على شعره، ذات النسيج الرقيق
لكى تحمى رأس السيد القمبيطور
أما لحيته، وقد استطالت كثيرا، فقد أحكم سترها
وفعل كل ذلك لكى يكون مهيئا لكل أمر

وعندما يرضى الملك رغائبه، ويستجيب لكل مطالبه:

هناك نزع كوفيته السيد القمبيطور
كوفية من نسيج رقيق، بيضاء فى لون الشمس
وأظهر لحيته، نزع ما كان يسترها من غطاء(٤)

مما يوحى بأن تقاليد الفروسية هذه كانت وثيقة الصلة بالعادات الشرقية الإسلامية. ومن ناحية أخرى يلاحظ الباحثون تكاثر الأيمان المغلظة فى النص الموريسكى، مما يرتبط بنفس هذه الخاصية فى القصص العربى وأيام العرب، فمثلا حلف علقمة بن عمرو بن همام أن لا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يقرب امرأة حتى يثأر من بنى عبس، وهو نفس القسم الذى ردده المهلهل بعد مقتل كليب وأشعل به حرب البسوس الملحمية، وأمرؤ القيس حلف أيضا أن لا يأكل لحما ولا يشرب خمرا حتى يثأر لأبيه، كما أقسم المرقش أن لا يغسل رأسه حتى يقتل عدوه، وهذه الأيمان

(٣) انظر ترجمة كتاب المغازى الملحقة بهذا البحث، صفحة ١٤.
(٤) انظر ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها، صفحة ٣٧٤/ ٣٩٤.

المغلظة تبدو أيضا فى الملاحم الفرنسية، فيشير الباحثون إلى ما ورد فى «أليسكانز Aliscans » من أن جييرمو قد أخذ عهدا على امرأته أن لا تغير ملابسها، ولا تغسل رأسها، ولا تشرب نبيذا، ولا تأكل خبزا طيبا، ولا تتوسد ريشا، ولا تتغطى بغير جلال الفرس، ولا تقبل فما، لا تفعل أى شىء من ذلك حتى يعود» (٥). ومن الواضح أن كل هذه العهود ذات علاقة وثيقة بالعادات العربية.

وقد اعتاد الفارس العربى أن يفخر بسلاحه، ويعتز به، ويطلق عليه تسميات مختلفة، تنم فى معظم الأحيان عن مصدره الذى يشى بعراقته وجودته، مثل الهندى واليمنى، وقد درس بعض الباحثين المستشرقين أسماء السياط والسيوف، ويشير طول القوائم التى تضمها إلى أهمية عملية التسمية لدى العرب. وشخصية على التاريخية، مثلها فى ذلك مثل شخصيته فى كتاب المغازى تعتز بسيف يضرب به المثل فى الشهرة بين عرب الحجاز، وهو «ذو الفقار»، ولعل ما أضفى على هذا السيف قيمته هو أنه قد انتزع من العدو «فقد تنفل رسول الله سيفه ذا الفقار يوم بدر، وكان لمنبه ابن الحجاج، وقد بقى معه حتى أحد، إذ صعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إنى رأيت فى منامى رؤيا، رأيت كأنى فى درع حصينة، ورأيت كأن سيفى «ذا الفقار» انقصم من عند ظُبته، ورأيت بقرا تذبح، ورأيت كأنى مردف كبشا، فقال الناس: يارسول الله، فما أولتها؟ قال: أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها، وأما انقصام سيفى من عند ظُبته فصيبة فى أهل بيتى، وأما البقر المذبح فقتلى فى أصحابى، وأما مردف كبشا فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله» (٦). وقد أهدى الرسول عليه السلام هذا السيف لعلى بن أبى طالب، فاكتسب قيمة مزدوجة، لأنه من غنائم بدر، ولأنه هدية الرسول لصهره وابن عمه.

وفى ملحمة «السيد» نجد سيوف «القمبيطور» أيضا ذات أسماء خاصة، مثل

---

(٥) انظر:

Galmes de Fuentes. Alvaro : Epica Arabe Y Epica Castellana. Barcilona 1978. pag 60-63.

(٦) انظر: كتاب المغازى للواقدى، الطبعة المشار إليها، الجزء الأول، صفحة ٢٠٩.

سفيه «كولادا Colada » و«تيثون Tizor » وتكمن قيمتهما أيضا فى أنهما قد انتزعا من العدو، وتحرص القصيدة على إبراز ذلك إذ تقول :

وانتصر السيد ، وربح المعركة من ولد فى ساعة طيبة
وأسر «الكونت رامون» وفى السجن ألقى به
وغنم سيفه البتار «كولادا» وثمنه على ألف مارك يزيد
لقد صرع أبا بكر الملك القادم من وراء البحر
وغنم سيفه «تيثون» ويساوى ألف مارك من الذهب النضار(٧) .

وقد أراد السيد أن يكرم صهريه ، كما كُرّم الإمام على ، فأهدى لكل منهما سيفا . ومع أن إطلاق الأسماء على السيوف وأدوات الحرب ليس مما ينفرد به العرب ، بل هو شائع لدى شعوب كثيرة ، إلا أن عناية العرب البالغة بذلك ، وعلاقتهم التبادلية الوثيقة مع الممالك المسيحية فى إسبانيا يجعل الاحتمال المنطقى الأول هو تأثر المسيحيين بهم فى هذا الصدد .

ويلاحظ أن ملحمة «أنشودة رولان» الفرنسية لا يرد فيها ذكر للسيف المنتزع بالقوة ، بيد أن بعض القصائد التالية لها ، والمتعلقة بالتقاليد المتبقية من فترة الحروب الصليبية لا تغفل ذلك ، فنجد فى بعض الروايات المتأخرة أن «رولدان» ينزع السيف «دوارآندال» عندما يقتل «يامونت» فى إيطاليا ، وطبقا لبعض الروايات الإسبانية نجد أن هذا السيف ينتزعه الامبراطور «كارلو ماجنو» عندما يقتل «برامانتى» فى إسبانيا .وقد سبق أن أشرنا إلى ارتباط أسماء السيوف الشهيرة فى الملحمة الفرنسية بالتقاليد العربية .

(٧) ملحمة السيد ، الترجمة المشار إليها ، صفحات ٢٦٣/ ٣٤٠ .

الجهاد وتقاليد الحروب :

يتراءى التأثير الإسلامى فى الملاحم الإسبانية والفرنسية أيضا فى نفس مفهوم الجهاد ضد الكفار، ومن المعروف أن الجهاد فى الإسلام يجعل الشهادة فى الحرب ذروة الإيمان والبطولة معا، إذ تضمن لصاحبها إحدى الحسنيين؛ إما النصر وإما الجنة. وقد كان لهذا المفهوم أثره البالغ فى الفتوحات الإسلامية المدهشة خلال العصر الإسلامى الأول؛ والذى يهمنا الآن هو أن المسيحيين قد أدركوا تأثير الجهاد بهذا المفهوم واستلهموه فى حربهم ضد الإسلام فى كل من المشرق والأندلس. وقد أوضح الباحث الإسبانى الكبير «أميريكو كاسترو» فى كتابه «الواقع التاريخى لاسبانيا» أن البابا «ليون الرابع» قد نسخ عام ٨٤٨م مفهوم الجهاد الإسلامى عندما وعد بالخلود فى الجنة من يستشهدون فى حربهم ضد المسلمين الذين كانوا يحتلون صقلية، كما صدر عن نفس هذا المفهوم البابا «أربانوا الثانى» فى دعوته خلال مجمع «كليرمونت» عام ١٠٩٥م للحرب الصليبية قائلا: «إن من يموت فى هذه المعركة فى حب الله وحب إخوانه فإنى لا أشك بأية حال أنه ستغفر له ذنوبه، وسيلقى حياة الخلود فى الأبدية، بفضل رحمة الله ورضوانه». وإذا كان ذلك يحدث فى رأس المسيحية فإن تعاليم الجهاد كانت قد سرت من المسلمين للمسيحيين فى الأندلس عن طريق جماعات المستعربين المسيحية التى كانت تعيش فى ظل المجتمع الإسلامى كما يتضح من كتاباتهم العديدة ومن نظم حياتهم التى أشرنا إليها من قبل. ومن الطبيعى أن يكون كتاب المغازى مفعما بروح الجهاد كملحمة إسلامية؛ حيث يتكرر وعد النبى للشهداء بالجنة، ومن أمثلة ذلك ماورد فى قصة محمد والحارث حيث يستثير الكافر جيش المسلمين فيرد عليه النبى بقوله: من يخرج إليه وأضمن له من الله الجنة؟.

ونفس هذا الوعد هو الذي نجده منسوخا فى ملحمة السيد القشتالية عندما تقول :

في الساعة الثالثة ليلا ، قريبا من الفجر
بدأ المطران « دون خيرونيمو» يرتل القداس
وهم يستمعون إليه ، ثم منحهم بركاته :
من يمت منكم مقاتلا ، وجها لوجه
اغفر له ذنوبه ، وتسكن روحه مستقرة فى جوار الله »(٨) .

وهو نفس الوعد بالخلود والفردوس الذى نجده أيضا فى أنشودة رولان الفرنسية إذ تقول :

وقال لهم المطران وعده
السادة البارونات ، لا يكن ظنكم سيئا
باسم الله أرجوكم أن لا تهربوا ، حتى لا يتغنى أحد بهزيمتكم النكراء
فمن الأفضل كثيرا أن نموت محاربين،
فقد وعدنا أننا عندئذ سندرك الأبدية ، من نعيش بعد هذا اليوم
لكن أوكد لكم حقيقة هامة .
مفتوحا ستجدون الفردوس المقدس ، وهناك تجلسون بجوار الأبرار(٩) .

وكما نجد فى كتاب المغازى أنه كلما استشهد بطل صعدت روحه إلى الفردوس ، فإن أنشودة رولان أيضا تجعل روح الكونت تصعد بعد موته إلى السماء ، مما ليس له نظير فى الفكر الدينى المسيحى قبل احتكاكه بالتصورات الإسلامية واستقائه منها :

بيدين مضمومتين مضى إلى نهايته
وبعث له الرب ملاكه كيروبين وجبريل المقدس
ورفعا إلى الفردوس روحه (١٠)

---

(٨) نفس المصدر السابق ، صفحة ٣٠١ .

(٩) انظر :

El Caátar de Roldan. Trad Espanola de Martin de Riquer, Madrid 1980. pag 63.

(١٠) المصدر السابق ، صفحة ٩١ .

وعلى عكس ذلك فإن أرواح الكفار الذين يموتون فى الحرب تلقى فى لهيب جهنم، كما نجد دائما فى كتاب المغازى الذى تتكرر فيه عبارة «وألقى الله بروحه فى جهنم» وهو نفس ما نجده فى «أنشودة رولان» من أن أرواح الكفار تمضى إلى الشيطان (١١).

وإذا كان الجهاد المقدس هو أضمن الوسائل لإدراك الجنة فإن هذا يشرح لنا فرحة المسلمين بمواجهة الأعداء ومعاينة الحرب، وبوسعنا أن نتذكر هذا المشهد من كتاب المغازى «وصعد على إلى ذروة هذا البرج، فرأى جيش الكفار، وكان يضم ثمانين ألف فارس قد أحاطوا بالمدينة من كل صوب، ففرح على بن أبى طالب لما رأى ذلك وقال:

—«لك الحمد يارب، فقد أجبت دعائى، وأبهجت فؤادى»

وهى نفس الفرحة التى يعبر عنها «السيد» عندما ينظر إلى جيوش ملك المغرب ابن تاشفين وهى تحاصر مدينة بلنسية:

شكر لله، الأب الروحى
كل ما أملك من خير، هو الآن بين ناظرى
لقد جاء الحظ يبحث عنى من بعيد، من وراء البحار (١٢)

هذه الفرحة بلقاء الأعداء، لا تفسير لها كما يؤكد الباحثون الغربيون أنفسهم إلا فى مفهوم الإسلام للجهاد الذى يقرن موت الشهداء بأعراس الجنة ويتصل بمفهوم الجهاد كذلك بعض التقاليد المتعلقة بالحروب الإسلامية والتى انتقلت إلى الملاحم الإسبانية، وهى المتمثلة فى نظام الفىء والخمس وتوزيع الغنائم، وقد لاحظ الباحثون أن كتاب المغازى يجمع بين جانبين متناقضين فى الظاهر؛ أحدهما مثالى وهو الذى يتصل بالجهاد وعوالمه الروحية، والثانى مادى وهو حرص الأبطال على المغانم، وهو

---

(١١) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥ صفحة ١١٠.
(١٢) ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها، صفحة ٢٩٧.

نفس الازدواج الذى لوحظ فى ملحمة السيد، حيث نجد وصفا مفصلا لما يحصل عليه البطل بعد المعارك من مكاسب، وفرحته مع أنصاره بها فى مثل هذا المشهد :

سيدى «روى دياث» باع القصير
ما أكثر ما دفع حينئذ لتابعيه أنفسهم
الفرسان والرجالة، كلاهما فى الحقيقة أصبحوا أثرياء.
لم يبق منهم جميعا فرد واحد مسكين
ومن يخدم سيدا صالحا، يعش أبدا سعيدا (١٣).

وعقب انتصاره تصبح :

هائلة تلك الغنائم التى اشتركوا جميعا فى الإستيلاء عليها
ربحوا كثيرا من قبل، وما غنموه الآن سيقومون عليه حافظين
وأمر سيدى، من ولد فى لحظة سعيدة
بأن تقسم غنائم المعركة الفاصلة التى انتصر فيها
وأن لا ينسوا الخمس المقرر لسيدى عند التقسيم
وهكذا صنعوا، وعند التوزيع كانوا جميعا عاقلين
وبلغ خمس سيدى ستمائة جواد
وعددا من البغال، وأعدادا هائلة من الجمال
أعداد هائلة لا تقع تحت حصر(١٤).

وفى مشهد آخر نقرأ هذا الوصف التفصيلى لأنواع الغنائم أيضا :

وانصرف أتباع سيدى إلى المعسكر ينهبون
الرايات والسلاح، وأشياء أخرى كثيرة وغالية
وكل ما توصلوا إليه، مما يخص الموريسكيين
وغنموا من الذهب والفضة ما حاروا معه أين يحفظون

---

(١٣) ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها، صفحة ٢٥٣.
(١٤) نفس المصدر السابق، صفحة ٣٤٣.

وأتخموا بالثروة جميعا هؤلاء المسيحيون
من تلك الغنائم الهائلة التى أصابوها (١٥).

وفى مشاهد أخرى عديدة توصف الغنائم بكل دقة وعناية، ويتم حصرها وإحصاؤها حتى فى ميدان القتال نفسه، كما أن هناك إشارات أخرى إلى الخمس وطريقة توزيع الغنائم تحفل بها ملحمة السيد، مما لا يكاد الدارسون يعثرون لمثله على أثر فى «أنشودة رولان» التى لا ترد فيها سوى إشارات مبهمة وسريعة من مثل:

سيكون لنا اليوم مغانم كثيرة وجميلة
لم يظفر بمثل قيمتها أى ملك فرنسى من قبل (١٦).

ولا تخفى دلالة توزيع الغنائم، ففى ملحمة السيد كما رأينا نجد القائد يستأثر لنفسه بخمس ما ربح الجيش يستصفيه قبل التوزيع، وليس هناك مصدر استقت منه التقاليد المسيحية فى الحروب هذا التوزيع سوى المصدر الإسلامى الذى يعود إلى العصر الأول عند تحديد نصيب الرسول فى الفىء طبقا للآيات القرآنية. وقد ظلت عادة الإسبان فى دفع الخمس للقائد أو الملك مستمرة حتى بعد انتهاء مراحل الصراع العربى الإسبانى؛ فنجد القادة الذين غزوا أمريكا اللاتينية يدفعون لملوك إسبانيا نفس النسبة وهى الخمس دون أن يدركوا أنهم بذلك يطبقون مبدأ إسلاميا واضحا، مما يعد مظهرا من مظاهر التأثير الحضارى على المؤسسات الاجتماعية والنظم العسكرية، قبل أن يكون مجرد ملمح تلتقى فيه الآداب والفنون التى تبرز بدورها ما يترتب على الاحتكاك التاريخى من تأثير ثقافى عميق.

ومن تقاليد الحروب لدى العرب أيضا أنها تعتمد على الدهاء، ويباح فيها المكر والخديعة؛ وفى كتاب المغازى يتظاهر على بطل الإسلام بأنه يستسلم أمام الأشوس فيمد يده للعدو فإذا ما قبض عليها جره من فوق حصانه «ومد على يده، فظن عدو

---

(١٥) انظر المصدر السابق، صفحة ٢٤٩/ ٢٥٠.
(١٦) انظر أنشودة رولان، النص المشار إليه فى هامش ٩ صفحة ٥٣.

الله أن عليا قد استسلم للأسر، فلما أمسك بيد على نزعه هذا من فوق سرج جواده، وقذفه على الأرض»، ونرى خدعة أخرى أوضح فى مشهد متصل بغزوة اليرموك، إذ يرى شرحبيل أن الملك البيزنطى ذو بأس شديد، فينسحب من أمامه، ويحتال عليه بأن يهرب منه، حتى إذا لامه على ذلك قال له: «ويل لك، أولا تعرف أن الحرب كلها خدعة؟». ويلاحظ فى هذا المقام أن البطل العربى هو الذى يمارس الخداع، والملك البيزنطى هو الذى يلومه طبقا لأخلاق الفروسية، وعندما واجه الكاتب الموريسكى مشكلة ترجمة الكلمة العربية «حيلة». وهى كلمة لا توحى بالتحقير - تردد بين كلمات عديدة بالإسبانية تعنى خدعة وشرك وغيرها، مما جعله فى النهاية يؤثر إثبات الكلمة العربية نفسها دون ترجمة لمعرفة المتلقى بها من ناحية ولدلالتها الإيجابية على المهارة وحسن التأتى للأمور من ناحية أخرى. وفى ملحمة السيد يستخدم البطل أيضا خدعة حربية كى يغزو القصير فنقرأ فيها:

وعندما رأى السيد أن القصير لن تستسلم
ابتدع خدعة حربية جديدة، ولم يتردد فى استخدامها.
ترك فى المعسكر خيمة واحدة قائمة، وأمر فطويت الخيام الأخرى
واتجه هابطا نحو نهر شلون ناشراً رايته،
ارتدوا الدروع السابغة، والسيوف فى أغمادها
وبهذه الخدعة الذكية سيجعلهم يقعون فى المصيدة (١٧).

وتنجح المكيدة، ويستولى السيد على مدينة القصير، ومن الغريب فى ملحمة أوربية أن يكسب البطل بغير شجاعته وقوته، إذ ينافى ذلك مبادئ الفروسية، ومن ثم يصبح من المنطقى أن نجد حيل العرب فى «أنشودة رولان» قاصرة على العرب الأعداء ومتكررة فى أكثر من موضع، أما السيد القمبيطور فلا يتورع عن خداع اليهوديين فى «برغش» بحيلة الصندوقين المملوءين بالرمل اللذين يودعهما عندهما، موهما إياهما أنهما مليئان بالذهب النضار من أموال الجزية؛ ويقبض مقابلهما رهنا يبلغ ستمائة مارك، وكذلك يستولى كما رأينا على حصن القصير بالحيلة، وإن كان ذلك

---

(١٧) انظر، ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها من قبل، صفحة ٢٣٨.

لا يجعل الباحثين ينتقصون من طبيعة الإحساس بالشرف لدى المحارب العربى والقشتالى؛ إذ أن الدفاع عن العرض وتقديس الشرف لهما قوانينهما الخاصة التى يلتزم بها الفرسان، ويوفون بعهودهم عليها، أما فى حالات الحرب فإن مواجهة القوة البدنية بالذكاء ــ وهو قوة أخرى معنوية ــ فإنه لا يخل بنبالة المحارب، ولا يطعن فى شرفه (١٨).

وإلى جانب هذه التقاليد المتصلة بالحروب يلمح الدارسون طرفا آخر يربط بين التراث الملحمى العربى والقشتالى، ويتعلق ببعض خواص الأبطال وقدراتهم المميزة، ومن أبرزها خاصية البلاغة؛ ذلك أن للكلمة فى عالمنا العربى أهمية كبرى تجعلها صنوا للسيادة، إلى جانب شروطها الأخرى من شجاعة وكرم، وفى كتاب المغازى نجد هذه الخاصية بوضوح فى شخصية الإمام على المشهور بتملكه لناصية البيان وبلاغته الفائقة، فكثيرا ما يلقى خطبا تجعل الدموع تنهمر من العيون، والقلوب تتحرق شوقا للجنة وخوفا من النار. وهذا الإعجاب بالقدرة اللغوية نجده أيضا فى مشاهد عديدة من ملحمة السيد الذى يتحدث «كالعهد به دائما؛ ببلاغة ودقة»، وهذا ملمح لا أثر له فى «أنشودة رولان» ولا غيرها من الملاحم الأوربية التى لا تولى للكلمة هذه القوة الساحرة المنبثقة عنها فى الثقافة العربية وما استقى منها. ويتعلق بطبيعة الكلمة السحرية لدى العرب ما يلاحظ غالبا من أن الفارس العربى كثيرا ما يكون شاعرا، وعلى بن أبى طالب ينسب له ديوان من الشعر، وفى كتاب المغازى كلما خرج إلى ميدان القتال أنشد أبياتا أو مقطوعات شعرية، كما نرى فى معركة الأصيد مثلا، وهو غالبا ما يفخر بهذه الأشعار بنفسه، وهذه خاصية عامة فى أدب الفروسية العربى، ذات علاقة وثيقة بملحمة السيد، حيث نراه يصيح باسمه كى يبعث الحمية والحماس فى نفوس قواته، مثلما نجد فى أدب الفروسية العربى:

وبصوت عال نادى من ولد فى ساعة طيبة
إليهم، أيها الفرسان، حبا فى الخالق

---

(١٨) أنظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥، صفحة ٧٥.

أنا روى دياث.. السيد، من بيبار، القمبيطور» (١٩)

وهذه الاستثارة، كصيحة حرب حماسية، نجدها كذلك فى قصائد قشتالية أخرى، مثل «فرنان جونثاليث» الذى يقول:

أنا الكونت، شدوا عليهم أيها القشتاليون
وأوسعوهم جرحا وتنكيلا.

وفى قصيدة «ألفونسو الحادى عشر»:
أنا ملك قشتالة، فأطيعونى هذا اليوم

وهذه قاعدة متبعة فى كتب الفروسية القشتالية الأخرى، كما ينصح «دون خوان مانويل» فى كتابه المسمى «كتاب الدول أو الأحوال» الذى يعرض فيه لآداب الفروسية فيقول: «لكى تستحث قومك على الصراع، ينبغى أن تكثر لهم من تكرار اسمك ولقبك، وأن تأمرهم بأن يقولوا جميعا: أجهز عليهم فإنهم مهزومون». ولعل التوافق الموضوعى يوحى بأثر التعايش مع الحياة العربية وانتقاله إلى الملاحم القشتالية، فكثيرا ما كان يوظف شعر الفخر العربى فى ملاحم القتال للحماسة، وفى هذا الصدد فإن التطابق بين صيحة على: أنا على بن أبى طالب، أسد بنى غالب، التى تتكرر فى كتاب المغازى ونظيرها فى ملحمة السيد لا نجد له مثيلا فى «أنشودة رولان» أو غيرها من الملاحم الفرنسية (٢٠).

وعندما ينشد الفارس العربى أهازيج الفخر أمام العدو فإنه يتبع ذلك أحيانا بتذكر اسم زوجته وأولاده، هكذا نرى فى كتاب المغازى عندما يقول على:

أنا أسد بنى غالب، على بن أبى طالب
ولى الفخر على الخلائق، بفاطمة الزهراء وبنيها.

---

(١٩) انظر: ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها، صفحة ٢٤٥.
(٢٠) انظر المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥، صفحة ٨٩/ ٩١.

وينبغى الإشارة فى هذا الصدد إلى أن تقاليد الفروسية تقضى باستحضار اسم الحبيبة وغيرها من الشخصيات النسائية كى تثير نخوة الفارس وحميته للقتال، فهذا عنترة يقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ونجد هذا ماثلا فى كتاب المغازى خلال حصار المدينة فى غزوة الخندق؛ حيث يطلب على من الرسول أن يبعث له بابنته فاطمة الزهراء والصبايا الأربعين من حسان قريش، كى يصعدن على جدار المدينة، ويشاهدنه خلال القتال. ونظير ذلك مشاهد عديدة فى ملحمة السيد، من مثل قوله :

فأمر زوجته وبنتيه بأن يصعدن إلى القصر، إلى برجه السامق
وفى نظرة واحدة رأين كل الخيام
«يا سيد، ما الذى أرى هناك؟ يحفظك الله!»
«يازوجتى الشريفة، لا تدعى الألم يسحقك
ما هنالك ثروات رائعة وكثيرة تنتظرنا»

ثم يقول فى نهاية المشهد :
انظرن؛ سيفى يقطر دما، وجوادى يتصبب عرقا
وبمثل هذا ننتصر على المسلمين فى ساحة القتال [٢١].

على أن هذه الأهمية التى تولى للمرأة لا نظير لها فى الملاحم الأوربية الأخرى؛ حيث تعيش شخصياتها حياة حربية محضة. ومن الطريف أن يلاحظ الباحثون أن «أنشودة رولان» التى لا تكاد تبدو فيها المرأة إلا نادراً عندما تحكى عن واقعة حربية فى مدينة سرقسطة فى الثغر الأعلى للأندلس، تجعل الملكة العربية التى تسميها «برايموندا» تتأمل مشهد الحصار من برج المدينة :

---

(٢١) انظر: ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها، صفحة ٢٩٧/ ٣٠٣.

برايموندا تصعد للبرج مع شيوخ وفقهاء الشريعة الزائفة
التى لا يحبوها الله أبدا برعايته
عندما ترى العرب منكسرين تهتف صارخة: أغثنا يا محمد!

وكأن مؤلف الأنشودة كان على وعى بأنه عندما يتصل الأمر بالتقاليد العربية فإن حضور المرأة لمشهد الحرب يصبح جزءا من لوحة الفروسية، وأساسا لحيوية المشهد، ولا يقتصر الأمر على مجرد حضور المرأة لإثارة الحمية والحماس، كما يروى عن قريش أنها خرجت بالظعن يوم أحد، وقد سئلت أم عمارة: «هل كن نساء قريش يومئذ يقاتلن مع أزواجهن؟ فقالت: أعوذ بالله، ما رأيت امرأة منهن رمت بسهم ولا بحجر، ولكن رأيت معهن الدفاف والأكبار، يضربن ويذكرن القوم قتلى بدر، ومعهن مكاحل ومراود، فلكما ولى رجل أو تكعكع ناولته إحداهن مرودا أو مكحلة ويقلن: إنما أنت امرأة» (٢٢) بل قد يتجاوز دور المرأة ذلك بأشكال مختلفة، وذلك عندما تقوم امرأة نبيلة، عادة ما تكون بنت الملك ذاته، بمواساة الأسير الذى يقع فى سجن أبيها، وتنشب بينها علاقة عاطفية، تنتهى أحيانا بفك أسره، أو عونه على الهرب، كما يرد فى بعض أقاصيص كتاب الأغانى وغيره من الموسوعات العربية.

وقد انتقل هذا الموضوع إلى الملاحم الأوربية خلال احتكاك الحروب الصليبية والروايات المأثورة عنها؛ إذ غالبا ما تعشق بنت الملك الأسير وتساعده على الفرار. وفى الملاحم الإسبانية السابقة على هذه الفترة كان يتكرر نفس النموذج بفعل التأثير العربى عليها، كما فى أسطورة «أمراء لارا» حيث تقع الفتاة النبيلة فى هوى «دون جونثالو» وتنجب منه «مضار» الذى سيتولى الأنتقام لأهله، وتتكرر نفس القصة فى حكاية العربية «زايدة أو سعيدة Zayda» حيث تزعم الأسطورة أن معتمد طليطلة قد وهبها عن طيب خاطر لأسيره وغريمة ملك قشتالة ألفونسو السادس.

وفى «أنشودة رولان» يمكن أن نرى ظلا باهتا لذلك، يتمثل فى رعاية الملكة

---

(٢٢) انظر: كتاب المغازى للواقدى، الطبعة المشار إليها، الجزء الأول، صفحة ٢٧٢.

«برايموندا» للنبيل الفرنسي «جانليون»، دون أن يصل الأمر إلى حبه أو تدبير هربه:

«عندئذ وصلت الملكة برايموندا
وقالت للكونت، لكم أحبك يا سيدى، لأن مليكى يقدرك وكذلك رعاياه
سأبعث لزوجتك بعقدين من الذهب الخالص والجواهر الكريمة
بما يفوق فى ثمنه كل ما فى خزائن روما»(٢٣).

ودلالة هذا المشهد. تتركز فى أن المرأة الوحيدة التى تعبر الأنشودة ـ باستثناء «إلدا» ـ هى امرأة عربية، تنسب إليها تصرفات نبيلة مما جرت به العادة فى تقاليد الحروب العربية، مما يوحى بعمق تأثير هذه التقاليد على الملاحم الأوربية.

وحكايات العربية «زايدة أو سعيدة» تتصل أيضا بموضوع أثير فى الأدب العربى، وهو العشق بالأذن قبل الرؤية بالعين، ففى هذه الحكاية ـ طبقاً للأشعار المنظومة منها الواردة فى كتاب «التاريخ العام» ـ أن «ألفونسو السادس» خلال محاولته لغزو طليطلة، كان قد عرف بالشجاعة والنبل، واشتهر بالوسامة وحسن الطلعة، فسمعت عنه «سعيدة» ـ وهى نبيلة عربية من البيوتات الكريمة، فعشقت ما اشتهر به من عظمة وفروسية، ومهارة فى القتال، واشتد تعلقها به قبل أن تراه، وكأنها بذلك تحقق قول بشار:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ويفرد ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة فى الإلف والألاف» بابا عمن أحب بالوصف دون المعاينة (٢٤) ومن الطريف أن قصة «سعيدة» تتطابق فى تفاصيلها مع ما ورد عند ابن حزم فى هذا الباب. وفى بعض الملاحم العربية الأخرى يتكرر هذا الأمر، كما نجد فى سيرة بنى هلال؛ حيث تقع «سعيدة» بنت الزناتى خليفة» فى حب الأمير مرعى لما تسمعه من الجارية «مى» من امتداح لشجاعته وفروسيته

(٢٣) انظر المصدر المذكور فى هامش رقم ٥، صفحة ١٠١/ ١٠٢.

(٢٤) انظر: ابن حزم الأندلسى: طوق الحمامة فى الالف والآلاف، تحقيق الطاهر مكى، القاهرة ١٩٨٠ ص ٣٨.

ووسامته، حتى أصبح بطل الأبطال ومجد الرجال، وهى تعشقه لأن الحب يجرى فى القلب عن طريق السمع قبل أن يجرى عن طريق العين، مما يدل على أن تقاليد هذا الحب كانت راسخة فى التراث العربى المكتوب والشفاهى قبل أن تنتقل إلى الأدب القشتالى الغنائى والملحمى (٢٥).

وهناك ملمح أخير فى تقاليد الحروب العربية انتقل إلى الملاحم القشتالية، وهو يتعلق على وجه التحديد بطريقة الشروع فى القتال بالمبارزة أولا، ولا بد أن تكون بين الأبطال الأقران؛ فنقرأ فى مغازى الواقدى مثلا هذا المشهد من غزوة بدر:

«ثم نادى منادى المشركين: يا محمد، أخرج لنا الأكفاء من قومنا؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: يا بنى هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث الله به نبيكم؛ إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، فقام حمزة بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب، وعبيدة ابن الحارث بن المطلب، فمشوا إليهم، فقال عتبة: تكلموا نعرفكم، وكان عليهم البيض فأنكروهم، فإن كنتم أكفاء قاتلناكم، فقال حمزة: أنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، قال عتبة: كفء كريم، ومن هذان معك؟ قال: على بن أبى طالب، وعبيدة بن الحارث، قال: كفآن كريمان» (٢٦).

فالنزال الفردى كان هو الشكل المفضل لدى الفارس العربى لإثبات شجاعته وبطولته، وفى كتاب المغازى الموريسكى يكثر هذا النوع من المبارزة بين الأبطال، ومع أن تلك العادة مشتركة بين شعوب مختلفة كما يتضح فى الملاحم الفرنسية والقتشالية والجرمانية، إلا أنه — كما يقول بعض الباحثين — فإن النزال فى الملاحم الجرمانية يكشف عن إرادة الله؛ حيث يلجأ إليه المتحاربون لتقرير مصير الحرب بين جيشين، أو لتحديد ذنب أحد المتهمين، بخلاف النزال العربى الذى لا شأن له

---

(٢٥) المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥، صفحة ١٠٣/ ١٠٥.

(٢٦) انظر كتاب المغازى للواقدى، الطبعة المشار إليها من قبل، الجزء الأول، صفحة ٦٨.

بذلك؛ بل هو مجرد صراع بين بطلين، يريد كل منهما أن يحظى بشرف توجيه الضربة الأولى للعدو. كما نرى لدى «مطران بلنسية» الذى يخاطب «السيد» قائلا:

وأنت يا سيد، دون لذريق، يا من فى ساعة طيبة تمنطقت سيفك
سوف أرتل لك القداس فى نفس هذا الصباح
وأطلب منك فضلا، وأنا واثق أنك ستعطينى إياه
أن تكون الطعنات الأولى من سيفى، وبيدى أوجهها
فقال القمبيطور: لك ما طلبت»(٢٧).

وفى مناسبة أخرى يكرر المطران نفس الرغبة:

هاهو المطران، دون خرونيمو، قادم فى كامل العدة والسلاح
ثم توقف أمام القمبيطور، كعادته طافح بالسعادة:
يملأ علىّ فكرى أننى ربما أستطيع أن أقتل بعض المسلمين
إنى لشديد الرغبة فى أن أشرف سلاحى وأمجد مهنتى
أود أن أكون أول مبارز إذا بدأ القتال»(٢٨).

هذه الرغبة المتميزة فى توجيه الضربات الأولى فى مبارزة بين الأقران لا يجدها الباحثون فى الملاحم الفرنسية والجرمانية، ومن ثم فإن ورودها فى الملاحم القشتالية الوثيقة الصلة بالعادات العربية ممارسة حيوية ووصفا أدبيا يعد من قبيل القرائن الدالة فى هذا الخصوص.

---

(٢٧) انظر ترجمة ملحمة السيد المذكورة من قبل، صفحة ٣٠١.
(٢٨) نفس المصدر السابق، صفحة ٣٣٧.

الخوارق والمعجزات :

يتميز الأدب الملحمى عالميا باعتماده على الأساطير الحافلة بمخزون هائل من خوارق الطبيعة ، والمجسدة لأشواق الإنسان العليا فى الارتفاع على ضرورات الزمان والمكان ، وإذا كان الأدب العربى الرسمى قد خلا ــ أو كاد يخلو من الملاحم الكاملة ، ولم تبق فيه إلا بعض القصائد البطولية المطولة ، أو الأراجيز التاريخية ، أو الإشارات الرمزية ، فإن ذلك يعود إلى فقره الأسطورى ونزعته العقلية الصارمة فى كثير من الأحيان ، ولم ينج من هذا المصير سوى الأدب الشعبى الذى أطلق العنان بطبيعة انفلاته من القيود لانتصار الخيال الحر فى خلق العوالم التى لا تخضع لما نعرفه من قوانين عالمنا الطبيعى ، والاستجابة بذلك لحاجة الإنسان الحميمة فى التفسير والتعويض .

وقد تولت بعض عناصر المعجزات الدينية وما تلاها من إغراقات شعبية مهمة إشباع هذه الحاجات ، فاختلطت بالتاريخ ودارت فى نطاقه ، وتحرج الفكر الدينى المثقف من الترويج لها ووقف منها بحذر فى كثير من العصور ، والذى يهمنا أن نشير إليه الآن هو أن الفكر الإبداعى الأدبى قد لزم بدوره هذا الحذر فلم يستثمر كثيرا عنصر المعجزات والخوارق ، اللهم إلا فى بعض المدحيات النبوية الشريفة ، أما الأدب الشعبى فقد أمعن فى الاعتماد عليها وعرض التاريخ من خلالها . ولعل نموذج «كتاب المغازى» الذى نتعرض لعلاقته بالملاحم القشتالية والفرنسية خير دليل على ذلك . ومن العناصر الخارقة التى يكثر ورودها فى أخبار الحروب والجهاد حضور جبريل فى اللحظات الحرجة ، حاملا بشارة نصر المؤمنين على أعدائهم ، سواء كان

ظهورا عينيا أم مناميا، ويتضح هذا فى مشاهد عديدة من كتاب المغازى فى مثل قوله:

«وعندما حل بهم الليل وعم الظلام، بعث الله تبارك وتعالى جبريل وقال له: اذهب إلى حبيبى محمد، وأقرئه منى السلام، وقل له إن الفرسان الأربعة الذين بعثهم من صحابته فى ثلاثين رجلا قد ضاق بهم الأمر واشتدت عليهم المحنة، وقيدوا بالأغلال والسلاسل» فنزل جبريل فى أسرع من طرفة العين وقال:

ـ يا محمد، إن ربك يقرئك السلام ويقول لك إن الصحابة الذين أرسلتهم فى ثلاثين فارسا قد اشتدت عليهم المحنة ووضعوا فى الأغلال، ويريد الكفار إحراقهم بالنار، وإن الله يعدك بنجاة صحابتك والقضاء على هذا الملك الغادر على يد ابن عمك على بن أبى طالب» (٢٩).

ومهمة جبريل فى هذه المشاهد بث الطمأنينة فى نفس الرسول والصحابة، وإنقاذهم من المواقف الحرجة، ويظهر جبريل أيضا فى الملاحم الأوربية انعكاسا لهذا التقليد الإسلامى، فنراه يأتى فى «أنشودة رولان» مبعوثا من العناية الإلهية كى يعلن للامبراطور قرب المعركة على النحو التالى:

ينام كارلوس كرجل مكروب
يبعث الله القديس جبريل ويأمره بأن يرعى الامبراطور
يقوم الملاك طيلة الليل حارسا عليه ويعلن له فى الرؤيا
بأن المعركة ستشن ضده وأنها بالغة الحسم والخطورة (٣٠)

وفى حالات أخرى يأتى جبريل حاملا أمرا للامبراطور بمهمة حربية محددة مثل قوله:

نام الملك فى حجرته ذات القباب
وجاءه القديس جبريل ليبلغه عن الله
يا كارلوس اجمع جيوش امبراطوريتك

(٢٩) كتاب المغازى المترجم ملحقاً بهذه الدراسة، الورقة ١٠٠/ ١٠٢.

(٣٠) انظر أنشودة رولان، الترجمة الإسبانية المشار إليها من قبل، صفحة ٩٥/ ٩٦.

واذهب بقواتك إلى أراضى إيبيرا
لتنقذ ملكها من الحصار[٣١].

ويلاحظ على هذه المشاهد أن مهمة جبريل فيها هى إعلان الخطر أو إبلاغ أمر ما؛ حتى أن الامبراطور قد يظهر مقاومته للامتثال لهذا الأمر، لكنها لا تتضمن — كما هو الشأن فى التقاليد الإسلامية — بعث الطمأنينة فى نفس البطل وتبشيره بالنصر، ولعل ما يشير إليه الدارسون فى ملحمة السيد الإسبانية أوثق صلة بهذه التقاليد؛ إذ يظهر جبريل:

وعندما أقبل المساء نام سيدى
غمره نعاس حلو فاستغرق فى نوم لذيذ،
وجاءه فى نومه الملاك جبريل:
ارحل يا سيد، أيها القنبيطور الطيب
فلم يحدث أبدا أن رحل رجل له من الحظ مالك
ومادمت على قيد الحياة، فكل شىء سيمضى لك على ما يرام (٣٢)

فظهور جبريل فى كل من كتاب المغازى وملحمة السيد منوط به وظيفة محددة هى التبشير بالنصر على الأعداء، وهو بهذا مخالف لما جرت عليه تقاليد الأدب الإسبانى والأوربى. وقد رأى بعض الباحثين فى مشابهة مشاهد ملحمة السيد لما يقابلها من أنشودة رولان دليلا على تأثر الملحمة الإسبانية بالفرنسية السابقة عليها، وخالفهم فى ذلك المحققون؛ اعتمادا على أن كلا من الملحمتين قد استمد من التراث المشترك وهو الإسلامى السابق عليهما، والذى يتمثل فى المصادر الشفوية التى تغذى بها مؤلف كتاب المغازى، والتى كانت شائعة فى الأندلس وإسبانيا قبل تاريخ الملحمتين الفرنسية فى القرن الثانى عشر، والإسبانية فى الثالث عشر[٣٣].

---

(٣١) المصدر السابق، صفحة ١٤٢.
(٣٢) انظر: ملحمة السيد، الترجمة المذكورة، صفحة ٢٢٨.
(٣٣) انظر: المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥ صفحة ١١٨/ ١٢٢.

ومن المداخل التى تسمح بإيراد بعض الخوارق فى هذه الروايات أن يكون النعاس ذريعة لوقوع المعجزات الخارجة على قوانين الطبيعة ، كأن يتم أثناءه انتقال البطل إلى مكان قصى ، كما حدث مع على بن أبى طالب فى معركة الملك المهلهل طبقا لكتاب المغازى إذ «وصل على إلى مفترق الطرق ، وأخذته سنة من النوم ، ولم يصح حتى كان قد انتقل إلى الوادى الذى نزل به خالد بن الوليد بعد مسيرة عشرين يوما ، فقطعه على فى ليلة واحدة أو بعض ليلة » ، وأحيانا يتم هذا الانتقال المعجز دون لجوء لحيلة النوم كما نرى فى رواية قصر الذهب، عندما صعد الرسول عليه السلام إلى ربوة عبد الله الأنصارى فى المدينة ، وطويت له الأرض حتى يشاهد الأحداث التى تجرى بين على بن أبى طالب والشياطين الذين يحاربونه على أسوار قصر الذهب على بعد آلاف الفراسخ .

وقد يجد الأبطال الفرسان ــ فى كتاب المغازى ــ أنفسهم مضطرين لمصارعة العماليق كما يحدث فى كتب الفروسية ، فنجد مثلا خالد بن الوليد فى معركة المهلهل نفسها يواجه عملاقا يوصف هكذا : «ثم جاء خالد إلى نهر، ولم يلبث أن جاءه خادم الملك المهلهل، وكان يدعى حيطان الجبل ، لأنه كان مثل النخلة فى الطول ، وكان له عينان مثل البرق ، وأذنان فى حجم الدرعين ، وأنفان مثل البوقين ، وكان ضخم الهيكل كالبرج ... إلخ» لكنه بالرغم من هذه الأبعاد الأسطورية لا يلبث أن يهزم أمام خالد بن الوليد كما هو الشأن دائما فى قصص الفروسية . وربما كانت العناصر الأسطورية قد تجمعت بشكل مركز فى رواية قصر الذهب الذى يوصف بأنه : «قصر حصين ، أبوابه من حديد ، وأرضه من الأرجوان والعنبر والحزف ، وأبوابه من العاج ، كسيت جدرانه بالذهب ، وأركانه بالفضة ، وأعمدته بالنحاس ، ومواسيره بالرصاص .. وأبراج هذا القصر من الرخام الأبيض والملون ، وقد ذاع أمره فى الشرق والغرب حتى وصل إليه هذا التنين فأهلك الحرث والنسل ..» (٣٤) ويقاوم البطل على سحر هذا القصر الذهبى كما يحدث عادة فى

---

(٣٤) انظر : كتاب المغازى ، الترجمة الملحقة بهذه الدراسة ، صفحة ١٣٥ .

قصص الفروسية، ويواجه الثعبان التنين، ويتغلب عليه بفضل سيف الرسول وعون جبريل حتى يشطره إلى نصفين، أحدهما يسد المشرق، والآخر يسد المغرب.

كما تلعب الجن والعفاريت دورا نشطا فى روايات المغازى الموريسكية، فيحارب على فى إحداها جيشا مكونا من خمسين ألف جنى، ويتغلب عليه بمفرده، وتختلط صور الجان الكافر والمؤمن وتتوزع على المشاهد المختلفة، ممايضفى على هذه الروايات طابع الخوارق المرتبط بقصص الفروسية وبقايا العناصر الملحمية فى العصور الوسطى، لكنها هنا وثيقة الصلة بالإشارات الدينية فى التراث الإسلامى، توظف بعض عناصره المتداولة فى كتب السيرة والمغازى، ثم تأخذ فى تضخيمها والتهويل من شأنها حتى تصبغ الرواية بالطابع الأسطورى الخيالى.

ومن العناصر الخيالية الشائعة فى أدب الفروسية وجود الأشياء المسحورة التى تتدخل فى اللحظة المناسبة لإنقاذ الفارس من ورطة لا تجدى معها جميع الجهود الإنسانية المألوفة، ومن أمثلة ذلك مانقرأه فى كتاب المغازى عن الخاتم المسحور الذى كان يلبسه خالد بن الوليد: «وكان خالد بن الوليد لديه خاتم،مادام يضعه فى إصبعه فلا يمكن أن يؤذيه شىء أو يضره عمل، أو ينفذ إليه سم فى جسمه أكثر من ساعة فى منام» وقد نجد العنصر الخارق متمثلا فى آلات موسيقية، تعمل بنفخ الهواء عند هبوب الريح أو بتدخل الأرواح، كما يحدث فى معركة الأشيب بن حنقر الذى أقام للصنم الذى يعبده قصرا جعل فيه «قبة من المرمر، يدخل فيها الهواء، ويحدث أصواتا كأنها صياح الديكة، وبداخلها يتكلم الشيطان بجميع اللغات»، ومن الطريف أن مثل هذه الآلات نجدها موصوفة أيضا فى الملاحم الفرنسية التى تنسبها دائما لقصور الملوك العرب (٣٥).

ومن العناصر التى تتكرر فى الملاحم القشتالية، وتتصل بالغيبيات، وإن لم تكن من الخوارق، زجر الطير ومايترتب عليه من تفاؤل وتشاؤم وتوقع المستقبل طبقا

---

(٣٥) انظر:

Galmes de Fuentes : El libro de la Batallas. Tomo No. 1. paga 70.

لاتجاهه، ولحركة الأفلاك، مما يزدهر عادة لدى البدو ومن تتوثق صلتهم بالطبيعة وعناصرها الأولى مما كان ذائعا لدى العرب. وينعكس هذا بوضوح فى كتاب المغازى، مثل ما يحكى عن خالد بن الوليد فى قصة ما وراء الحجرات:

«فقطعوا الفيافى والصحراء، وساروا سبعة أيام، فلما جاء وقت الظهيرة رأوا نسرا يحط فى وسط الطريق، وكان الفرسان الثلاثون يمضون فى المقدمة، وأخذ النسر يصيح وينقر نفسه وينتف ريشه، ثم طار فى الهواء إلى المدينة حتى اختفى عن أبصارهم. فلما رأى الصحابة ذلك توقفوا للتدبر والتأمل. فقال خالد بن الوليد، وكان أعلمهم بلغة الطيور: يا صحابة النبى عليه السلام إن هذا العقاب يقول لنا بأن نرجع إلى مدينة النبى، لأن هؤلاء الاعداء يريدون خداعنا ويبغون لنا السوء بالقتل والتحريق»(٣٦).

ونلتقى فى الملاحم القشتالية بنفس عادة زجر الطير وما ينبغى من تأويله، فنجد فى أسطورة «أمراء لارا»، طبقا لما ورد منظوما فى تاريخ طليطلة العام فى أحداث سنة ١٤٦٠م — أن الأمراء السبعة خرجوا فى اتجاه الأراضى العربية، فرأى «نونيو ساليدو» أولا غرابين يأتيان بحركات ظاهرة، ويحطان عليه، ثم لم يلبث أن رأى نسرا يقع على شجرة صنوبر جافة، ويمزق نفسه، وينتف ريشه ويسيل دمه، نسرا يصيح صيحات غريبة، رآه فى منتصف الطريق، وقد فهم الخادم العجوز المرافق للأمراء أنه ينذره بكارثة مرعبة.

والسيد أيضا فى ملحمته يرى وهو ماض إلى منفاه الطير الذى يبعث على التطير:

لقد همزوا الخيل وأطلقوا لأزمتها العنان
وهم خارجون من بيبار رأوا الغربان عن يمينهم
وهم على مشارف برغش كانت تحلق عن يسارهم،
فهز لها سيدى كتفيه، ونثر رأسه:

(٣٦) كتاب المغازى، الترجمة الملحقة بهذه الدراسة، صفحة ٥٧.

«الغنائم يا ألبار هانييث آخرجتنا من أرضنا
لكن — وبشرف عظيم — سوف نعود إلى قشتالة (٣٧).

وعندما يزوج السيد بنتيه فإن الطير تنبئه بالمستقبل:
وقالت الطير لمن تمنطق سيفه فى لحظة سعيدة
إن زواج بنتيه لن يمضى صافيا بلا مكدرات
وماذا يجدى، لقد تزوجتا فعلا، ووقت الندم قد فات (٣٨).

وبالرغم من أن الباحثين قد ترددوا فى نسبة هذه العادات إلى المصادر الألمانية القديمة أو العربية، إلا أن المحققين منهم قد أرجعوها إلى التأثير العربى، ويدعم ذلك ما نجده فى بعض المصادر العربية القديمة نفسها التى نبهت إلى ذلك، مثل المسعودى الذى يقول فى مروج الذهب:

«وهذه المعانى من قيافة وزجر وسانح وبارح وغير ذلك من خواص ما للعرب، وما تفردت به دون سائر الأمم فى الأغلب منها، وإن كانت الكهانة قد وجدت فى غيرها، فإن القيافة والزجر والتفاؤل والتطير ليس لغيرها فى الأغلب من الأمور، وليس هو موجودا فى سائر العرب، وإنما هو للخاص منها الفطن والمتدرب الظنن، وإن وجد ذلك فى بعض الأمم، كوجوده فى الإفرنجة وما جانسها ممن هنالك من الأمم فيمكنه أن يكون ذلك موروثا عن العرب، ومأخوذا منها فى سالف الدهر.. ويمكن أن تكون الإفرنجية، ومن وجد فيه ذلك من الأمم، أخذوه بعد ظهور الإسلام عمن جاورهم من أمم العرب، ممن سكن بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة» (٣٩).

ويبدو أن القول الفصل فى ذلك يرتبط بدلالة اليمين فى التقاليد العربية، وتطابق ما جاء فى الملاحم القشتالية معه مخالفا للتقاليد الأوروبية، فالطير إذا مضى إلى اليمين

(٣٧) انظر: ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها من قبل، صفحة ٢٠٧.

(٣٨) المصدر السابق، صفحة ٣٤٩.

(٣٩) انظر: المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على المتوفى عام ٣٤٦ هـ: مروج الذهب، الجزء الثانى، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٣ م. صفحة ١٦٥.

فهو سانح ، وهو مصدر للتفاؤل ، أما إذا مضى لليسار فهو بارح ومشئوم ، وهذا عكس الزجر الرومانى مثلا ؛ لأن اليسار فيه مدعاة للتفاؤل ، بينما اليمين مدعاة للتشاؤم .

فإذا راجعنا ملحمة السيد وجدنا أن السوانح يتفاءل بها ، مثلما حدث فى مشهد المنفى الذى عبرت فيه الغربان يمين السيد إلى يساره ، مما جعله يتفاءل ويبشر بذلك صاحبه ، وفى بعض الروايات النثرية يقترن ذلك بعبارة إن شاء الله المأخوذة حرفيا عن العربية . أما موقف النسر فى أسطورة «أمراء لارا» المشار إليها فلا يفسره سوى ما رأيناه فى كتاب المغازى من وصف للنسر وهو يمزق أجنحته وينتف ريشه ويقف فى منتصف الطريق ، مما لا يكاد يتصل بسبب بنظام الزجر الرومانى ولا يمكن تفسيره إلا على ضوء التراث العربى الموريسكى القار فى الوجدان الجماعى (٤٠) .

(٤٠) انظر : المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥ صفحة ١٢٣/١٣٠ .

بين الصيغ والقيم والبنية العامة:

توقف الدارسون أمام بعض الصيغ اللغوية فى الملاحم القشتالية والفرنسية، لمقارنتها بنظائرها فى التراث العربى والموريسكى، وانتهوا بذلك إلى تأكيد الربط ـ على المستوى اللغوى ـ بين الطرفين. وقد لفتت أنظارهم بعض التوافقات الدلالية الهامة بين العربية ولغة الملاحم الأوربية عامة، منها استعمال حرف النداء «يا» وحرف التأكيد «قد»، والأفعال المساعدة الدالة على الشروع مثل «أخذ يمضى» مما لانظير له فى اللغات الأوربية، ولكنه انتقل إلى لغة الملاحم نتيجة للتأثير العربى، وكذلك عبارة «الأرض الكبيرة» التى وجدناها منذ قليل عند «المسعودى» للإشارة إلى أوربا، وهى نفسها المستخدمة فى «أنشودة رولان» فى الأبيات ٦٠٠ و٨١٨ و٩٥٢.

ومن أمثلة هذا التوافق فى الصيغ، ما لاحظه النقاد من أن ملحمة السيد، مثلها فى ذلك مثل كتاب المغازى، تحفل بالحوار المباشر العفوى الذى يضفى على القص حيوية تعبيرية وحركة منسابة، فالحدث قد صيغ على شكل محاورات، حتى أن عدد أبيات الملحمة كلها ٣٧٣٠ بيتا منها ١٦٧٠ بيتا جاءت على شكل خطاب موجه لشخص أو أشخاص آخرين فى حوار؛ أى بنسبة عالية تصل إلى ٤٤,٥٪ من جملة الأبيات. ونفس طابع الحدث المعتمد على الحوار هو الغالب أيضا فى كتاب المغازى تأثرا بطبيعة القص وكتابة التاريخ فى اللغة العربية ذاتها.

وإذا كان الحب العذرى وروح الفروسية المتأصلان فى الأدب العربى قد استطاعا تخطى حدود جبال البرانس واختلطا بالحياة والأدب الفرنسيين، فلا غرو أن يصبغ أسلوب الحوار المميز للقص العربى الشعر الملحمى الفرنسى والإسبانى عبر

الاحتكاك الدائم فى الأندلس من ناحية وعمليات التأثر اللغوى إثر الحروب الصليبية من ناحية أخرى. على أن الملمح الأسلوبى المميز الذى يدمغ حوار الملاحم القشتالية بالطابع العربى يتمثل فيما نجده فى كتاب المغازى من الاعتماد على حرف النداء فى حوار الشخصيات، وهو ما ينعكس بدوره فى قرابة خمسين موضعا من ملحمة السيد التى يبدأ الحوار فيها على الطريقة الموريسكية بعبارة «يا» مثل «ياسيدى»، «يا قمبيطور»، «يا دون راكيل»، «يا دونيا خيمينا»، «يا ألبار هانييث» يا «ملك» «يافرسان»، يا «دون ألفونسو»، يا «سيدى الشريف» إلى غير ذلك. وهى طريقة غريبة على البنية اللغوية القشتالية، مما لا يفسر وجودها بهذه الكثرة سوى التأثير الذى يمارسه القص العربى ــ كما يتجلى فى كتاب المغازى ــ على الشاعر القشتالى (٤١).

وإذا كان الحوار المباشر وسيلة درامية لإدماج الجمهور فى الاهتمام بالحدث ومشاركته فيه، فإن كتاب المغازى كان يعتمد على صيغ الخطاب التى تجعل الشاعر يلتفت إلى المستمعين ليقدم لهم صورة حية لما يحكيه فى مثل قوله: «ومروا بصحراء ليس فيها إنس ولا جان، ولا تسمعون فيها سوى زئير الأسود» «ولا تسمعون إلا صهيل الجياد، وبرق الأسلحة ولمعان السيوف والرماح»، ويقوم تكرار صيغة خطاب الجمع بإبراز الوصف القصصى فى مثل «ولا ترون سوى الغبار والسيوف التى تلمح كالبرق خلاله، ولا ترون إلا الأعداء يتساقطون عن يمين وشمال». كما تتميز كثير من المشاهد بتكرار ضمير المخاطبين «أنتم» وذلك لاستحضار الصورة أيضا، وهذا نفس ما يجده الباحثون فى ملحمة السيد، فى مثل قوله:

وتحدث القنبيطور بما سأحكيه لكم

وأحيانا يتمثل هذاالنمط التكرارى أيضا فى كتاب المغازى بالاعتماد على كلمة «كثيرا» وتكراراها عدة مرات فى كل مشهد، مما نجد مقابلا له فى ملحمة السيد فى مثل قوله:

نبال كثيرة وعديدة تعلو وتهبط

---

(٤١) انظر: المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥ صفحة ١٤٢/١٤٣.

وسهام كثيرة محطمة دون أقواسها
وأعلام عديدة بيضاء احمر لونها من الدم
وجياد كثيرة كريمة دون فرسانها ولت هاربة(٤٢).

هذه المجموعات المكررة تتراءى أيضا فى الملاحم الفرنسية، كما بحثها المقارنون فى نماذج محددة، وهى تتبع الأسلوب العربى فى تكرار صيغ الخطاب والنداء والتأكيد أكثر مما تتبع وسائل التعبير الخاصة باللغات الأوربية، مما جعلهم يعدونها من أبرز ملامح التأثير الأسلوبى العربى فى الملاحم الأوربية.

ومن الطريف أن بعض الكلمات قد لفتت أنظار الباحثين فى هذا الصدد أكثر من غيرها، وذلك لما لقيته من تطور دلالى واضح عند انتقالها من العربية إلى القشتالية، مثل كلمة «nuevo» بمعنى «جديد» فى القشتالية، وقد انتقلت من الدلالة على الشىء الجديد أو الأمر الشهير المستحدث إلى معنى مزدوج متأثر بالدلالة العربية لكلمة «حديث» التى تعنى أحد أمرين: فهى إما أن تكون صفة مثل «هذا ثوب حديث الصنع» وإما أن تكون اسما مثل «سمعت حديثك» أى أخبارك وما ترويه من حكايات، وقد اصطبغت الكلمة القشتالية بنفس هذه الصبغة العربية؛ فاضيف إليها المعنى الثانى الدال على الروايات والأخبار والحديث، بعد أن كانت قاصرة على المعنى الوصفى الأول الذى يشير إلى المستحدث المستجد، وليس هناك تفسير لهذا التحول الدلالى «فيلولوچيا» بدون النظر إلى الاستعمال العربى للكلمة فى نصوص الموريسكيين(٤٣).

ومثال ذلك أيضا كلمة «وشاة» التى ترد فى ملحمة السيد فى المشهد التالى:
«واقتربت دنيا خيمينا، وأمام القنبيطور جثت على ركبتيها
تبكى غزيرة الدمع، تريد تقبيل يديه:

---

(٤٢) انظر: ملحمة السيد، المصدر السابق، صفحة ٢٤٦.

(٤٣) انظر: المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥ صفحة ١٣٣/١٣٥/وكذلك كتاب أميريكو كاسترو المشار إليه فى هامش رقم ١ صفحة ٨٠/٨١.

شكرا قنبيطور، يا من ولدت فى لحظة سعيدة
إن دسائس الوشاة المخربين أخرجتك من بلدك منفيا (٤٤).

فكلمة «وشى mesturar» التى تظهر فى هذا المشهد فى الإسبانية القديمة ليست إلا نسخا دلاليا عن العربية، لأنها إن كانت تعنى السعى بالسوء فإن هذا هو المظهر الخارجى لها، أما الداخلى فيظهر فى صيغة «وشى» بمعنى رقش القماش وزخرفه، وقد تلبس الفعل الإسبانى بنفس هذه الدلالة العربية فأصبح يشير إلى الأمرين معا؛ أى إلى الرقش بالألوان وتحريف سلوك شخص ما عن الحقيقة للإيقاع به والوشاية عليه. وهذا يعنى أن الأدب العربى قد جعل الواشى نموذجا معروفا فى شخصياته الشعرية والقصصية، وبرز ذلك فى كتاب المغازى فى بعض حكاياته، ثم انتقل منه إلى ملحمة السيد وإلى بنية اللغة الإسبانية ذاتها، فأصبحت الكلمة بما تمثله من تطور دلالى وسيلة لعبور النموذج الإنسانى وما يمثله من قيم إنسانية واجتماعية.

وكذلك فى قصيدة السيد مثل هذه العبارة:
أصبح سيدى فى أرض مون بريال

فيتساءل بدهشة باحث إسبانى ضليع: كيف يمكن لشخص أن يصبح؟ أى يشارك بطريقة ما فى ظاهرة طبيعية غريبة عنه، تحدث خارجة مستقلة عن شخصه؛ إذ لا توجد فى اللاتينية ولا فى اللغات الرومانية الأخرى إمكانية هذا التركيب اللغوى، ونفس الشىء يحدث مع الفعل «أمسى» إذا اسند إلى شخص، فأصبح وأمسى فى الاستعمال العربى لها قد طعما اللهجات الرومانية بصيغ تطوى بداخلها حياة عربية مكنونة؛ حيث أنه بدلا من الاكتفاء بإدراك الظاهرة الطبيعية، تقوم روح الإنسان بتحويل المدرك إلى إبداع ذاتى؛ أى إلى شىء يجرى فى الداخل (٤٥).

وإذا كان البطل الملحمى يجسم عادة مجموعة من المثل التى تسيطر على المشاعر، وتستجيب لقيم المستمعين فإن أبطال كتاب المغازى لا يكتسبون قيمتهم من أصل

(٤٤) انظر: ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها، صفحة ٢٢١.
(٤٥) انظر: المصدر المشار إليه فى هامش رقم ١ صفحة ٧٢.

ينتمى إلى ما فوق الطبيعة، أو يرتبط بأعراق ملكية أو امبراطورية كما يحدث فى الملاحم الأوربية، فنموذجيته تكمن على وجه التحديد فى صفاته الإنسانية، ويدرك شأو الأبطال بقدر ما يتغلب على المصاعب التى تعترضه، فعظمة البطل لا تعتمد على صفات ثابتة مقررة مسبقا وبعيدة عن إرادته، ولكنها تكمن فى قيمته باعتباره «ابن أفعاله»، ففضائله تزداد بقدر ما يتضح فيها من الخواص الإنسانية، وهيكل قيمه ثمرة لجهده الشخصى وسلوكه البطولى، مما يجعله مثالا حيا للآخرين.

وفى ملحمة السيد تنعكس أيضا هذه المثل الديموقراطية؛ إذ أن السيد قد التمس فى عامة الناس العون الضرورى وشعلة الحماس؛ بحث بروح أخوية وسط هؤلاء المجهولين عمن يصحبه، وأظهر محبته للمستضعفين والمتواضعين برفق فائق وأدب جم. كما يتضح فى هذه الملحمة أيضا الصراع بين طبقتين: إحداهما مغترة بنفسها والأخرى ناشئة تكتسب أرضا جديدة كل يوم بالرغم من فقرها، مما يجعلها تشرف الملوك، فالسيد من أوساط الأشراف، وليس من نبلاء الدرجة الأولى، تكرمه أعماله، لا أصله وحسبه، وعندما يمضى إلى المنفى فإنه يصحب معه مجموعة من الرجال البسطاء ويغزو بهم دنيا النبل والمجد والثراء، فتقدم لنا ملحمة السيد، مثلها فى ذلك مثل كتاب المغازى، بطلا يصنع بأفعاله وجهوده هالة عظمته، وإن كان بالإضافة إلى ذلك «قد ولد فى لحظة سعيدة»، مما يمثل ملمحا خاصا متفردا فى البطولة الملحمية الأوربية.

ويبدو من كتاب المغازى حرص الأبطال على جملة من القيم الإنسانية والأخلاقية الرفيعة، وفى مقدمتها التسامح والرحمة والعفو عند المقدرة، فأبطاله لا يأكل قلوبهم الحقد وحب الانتقام، بل يتسمون بخلق القرآن ويحرصون عليه، وقد اتضح هذا الروح بمقابلته بما يتجلى فى الوقائع التاريخية خلال بعض المراحل من تعصب الأوربيين الأحمق، فيما أطلق عليه أحد أعلام الدارسين منهم — وهو «مينينديث بيدال» — عصر المسيحية البربرية — التى مارست التميز العنصرى الرهيب فى إسبانيا، وكان من اللافت فى هذا السياق التاريخى والأدبى أن يتسم بطل الملحمة

الإسبانية «السيد» بالخصائص الإسلامية على وجه التحديد، من تسامح ورفق وإنسانية مع المغلوبين الذين تعلم منهم، فى مثل قوله :

عندما أراد سيدى أن يرحل عن الحصن
أخذ المسلمون والمسلمات يشكون :
أذاهب أنت يا سيدى ، إذن تذهب معك
صلواتنا ، تسبقك
لقد كنت معنا كريما ونبيلا ونحن لك من الشاكرين (٤٦) .

هذا الثناء الذى يتلقاه من المسلمين والمسلمات كان نتيجة لإتباعه مجموعة من القواعد الأخلاقية الشبيهة بما فى الإسلام من تعايش بالعدل ، واحترام للدين والقوانين ، ومراعاة لحقوق الملكية ، والرأفة بالضعفاء المغلوبين على أمرهم .

وعلى النقيض من هذا الموقف نجد «كارلو ماجنو» فى «أنشودة رولان» عندما ينتصر فى معركة أو يفتح حصنا يجبر أهله من المسلمين على الردة بالسيف والحديد والنار :

الامبراطور فرح وسعيد
غزا قرطبة وحطم أسوارها وهدم بروجها
......
لم يبق فى المدينة أحد إلا أدركه الموت
أو صار مسيحيا بالقوة .

ويبدو هذا الموقف المتعصب على أشده فى الملحمة بعد فتحه لسرقسطة ، إذ يمارس عندئذ قوانينه الوحشية فى الاغتصاب والنهب والقتل :

الامبراطور فتح سرقسطة
دفع بألف فرنسى يفتشون المدينة
والمعابد اليهودية والإسلامية

---

(٤٦) انظر : ملحمة السيد ، الترجمة المشار إليها ، صفحة ٢٥٣ .

يحطمون الصور والتماثيل بفؤوس ومقامع حديدية
لم يبقوا على شيء من الزيف والنكر
فإذا اعترض أحد الآن طريق كارلوس
حرقه أو سفك دمه .
وأحال مائة ألف إلى المسيحية عنوة
إلا الملكة فقد حملها أسيرة إلى فرنسا
فالملك يريد لها أن تصبأ طوعا (٤٧) .

.. فبادئ التعامل الإسلامي وقيمه التي تجلت في كتاب المغازي وغيره من القصص العربي قد نفذت بدورها إلى صميم الملحمة القشتالية ، وصبغت الأبطال بصبغة تختلف عما نراه في أبطال الملاحم والوقائع التاريخية في أوربا . ومن المفارقات الأليمة أن يخضع الموريسكيون في واقعهم التاريخي لهذه القسوة البربرية ، ولا تطبق قيمهم عليهم سوى في مجال الأدب الذي يعلو بالمثاليات ، ويحقق في الفن ما عجز عن تحقيقه في الواقع المعاش.

فإذا عدنا إلى مستويات البنية الملحمية وجدنا أن النقاد الإسبان قد اجتهدوا في تحليل أوزان الملاحم القشتالية ؛ خاصة في نماذجها الأساسية الثلاثة ؛ وهي «ملحمة السيد» و«ملحمة رودريجو» و«أمراء لارا» ، لأنها لا تخضع لما هو معروف عن البنية العروضية للشعر القشتالي والأوربي عامة ، فلا تحافظ على عدد المقاطع والأقدام ، مما جعل حجة هذا النقد «مينينديث بيدال» يعقب على هذه القضية بقوله : «إن الشاعر القشتالي الجوال في القرن الثاني عشر، ومن تلقوا عنه وأعادوا صياغة شعره في القرن الثالث عشر لم يؤسسوا نظمهم على القواعد المعتادة لعدد

---

(٤٧) انظر: أنشودة رولان ، الترجمة الإسبانية المشار إليها من قبل ، صفحة ١٣١ ، وكتاب جاليس فونيتيس المشار إليه في هامش رقم ٥ صفحة ١٥٧ .

المقاطع فى الأشطار الشعرية، بل اتبعوا إجراءات مخالفة للأوزان المطردة، ولا شك أن نموذجهم كان هو الشعر الشعبى» (٤٨).

ومعنى هذا أن الملاحم القشتالية القديمة لا تسير وفقا لعروض الشعر الإوربى، بل هى مخالفة له، فهى تاريخ منظوم فى أشطار لم تعهد ولم تستمر فى الشعر القشتالى والأوربى، ويرى الباحثون أن هذه البنية العروضية للملاحم القتشالية القديمة أقرب ما تكون إلى نموذج النثر العربى المسجوع، وقد درسوا علاقته الوثيقة بالرجز المختلف عن القصيدة، إلا أن الخاصية الأساسية فى هذا النثر المسجوع أنه لا يخضع لعدد محدد من الوحدات الموسيقية الصارمة، بل يتميز بقدر من الحرية فى تكوينه الداخلى، مقابل الالتزام المطرد بالقافية، وهى نفس الخواص المتمثلة فى لغة الملاحم القشتالية القديمة. ويبدو من القراءة المتأنية للترجمة الإسبانية لكتاب المغازى أن أصله العربى الذى يتراءى من خلال هذه الترجمة كان يخضع لهذا النموذج المسجوع، ويحفل بالعناصر الشعرية التى ما تزال تبدو معالمها عبر الترجمة، مما يجعل هؤلاء الباحثين يميلون إلى إعتبار البنية العروضية للملاحم القشتالية مظهرا آخر من مظاهر تأثير كتاب المغازى وما ضاهاه فيها (٤٩).

وفيما يتعلق بالبنية الداخلية للملحمة القتشالية فإن أبرز ما لوحظ عليها أنها توازى عن قرب ما عرف من كتاب المغازى، وعن بقية القصص الملحمى العربى، من طابع واقعى تاريخى، بالرغم مما تحفل به فى كثير من الأحيان من العناصر الخيالية والأسطورية التى تمجد البطولة؛ إلا أنها عناصر ضرورية لصياغة الأحداث شعرا، ولا يمكن أن تطغى على روح النص، أو تحجب غايته الأساسية فى حكاية الأحداث التاريخية، فنحن إزاءها أمام وقائع محددة تمنح هيكلا قصصيا للأسطورة الملحمية، مما يبعد بها كثيرا عن الأحداث الأسطورية المجافية للواقع التاريخى والمغرقة فى «الفانتازيا» التى تحفل بها الملاحم الفرنسية والأنجلو ساكسونية والجرمانية، مثل «أنشودة رولان» و«قصيدة الملك أرتورو» وغيرها.

---

(٤٨) انظر: **Menedez Pidal, Ramon. Contar Mio Cid. Madrid 1957. pag 84.**

(٤٩) انظر: المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥، صفحة ١٤٧/ ١٥٠.

ولعل هذا الرابط الواقعى التاريخى الذى يصل بين كتاب المغازى ــ باعتباره الصياغة المتأخرة للأقاصيص الملحمية العربية ــ والملحمة القشتالية، كان نتيجة للتعايش الحميم بين الشعبين؛ فكتاب المغازى ــ كما وضحنا من قبل ــ يشير إلى مجموعة من المعارك والحروب التى حدثت بالفعل فى صدر الإسلام مثل بدر وأحد والخندق وحنين واليرموك، ويحفل بالتفاصيل التاريخية الدقيقة مثل أسماء المواقع والأماكن والشخصيات والقبائل العربية، إذ يمكن للباحثين تحقيق أصلها التاريخى فى جملتها مهما كانت أدوارها ثانوية. ولعل أبرز ما فى ملحمة المغازى الموريسكية ما توليه من أهمية لشخصية البطل وفضائله الاجتماعية كما ذكرنا من قبل، فليس شخصا أسطوريا، بل إنسانى واقعى وإن كان ذا نزوع مثالى، وحياته ليست صراعا دائما ضد ما حوله، بل تتميز بالثنائية التى تجمع بين البطولة والتواضع. بين المجد والخضوع، بين الفقر والغنى، فهذا التضاد هو الذى يمثل القانون الجمالى للقص العربى الشعرى، وهذا ما يميز بدوره الملاحم القشتالية التى شربت من معينه واصطبغت بطابعه (٥٠).

ومن ناحية أخرى فإن بنية ملحمة السيد فى أسلوبها الروائى تخضع للنمط الطولى الخطى، لأنها تتمثل فى حكاية تسير وفقا للمنطق الزمنى التاريخى، لأحداث شهيرة، مرتبطة بأمكنة محددة وقعت للبطل، فهى حكاية للحياة البطولية ووقائعها، دون رابط داخلى بين الأحداث سوى شخصية البطل، ومن هذا المنظور فإن العلاقة بين الوقائع ضعيفة ولا تحقق وحدة جمالية، إذ أنها تنساب فى خط طولى تستوى فيه العظائم بتوافه الأمور، فليس هناك ترتيب فى مستويات أهمية الأحداث، أما «أنشودة رولان» فهى على العكس من ذلك لا تمضى فى خط زمنى مستقيم، ولا تنهض على تتابع الزمان والمكان، بل إن محورها هو إثارة إعجاب الجمهور ببطولة «رولان» وهول هزيمته، فتبدأ بخيانة «جانيلون» التى تمهد لكارثة البطل وهى ذروة التوتر الروائى الذى يبدأ فى التراخى المنطقى بانتقام «كارلو ماجنو» وإنزال العقاب بالخائن، ففى

(٥٠) انظر: المصدر السابق، صفحة ١٥٣/١٥٦.

«أنشودة رولان» المهم هو حدث فائق فى حياة البطل، مما لايتسع معه المجال للأمور العادية الأليفة، ومما يجعل البنية الجمالية للملحمة الفرنسية تقوم على تعقد الأحداث بنظام مركب يقود إلى ذروة الموقف الدرامى ليبرره ويحله، أما فى الملحمة القشتالية فإنها تختتم بموت السيد هكذا:

لقد ترك سيدى، سيد بلنسية، هذا العالم
أيام عيد الفصح، غفر له المسيح
وغفر لنا جميعا، مخطئن وصالحين.
تلك هى قصة سيدى القنبيطور
وعند هذا الحد، نكون قد أتينا عليها، وبلغنا نهايتها (٥١).

بينما تستمر «أنشودة رولان» بعد موته ألفا وخمسمائة بيت من الشعر، أى قرابة النصف. فنحن إذن أمام جنسين أدبيين، أحدهما «ملحمة رولان» الأوربية ذات الصلة الحميمة بالملاحم الجرمانية مهما احتوت من عناصر عربية، و«قصيدة السيد» ذات العلاقة الوثقى بأسلوب الإخبار العربى، خاصة كما يتجلى فى كتاب المغازى من حكاية للأحداث، مرتبطة بالزمان والمكان ومتابعة البطل، وتتبع بقية الملاحم الإسبانية هذاالنموذج العربى، مما يعد خصيصة مميزة لها، تزيد من إنسانيتها وارتباطها بالحياة الحميمة للأبطال، ويضاعف من روحها الشعرى الذى لايعتمد على الأساطير الخارقة بقدر مايعمد إلى تكثيف البطولة حتى تبلغ درجة الأسطورة (٥٢).

ونتيجة لكل هذه الملامح مجتمعة ينتهى الباحثون المقارنون من المستشرقين الإسبان خصوصا إلى أن اللوحة الاجتماعية والجمالية التى يقدمها الشعر البطولى الإسبانى فى العصور الوسطى تبرز عددا هائلا من المشابه الأكيدة مع الشعر القصصى والعناصر الملحمية العربية التى ترتكز على الثقافة الإسلامية خاصة فى الأندلس، ويدعم هذا الاحتمال تأكيد التأثير العربى فى الفكر الفلسفى والعلمى والشعرى الأوربى فى

---

(٥١) ملحمه السيد، الترجمة المذكورة، صفحة ٤٠٦.

(٥٢) المصدر المشار إليه فى هامش رقم ٥ صفحة ١٤١.

نفس هذه المرحلة التاريخية ، وإن كان إثبات التأثير فى العلوم الإنسانية لا يصل عادة بسهولة إلى درجة الجزم واليقين الكامل ، إلا أنه مما يجافى روح العلم أن تقوم كل تلك القرائن على الاتصال ، ويتم نمو الظواهر بشكل متشابه لدرجة التطابق فى بعض الأحيان ، ثم يصر البعض على إثبات القطيعة التامة ونفى احتمالات التأثير فيما بينها ، مما يعد تبنيًا للوجه السلبى الخاسر فى الدراسات المقارنة .، وخضوعا لنزعة بعض الأوربيين الحقودين على الثقافة الإسلامية ، ممن ينكرون دورها الحضارى فى التاريخ الإنسانى العام .

ولا ينبغى من ناحية ثانية أن تصرفنا وجوه الشبه عن تأمل مظاهر الاختلاف بين التراثين ، خاصة ما يتعلق بطريقة توظيف العناصر المتناثرة فى بنية فنية جديدة ، لأن طمس المعالم المميزة لا يفيد البحث المقارن ولا يخصب ميدانه ، بل علينا أن ننتقل بعد ذلك إلى سؤال آخر متصل بطبيعة تطور الأدب العربى ، وهو : لماذا أدت هذه العناصر الملحمية فى التراث الشعبى الموريسكى والأندلسى من قبله إلى نمو الخواص الملحمية فى الأدب القشتالى ولم تؤد إلى مثل ذلك فى التراث العربى ذاته ؟ . على أن النتيجة الموثوق بها والتى يطمئن إليها الباحثون بعد كل ذلك هى أن ملاحم البطولة قد نشأت فى قشتالة — وسط إسبانيا — مستلهمة أناشيد البطولة الجرمانية ، ولكنها اصطبغت بطابع القصص الملحمى العربى الذى كان حاسما فى تشكيل ملامحها الجمالية وقيمها الأخلاقية ، والذى يدل على تعرف مبدعيها الوثيق بأنماط الحياة العربية وأنساق تقاليدها وقيمها ، ودلالات صيغها وأشكالها الشعرية ، مما نجم عنه لون منه من الملاحم «المستعربة» التى يلتحم فيها النسيج العربى الموريسكى بالعناصر الأصيلة فى الإبداع المنتمى إلى الثقافة اللاتينية الأوربية ، مما يؤكد حقيقة بادهة فى الدراسة المقارنة ، وهو أن تلاقى الثقافات يدعم أصالتها ويخصب رؤيتها ، ويتيح لها آفاقا من النمو والتطور لا يمكن أن تتم بمعزل عن الحركة الأدبية والفكرية للآداب الحية ، وأن العزلة لا تعنى سوى الموت والضمور ، ولعل عزلة الأدب العربى فى العصور المملوكية والعثمانية المتأخرة هى التى حرمته — فى مستواه الفصيح فحسب — من الإفادة من تطور الأجناس الأدبية لدى الشعوب الأخرى ، ومن الإفادة

من نفس عناصره التى ألقحت غيره من الآداب، وأثمرت فيها على مر التاريخ المتواصل الحى نتائج يعتز بها تاريخ الثقافة الإنسانية، ويبذل علماؤه الجهد فى تحقيقها والتدليل على عمق أبعادها، أما أدبنا فى مستواه الشعبى الموار بالحركة فهو الذى استطاع خلال تلك العصور نفسها أن يحتفظ بجذوة الإبداع فى سيره وملاحمه وأغانيه، وأن يقدم فيها صورا للإنسان وهو يعيد صياغة تاريخه الحضارى مجسدا أبرز قيمه الفاعلة، وأبهج خيالاته الخلاقة.

ولعل النص الذى نعيده — مرة أخرى — إلى شرايين لغته العربية، وهو كتاب المغازى الموريسكى الذى أسفرت عن جلائه الدراسات الإسبانية الحديثة وأولته تلك الأهمية الكبرى فى الدراسات المقارنة، أن يكون مجرد نموذج لهذه الإمكانات الخلاقة فى أدبنا الشعبى عندما تشتبك فى حركة جدلية بالموروث الملحمى العالمى فتسهم فى صوغ بعض أنماطه بقدر ما تستمد منه بنيتها الملحمية الجديدة حينئذ، وإن كانت مكرورة وشائعة فى غيرها من السير الشعبية العربية.

بسم الله الرحمن الرحيم

ا شتة اشتبتلر د الاصحيحة النش د امك

شنذ لنبي محمد صلى الله عليه وسلم

راكنش محمد ابن اسحق رضي الله عنه

كالدش لا ركاشرنة لما نشبار د الله صلى

الله عليه وسلم د البتلة المصطلق ايد

بانشا د ه ايار كاابينة موارش انبار اشا كتبد

كيتم ناشم امترنه شا تانش انبار اش اكتبرنه

شا تانش انبار اشه اجواة نالكتاربه ايانلشمد ا

نشه عقبة ابن معيط ملد على الله ايار المش

ابراسيانا د الما نشبار د الله صلى الله عليه

وسلم اجواكالد ت اشكيرة انلكر د النبي

صلى الله عليه وسلم بيترنر الله لا برش شخر

دش كالمر كاشرنة الما نشبار د الله صلى الله

عليه وسلم حما اكالد بتلة ا تريارنة النشاد اللنش

كتبش ابد ة نتار النشد اشمه العباس اشنر

منش لغد شه شنكت انشة نسنغ د النش دشه

ءازا ... وانتي داين الحشب
ءانبي عليه السلام يا عمي ءان ءادكا ما ءاتا نتصد لفراته
كاهد ت دانتا راشتر كا العمي ءانشكد ءالبدرا
شونتد ءاد عمر ابن الخطاب رضي الله
عنه ءانتجبرت دالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ادنكا
يا رسول الله يكيا راشتكا ءاد اشليغاشتد همتد داشش
يغرتشد دشلتبي صلى الله عليه وسلم ءاشتتاكاد
ءانتد لغرد كايتتا الله تبلتتد ءانتا ريتجراكشر
دكيد كاتانغ جبريل عليه السلام ءانتشيتاد ءار
كاتبت جبريل عليه السلام ادشد يا محمد تمتانو
تاد لسلام ادزاتد كاد غشد ءاكايتد ءالنبي دد
ءالشكا ءاشتد ءانتد بكار دالشكيتد ءالتركا
ليد النبي عليه السلام ءاشتد ءاماتيد دشد يا عمي وءاشتا
مثليرد ءاسا رشد شلبد دالخواعد ءادار ما نتبا راشتد
داموء دشد ءاكلتكا دار حرامتيا راشتد دانديشد
يا عمي كنلتشد يبانتد ءاشا تانتد ءانتمتد دالرادا
تبلتد ءاكالتشكا ءاشد ءانشكما ندد ءانبوءدا ودا الحمد
ءالقصيل لكوركا تلبشد كنلتشدا فرنيشر ءاد كاشت

... بواش جر نيّا رنـ حليمد ري احمضر
... الـ الاغـ لمتوا ب آد بعبيد ا كيمر
ابو عبيد بن جمضر اقلـ الـ آخالد الشكا
ابن كنالـ د الشـ بمسلماش ايبينا د ند شلش
كيتناش ن د اسطـ د الشـ ا نا معش بر ند شر
تشبر تاش ابر ند ش كالشر مياش ابن
بر آشام ادا بواش بوارن ندش جند ش
ا تدشام د و اند مشو د آشام ايشوا شتا شد الشر
مسلماش امند شر ا ابو عبيد ندش لشا لعشر
الشغنر سيشر اشكـ د الـ الجلش ايا شكيريـ
ابو عبيد آد امير المومنين عمر ابن الخطاب آتيـ عمر
امير المومنين الشام شبرات آكونش يلو الله
لوميانش اجعر شلشيون شبرا النبي محمد صلعم
شابنش كلم آشا نشلمش انل تيبكر ايشا نش
ماهان الاروما ن شارك د انشر شر انك يبارن
لنمسلماش تنغر ند اكلش انما ر دا جانتا
بركا ا رن ا لجيانتشمل ايشا شانت مل

كوانتس لش مسلماش اي بنسيانش الله ...
... بر شبيد ذ اغريس كاش جركاش...
نش ايمتا مش د النش سيانس بل اي اسنك مل سيا...
تنش مش ايكيتا مش د الش كوانتس مل
ايجوارنس موارنش د الش مسلماش كونتر مل
ايمش كاشل الله تعالى الش كنلبوانس باشتر اليه
جوامورنس ما هان لعنة الله سا وكدا د مشق
ايجر لاش تعالى النس الحال ابلج عد النسلش انتريد
كاشاليم اليفذا ايجونر نشا د النس اليه تعالى فدش
هجنتر كا نشا باشكنس شنالله اكونتس
نشكوارنس موارنش انبلاش ابر نكلش ع الش
شنلش بر مارش ارنس نباتس مل اشند د الله
تعالى انس شانر الاروشش العشر تدشس ابر ا اجنند ا
هاجم انتشم ايا شكد الكنس ايا شبار نتبر
د ده هيانس ا السلام شبر اتس ايا الرحمة د الله
اشا البركا اد بلاغ الكرنتا اشل كنتشل اد
بلد ا خصيبر ان اليمان اديبع الكرنتا الاغم

(ترجمة عربية لنص)

كتاب المغازى

معركة الأصيد وأهل مكة

بسم الله الرحمن الرحيم، هذه معركة الأصيد وأهل مكة مع النبى محمد ﷺ.

روى عن محمد بن إسحاق رضى الله عنه أنه قال:

حينما عاد رسول الله ﷺ من غزوة المصطلق معانا ومنتصراً، بعد أن مات فيها رجال ووقع فى الأسر آخرون، إذ قتلوا سبعين رجلاً وأسروا سبعين، وكان من بين الأسرى عقبة بن معيط ـ لعنه الله ـ أشد أعداء رسول الله ﷺ، فهو الذى بصق على وجه النبى ﷺ فأصاب الله وجهه بالجذام.

قال الراوى:

حينما عاد رسول الله ﷺ من هذه الغزوة وجاءوا أمامه بالأسرى، ورأى بينهم عمه العباس، وقد شدت على يديه الأغلال عند طرفيها قال النبى عليه السلام:

ـ يا عمى، [إنى ليؤذينى] ما يؤذى نفسك، فالعم كالأب.

فلما سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلمات النبى محمد ﷺ قال له:

ـ يا رسول الله، أتريد أن أفك يديه من أغلالها، قال النبى ﷺ:

ابق فى مكانك، فالله يعلم قصدك، بيد أنى لن أفعل شيئاً من ذلك حتى يأتى جبريل عليه السلام.

ولم تمض ساعة حتى جاء جبريل عليه السلام وقال :

ــ يا محمد ، إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك : اتل «يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى . . » (١) .

ولما فرغ النبى عليه السلام من قراءة الآية قال :

ــ يا عمى ، اسلم تسلم من النار وتفدى نفسك منى قال :

وبم أفدى نفسى منك ؟ .

قال :

ــ يا عمى ، بمائة وسبعين أوقية من الذهب والفضة ، تلك التى أودعتها عند أم الفضل حينما خرجت مع قريش لتلك المعركة .

فقال له :

ــ ومن ذا أخبرك بهذا يا ابن أخى ؟

قال له :

ــ أخبرنى به علام الغيوب ، المطلع على الأسرار.

قال :

يا ابن أخى ، أيعلم ربك الأسرار؟

قال له :

ــ أجل يا عمى ، وله اليد الطولى.

فقال :

ــ أشهد أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . فأسلم وحسن إسلامه . وأسلم أخوه عقيل بن طالب . (لعله ابن عبدالمطلب) .

ثم التفت رسول الله ورأى بينهم عقبة بن معيط لعنه الله فقال :

ــ يا عقبة ، اسلم تعصم نفسك من النار و تفديها منى قال :

---

(١) الآية رقم ٧٠ من سورة الأنفال .

ـــ يا محمد، ألا تطلب منى ذهباً أو فضة ؟

قال :

ـــ لا ، ولكن أن تقول «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» فتعصم نفسك بها من القصاص .

قال عقبة :

ـــ فلو قلتها ماذا تفعل بى ؟

قال :

ـــ لو قلتها لحق لك مايحق لى ، ولو لم تقلها لحق عليك مايحق على أعدائى .

قال :

ـــ واللات والعزى ، لو قطعتنى إرباً بالمقص ، أو حذذتنى بالمنشار، أو حملتنى جبال تهامة لما قلتها فقال النبى :

ـــ سأقطع رأسك الآن إذن يا عدو الله .

قال :

ـــ لو قطعت رأسى ، فمن ذا للات والعزى ، والمير والتقلى ، والطفلات الصغرى بعدى يا محمد؟

قال :

ـــ يا عدو الله ، النار مأواك ومأواهم .

وعند هذا الكلام ، أشار النبى عليه السلام إلى على بن أبى طالب وقال له :

ـــ يا على ، اقطع رأس عدو الله .

عندئذ قال عدو الله :

ـــ يا محمد، إن كان لابد من الموت ، فامر أحداً آخر يقتلنى غير على .

قال محمد رسول الله :

ـــ ولم ذاك يا عدو الله ؟

قال عقبة :

ــ سأقولها لك، لأنه لا شيء أبغض لدى من على ومنك.

قال رسول الله ﷺ:

ــ ولأننى لديك هكذا فلن يقطع رأسك سوى على! فامتشق على حسامه ذا الفقار وهزه فى يديه، وأمسك بمقبضه وأنشد مقطوعة من الشعر ثم قال:

ــ سأقطع بسيفى رأس الكافر.

وجذها من كتفيه فسارعت روحه إلى النار. وعندما وصل الخبر إلى مكة، لبنت له يقال لها هند، عقرت ناقتها، واصطبغت كلها بالدم، ومضت فى مكة من شارع إلى شارع تبكى وتولول وتصرخ وتنوح فأبكت جميع الناس، فأتى إليها شيوخ بنى مخزوم وقالوا لها:

ــ فيم كل هذا يا هند؟

قالت:

ــ وكيف لا أبكى، وماذا تظنون فيمن قطعوا رأس أبيه؟ ودخل عندها خلق كثير، فنظمت مقطوعات من الشعر، وكتبتها فى رسالة، وأعطتها لرجل من قريش.

فلما قرأوا هذه الأبيات، ضجت الأصوات والاستغاثات، وارتفع النحيب، وبلغ الغيظ أشده، وبعثوا برسالة إلى محمد ﷺ إلى مدينة يثرب. فلما قرأها النبى عليه السلام دمعت عيناه، ثم قال:

ــ يا نساء المهاجرين والأنصار، انظرن هل فيكن من تقول الشعر.

قالت أم كلثوم بنت عبد الله بن رواحة:

سأرد عليها يا رسول الله.

وأخذت ورقا ومحبرة، وكتبت تسع مقطوعات شعرية إلى مكة، ومضى الرسول الذى يحملها إلى بنى مخزوم، فلما قرأوا الخطاب فى مكة عظم غيظهم من النبى عليه السلام، واجتمع ستة آلاف من الفرسان ليس فيهم من يقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

فلما اجتمعوا كلهم وعقدوا العزم على حرب محمد، أتاهم فارس مستوفز مدجج

بالسلاح، يسمى الأصيد بن سلمى المخزومى يحسب وحده على جواده بألفين من الفرسان وقال :

ــ أيها الفرسان، ماذا حدث لكم؟ ولماذا اجتمعتم هنا تنتحبون؟ أهكذا تكونون من دين لا تعرفونه ، أو عدو تهابونه ؟

قالوا له :

ــ أيها الفارس الشريف، لقد اجتمعنا لحرب محمد بن عبدالله. وأخبروه بما حدث من البداية إلى النهاية.

فقال لهم :

ياله من أمر عجاب! واللات والعزى لأن أقتل محمداً لهو عندى مثل ذبح حمل من شياهى، وإن كان عليكم أن تعينونى على هذا الأمر ببعض الرجال.

قالوا :

واللات والعزى لئن فعلت ذلك، وأتيت بمحمد أسيراً أو قتيلاً لجئت بفرح عظيم، ولنصبناك علينا ملكاً فى كل ما تبغى منا وتريد.

قال (الراوى) فلما سمع الأصيد ذلك أخذته العزة وانتفخ من الزهو، فأكل من اللحم حتى شبع، وعب من الخمر حتى ثمل، فاحمرت عيناه، وانتفخت أوداجه وارتدى حلتين، إحداهما صفراء والأخرى دهماء، وانتطق سيفين، وأمسك برمحين، ووضع علي رأسه خوذة يضاهى بريقها شعاع الشمس، وامتطى صهوة جواده، ونادى بأعلى صوته، فأجابته قبيلة بنى فزار العربية، وعلى مقدمتها قائد يسمى طارق، ينشد الأشعار ويقول :

ــ نحن بنو فزار، أقوى من وقع الأحجار.

ثم نادى بأعلى صوته، فأجابته قبيلة بنى عتاب العربية فى خمسة آلاف فارس، وعلى رأسهم قائد من كبار القواد ينشد الشعر ويقول :

ــ نحن بنو عتاب، مثل لوامع الشهاب.

ثم نادى بأعلى صوته، فأجابه خمسة آلاف من فرسان العرب من قبيلة بنى زهرة، وعلى رأسهم قائد من سادتهم.

قال (الراوى): ثم عد الأصيد جيشه، فوجده عشرين ألف فارس، فاستخفه فرح عظيم، وأمر بأن تتحرك القوات، فأخذت تغذ السير دون توقف، يوماً بعد يوم، حتى أصبح بينها وبين مدينة يثرب مسيرة يوم واحد.

ولم يكن النبى عليه السلام يعلم شيئاً عن هذا الأمر، فنزل جبريل عليه السلام وقال له:

ــ يا محمد، إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك إن أهل مكة قد جاءوا إليك فى عشرين ألف فارس، عليهم قائد يسمى الأصيد بن سلمى المخزومى، وقد جاءوا ليقتلوك، والله يأمرك بأن تخرج إليهم، فإذا خرجت فتوكل على الله العلى القدير.

قال النبى عليه السلام:

ــ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، يا حبيبى يا جبريل، هل ربى معى أو معهم؟

قال:

ــ معك يا محمد، وسيعينك، ويضلهم.

قال:

فإنى لا أخاف مع الله شيئاً.

قال النبى عليه السلام:

يا بلال، أذن فى أحياء المدينة بالصلاة الجامعة مع نبيكم يرحمكم الله.

وأذن بلال فى الناس فجاءوا من كل حدب وصوب تجاه المسجد، وقام النبى عليه السلام وألقى خطبة كاملة انهمرت لها الدموع من العيون، واشتدت الرغبة فى الجنة والخوف من النار، ثم قال:

ــ أيها الناس، يرحمكم الله، والله الذى بعثنى مبشراً بالحق وأبطل الباطل لقد جاءكم

أهل مكة فى فرسانهم ومشاتهم . أيها الناس ، لقد أمرنى الله أن أخرج إليهم ، فماذا أنتم قائلون ؟

قالوا :

يا رسول الله ، نحن سيوفك الباترة ، و(رماحك) المشرعة ، نذهب إلى حيث تريد .

قال لهم :

ـــ ولكم حسن الثواب .

ثم قال :

ـــ اعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، فلا يزعجنكم الشيطان . ثم التفت النبى عليه السلام وعد جيشه ، فوجده ألفى ومائتى فارس فخرج (بهم) ، وكان عدو الله بقواته على ظهر الجبل ، فنظر فرأى جيوشاً عظيمة وأعلاماً متفرقة فنادى عليهم :

ـــ يا أهل الشرك وعبدة الأصنام ، يا من تعبدون اللات والعزى وغيرها من الأوثان ، هذا محمد بن عبدالله جاء إليكم من ربكم هدى ورحمة ، فمن أطاعه فطوبى له فى جنة رضوان ، خالدا فيها ينعم بالأمان .

عندئذ قال لهم الأصيد :

ـــ أيها الناس ، هل سمعتم ماسمعت ؟

قالوا :

ـــ نعم .

قال لهم :

أيها الناس ، هذا هو سحر محمد ، (يفتنكم) بأقواله ، فلا تأبهوا بكلامه ، ولا تعدلوا عن قتله .

قال (الراوى) حينما التقى الفريقان ، وتقابل الجيشان وجهاً لوجه ، نظر الأصيد إلى قوات محمد وهى تستعد للمعركة ، وأراد أن يخرج من الميدان ، فقام أحد رجال الأصيد .

وقال له :

ـ يا أصيد، إلى أين تريد الذهاب ؟

قال :

إلى محمد وقومه .

قال له :

إذن فلتبق فى مكانك يا أصيد، لأنه إن قتلك أصبحنا قطيعا بلا راع، وسأذهب أنا إليهم وإلى كل أمر شديد. فعاد الأصيد إلى مكانه، وخرج ابن عمه هذا الذى كان قد تربى فى البوادى على لبن الجمال، وكان يحسب على سرجه بألفى فارس، فانتزع سيفه، واستبدل جواده طلبا للنزال، وانطلق مثل السهم يتقدم الصفوف وهو يقول :

ـ فنندفع بالخيل .. فقد جئنا مع جنود قريش وحمير الصناديد. ثم نادى :

ألا يخرج أحد إلى الميدان ؟

فتوجه إليه على بن أبى طالب رضى الله عنه، فلما رأى على هذا الفارس يخرج إليه، تقدم إلى منتصف الميدان وأنشد جملة من الأشعار.

قال (الراوى) فلما فرغ من إنشاده، اشتد أحدهما على الآخر وطال بينهما النزال حتى حمل عليه على وأصابه بجرح طرحه صريعا على الأرض، وأسرع الله بروحه إلى النار.

ثم خرج ابن عم القتيل واشتد هجوم كل منهما على صاحبه، وطال بينهما النزال حتى حمل عليه على وأصابه بجرح طرحه صريعا على الأرض، وأسرع الله بروحه إلى النار.

ثم خرج ابن عم القتيل، وأنشد بعض الأشعار، فأجابه على بأشعار أخرى وقال :

أنا على، فارس الفرسان، وتبارك الله فى خلقه، وهذا محمد الذى جاء بالهدى،

واليوم يوم الطعن والنزال وعندما انتهى على اشتد كل منهما على الآخر وطال بينهما النزال حتى حمل عليه على وأصابه بجرح طرحه صريعا وأسرع الله بروحه إلى النار.

ثم خرج ابن عم القتيل وأنشد جملة من الأشعار، وعندما انتهى اشتد كل منهما على الآخر وطال بينهما النزال حتى حمل عليه على وأصابه بجرح طرحه صريعا على الأرض وأسرع الله بروحه إلى النار.

وعندئذ لم يخرج للقائه أحد آخر، فعاد على إلى مكانه فلما رأى الأصيد أربعة من أولاد عمه صرعى اشتد به الغيظ وصاح بأعلى صوته :

يا معشر العرب وسادة قريش، واللات والعزى لن يخرج أحد للنزال غيرى .

قال (الراوى) ووضع عصابة صفراء وأخرى حمراء، وانتطق سيفين، وأخذ رمحين، ووضع البيضة، وامتطى صهوة جواده، وانطلق صارخاً فأخذ صنما من ذهب فقبله، وسجد له من دون الله رب العالمين، وانبرى وسط الميدان قائلاً :

أنا الأصيد، معروف الحسب .

وسل سيفه على من سيلقاه، وأنشد أشعاراً وصاح :

ألا يخرج أحد لى ؟

فلم يجبه أحد .

فلما رأى أنه لا أحد يجيبه ضحك وقال :

أولا يقول هؤلاء إنهم على الحق ونحن على الباطل، ثم لا يخرج منهم أحد! ونادى :

ـ يا محمد أين جندك وقادتك وأبطالك الشجعان ؟

أين الأقرع بن حابس؟ أين عمر بن حازم ؟ وأين هذا الذى عرف بجسارته أسد بنى غالب على بن أبى طالب ؟

قال على :ـ

ـ يا رسول الله، من هذا الفارس؟

قال النبى عليه السلام :

ـــ ألا تعرفه ؟

قال :

لا ، يا رسول الله .

قال :ـــ

هذا هو الأصيد بن سلمى ، وهو فارس الكفار.

قال على :ـــ

وأنا فارس المسلمين ولا فخر.

قال النبى :ـــ

يا على أتبغى الخروج إليه .

قال :

يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق مبشراً إنى لأحب الخروج إليه كما يحب الظامىء شربة ماء فى الصيف.

قال النبى عليه السلام :

ـــ اقترب منى يا أبا الحسن .. فالله لا ينساك فى هذا المقام . واقترب منه على ، فألبسه مغفرا ، ووضع له شارته الأشهبية وشد على حزامه سيفه ذا الفقار، وأعطاه جواده السرحان ، وقال له :ـــ

ـــ امض يا أبا الحسن ، أعادك الله إلىّ سليما ناجيا . ومضى على إلى الأصيد الذى كان يقول :ـــ

ـــ اقترب أيها الفارس ، لأختم عليك بخاتم الموت ، فأنا الأصيد المُعْلَم .

فقال له على :ـــ

ـــ كيف تأتى متوعداً يا كافر؟ وتنطق بالهجر، وأنا قاتل الأبطال بإذن ربى ، أنا كاشف العرب .

وحمل أحدهما على الآخر، وتصارعا زمنا طويلاً دون أن ينال أحدهما من الآخر شيئاً ، وافترقا سالمين ، وأخذ الأصيد يقول :ـــ

ــ أنا البطل المغوار من الطوارق.

وعلى يقول :ــ

ــ أنا البطل سافك دماء الكفار.

وحمل كل منهما على صاحبه، وتصارعا زمنا طويلا، دون أن ينال أحدهما من الآخر شيئاً. وأنشد الأصيد مقطوعات من الشعر ثم قال :ــ

ــ أنا البطل المختار، الجراح، لا أطيع ما يريده أحمد. وأجابه على :ــ

ــ أنا البطل الماجد، المدافع الغالب لمحمد، ارجع لدين الحق يا أصيد.

وحمل كل منهما على صاحبه، ولم يصب أحدهما الآخر بشيء. فاشتد غيظ الأصيد وهياجه حتى أزبد فمه، وشرع رمحه، واستل سيفه، وأخذ يقول :ــ

لن أجرع شراباً من قدح، ولن أطعم لحماً ساخنا، ولن ألف رأسى برداء حتى أودعك اللحد.

قال على :

ــ اسمع كلمتى واعتبر، واتبع الهدى مع الناس، أنا على وعمى العباس، سأقتل منكم كل قلب على النبى قاس. يا جماعة عباد الأصنام المارقين، سأحملكم بالسلاسل موثقين. واشتد كل منهما على الآخر، فمكثا يتصارعان زمنا ليس بالقصير، وأصابه على رضى الله عنه برمحه إصابة أطاحت به من السرج إلى الأرض، فنهض وعاد إلى سرجه كالطائر وهو يقول :ــ

ــ كم من جروح، كم من جروح أصابتنى، والخيل تعرفنى إذا ما امتطيتها، كم من حروب، والموت شهدته، كم من جيوش مزقتها! فأجابه على :ــ

ــ أنا ملبس الحداد للنساء، وصارع الأبطال فى اللقاء، وموقع الصيد فى الشباك، وقاطع الرؤوس فى العراك.

واشتد كل منها على الآخر، ومكثا يتصارعان زمنا طويلا، حتى حمى وطيس الصراع واشتد بالخيل الإعياء.

فلما رأى على ذلك، ضرب بالمهماز جواده كأنه يمضى، وتبعه الأصيد فاقترب منه وقال له :

— إلى أين تمضى يا على ؟

فالتفت على لمواجهة الأصيد، وانتزعه من سرجه، وطرحه على الأرض فأثار الغبار، وشد على وثاق الأصيد، شده من طوقه وقال له :

— ارجع يا أصيد إلى الإسلام، ينعم ربى عليك بالجنة، فإن رغبت عن الله نالك منى العقاب.

وكان هناك رجل يتربص به فى مؤخرة الهضبة يقال له أصباح، فنثر كنانته، وأراد أن يقذف عليا بالرمح، فرآه النبى عليه السلام فقال :ـــ

— يارب، أمسك أصباح وغل يديه غلاً شديداً فأنت القوى الشديد.

فتقبل الله دعاءه، وجعله حجراً صلداً مازال يقوم هناك إلى يوم القيامة. ونظر على وقال :ـــ

— هذا ماجرى للأصباح بأمر الله، هذا ما أصابه وأحاله حجراً لاينطق، بدعاء نبينا الحق.

قال (الراوى) وحمل علىّ الأصيد موثقا أمام النبى محمد ﷺ، فقال له النبى :ـــ

— ألست أنت القائل فى مكة «إن قتل محمد عندى ليس إلا كنحر شاة من غنمى» ؟.

قال له الأصيد :ـــ

— وقد كفانى كلاماً، فيــدك هى الطولى، ولا كفر بعد الإيمان، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده، لاشريك له، وأنك عبده ورسوله يا محمد.

وصار الأصيد مسلماً ، وحسن إسلامه ، وأراه النبى عليه السلام الوضوء والصلاة . ثم قال :ـــ

ـــ يا رسول الله ، أعد إلى جوادى وسلاحى ، لأحارب لدين الله ورسوله ، وسأمضى أمامك بالسيف صلوات الله عليك.

فأعاد له جواده وسلاحه ، ثم حمل على والأصيد على الكفار كأنهم أسود ضارية ورجع أعداء الله إلى مكة مغلوبين ، فخرج أبو الأصيد وكان يسمى سلمى المخزومى إلى مفترق الشعب ينتظر ابنه . فمرت عليه قبائل العرب وهو يقول لها :ـــ

ـــ أيها العرب ، أيها الناس ، لماذا لا أرى ابنى الأصيد يأتى معكم ؟ .

وهم لايجيبونه ، حتى مرت قبيلة من قبائل العرب فسألهم عن ابنه الأصيد فقالوا له :ـــ

تبا لك ولابنك ، فلم يكن إلا ليظهر دين محمد ، ولم تغن عنه جراحه ولا أشعاره شيئاً .

فقال لهم :

ـــ هل مات أو أسر؟

قالوا له :ـــ

بقى أسيراً .

فسألهم :

ومن ذا أسره ؟

قالوا :

فتى يسمى على بن أبى طالب .

قال العجوز :ـــ

بحق اللات والعزى ، ومناة الكبرى ، لولا أن عليا هو الذى أسره لأنكرت ابنى .

وعاد العجوز إلى بيته ، وكتب رسالة إلى الأصيد (يقول فيها) أمتط أنت صهوة

جواد فى المدينة مع الفرسان الشجعان؟ وبعث بأبيات من الشعر إلى محمد، ثم قال :ـــ

ـــ أتركت الدين القويم، وصبأت إلى الهاشمى أحمد؛ أتراك خلقت هادياً لدينه، فاحمده، واكتب لى رسالة بما وجدته من هداية.

فلما وصلت الرسالة إلى الأصيد بكى بكاء شديداً، وتساقطت دموعه على الأرض، وقال له النبى عليه السلام :ـــ

ـــ أجب أباك يا أصيد.

قال :

يا رسول الله، منذ اليوم الذى أسرنى فيه على وأنا لم أعد إلى رشدى.

قال النبى عليه السلام :ـــ

ـــ يا على، فلتبعث أنت بالجواب لأبى الأصيد.

قال على :ـــ

ـــ أحبب إلىّ يا رسول الله.

قال (الراوى) وعندئذ أمر بحبر وورق، وقال :ـــ

ـــ لم يبعث الله نبيا مثل هذا، ليس كمثله أحد فيمن مضى، هذا هو النبى الهاشمى محمد المصطفى، اختاره رب العباد لدينه، هذا طريق الحق لمن يريد أن يتمسك بعروته، هدى للناس الذين يبايعونه بحب، للطائعين أو المكرهين، فعليك لو عقلت باتباع الهدى ودين الله وترك الضلال والبهتان.

ولما فرغ من كتابة الرسالة سلموها لمن يحملها إلى مكة، فمضى فى طريقه حتى أعطاها للعجوز، فلما قرأها أجهش بالبكاء الشديد، وود لو رأى النبى عليه السلام، ووقر الإيمان فى قلبه، حتى إذا جاء وقت العشاء قال لبنته :ـــ

ـــ يا بنيتى، قربى منى ناقتى.

ـــ وإلى أين تريد أن تمضى يا أبى؟

قال لها :

إلى محمد بن عبد الله .

قالت له :ـــ

ـــ وإلى من تدعنى يا أبى؟ فوالله إنى لأحب أن أرى محمداً أكثر منك .

قال (الراوى) فجهزوا العير وركبوا الناقة وحملوا معهم كل ما استطاعوا من البيت وخرجوا عند مضى ثلث الليل، وقال :ـــ

ـــ يارب محمد، اجمعنا به، فأنت مجيب الدعاء!

قال (الراوى) فبعث الله إليهم ملكين دليلين، ولم يمض سوى الثلث الأخير من الليل حتى وقفت الناقة على باب مسجد مدينة يثرب، وهى مسيرة عشرة أيام .

قال (الراوى) وأذن بلال، وتوضأ العجوز وابنته، وجاء المهاجرون والأنصار، وخرج النبى ﷺ، وأقام بلال الصلاة، وصلى سلمى مع الصحابة وابنته .

فلما فرغ النبى من الصلاة قال :ـــ

أيها الناس، هل فيكم سلمى المخزومى وابنته ؟

فنهض من بين الصفوف وقال :ـــ

ها أنذا يا رسول الله .

واقترب وابنته منه، فألقوا عليه السلام وقبلوا بين عينيه وقالوا له :ـــ

ـــ من أخبرك بهذا يا رسول الله ؟

قال لهم :ـــ

جبريل عليه السلام .

فقالوا :

يا محمد، أعطنا يمناك .

وقالوا :ـــ

أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله .

وأسلم هو وابنته ، وقبل الأصيد أباه وأخته بين عينيها وأوصى بهما النبى عليه السلام وعلمهما الوضوء والصلاة وقراءة القرآن كل يوم .

ومات العجوز رحمه الله ، فغسلوه وكفنوه وصلى عليه النبى ودفنوه فذهب إلى رحمة الله وجنته .

أما الأصيد فقد شارك فى الحروب مجاهداً صادقاً منذ ذلك الوقت حتى مات إلى رحمة الله .

وهنا تنتهى الحكاية ، والحمد لله رب العالمين .

حكاية الحارث ملك اليمن

قال (الراوى) لما خرج النبى عليه السلام إلى مكة، وفتحها بالسيف، وعاد إلى المدينة، بعث برسائله إلى كل الملوك ليدخلوا فى الإيمان والهدى، ويبعدوا عن الكفر والضلال. وكتب إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك أراضى اليمن وتخومها، كتب له معاوية بن أبى سفيان، وكان كاتب النبى محمد ﷺ.

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله، الذى بعثه الله تبارك وتعالى ليمحق الضلال من الأرض، مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. فأنزل عليه القرآن. وجعله يحل الحلال ويحرم الحرام، ويبين الهدى من الضلال. وأمره أن يكتب إلى ملوك الأرض بطولها وعرضها، وهاهوذا يكتب إليك فى جملتهم، يدعوك إلى الإيمان والطاعة، والدخول بأمر الله فى جماعة العرب، والاعتراف بكلمة «لا إله إلا الله» فلو قلتها فزت فى الدنيا والآخرة، ولو أبيت دفعت الجزية وأنت صاغر، وإن لا فلتأذن بحرب من الله رسوله. والسلام على من اتبع الهدى وخشى شر العمى».

فلما فرغ من كتابة الرسالة أعطاها للنبى ﷺ، فختمها وقال :ـ

ـ أيها الناس، من يحمل رسالتى هذه إلى اليمن، إلى الملك الحارث بن أبى شمر الغسانى وأنا كفيل له عند الله بالجنة؟

فلم يجبه أحد، فقالها مرة أخرى وثالثة، فنهض زيد وقال :ـ

يارسول الله، لقد أحببت أن أقوم منذ المرة الأولى، فلم أفعل كى يقوم من بين المسلمين من يعرف الطريق خيراً منى.

ـــ عليك بالتقوى ، وإن لم تستطع أن تتقى الأمر، فاهجع مطلع الليل تأمن (شره) ولن يمسك الشيطان ، ولكى تكون أشد قوة قل «لا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم» يخفض عنك الله أعمالك ، فإذا لقيت عدو الله ورأيت ملكه فتدبر فى الحى القيوم الذى لايموت يصغر شأن الملك فى عينيك .

قال زيد لرسول الله ﷺ :

ـــ ادع الله لى أن يخفف عنى الطريق وأن يقرب منى البعيد .

قال النبى عليه السلام :

رب اجعل البركة فى مؤونته ، وقرب له مابعد ، وهبه الراحة فيما سلك ، والأمن من كل خطر، إنك على كل شىء قدير.

ثم ودع النبى عليه السلام والصحابة ، وخرج من باب المدينة وغذ السير، فطوى الأرض حتى وصل إلى اليمن ، وبلغ قصر الملك الحارث ، وطلب الإذن فأمر له بالدخول .

قال زيد ، كان قصراً عظيما ، فدخلت من بابه ، فوجدت ميدانا رحيبا ، قام فيه قصر آخر، يجلس حوله أناس يرتدون حلل الحرير، وعلى رؤوسهم عصابات من حرير مموه بالذهب ، وبينهم رجل عظيم فظننت أنه الملك ، فمضيت نحوه وتهيأت لتحيته فقال لى الرجل الذى دخل معى :ـــ

ـــ ليس هذا هو الملك ، فالملك أكبر وأشرف ، ولكنه أحد وزرائه .

ودخلنا من باب آخر إلى ميدان آخر، وخرج للقائى من على الباب وقال لى :ـــ

هل أنت رسول محمد؟

فقلت له :ـــ

أجل .

فقال لى :ـــ

إذن فادخل .

ودخلت معه إلى قصر آخر أكبر من الأول، ووجدنا أقواماً كثيرين قد جلسوا فى زينتهم، وبينهم رجال أضخم منا، فقلت:

ــ لا ريب أن هذا هو الملك.

فنظر إلىّ من أمشى معه وقال لى:

ــ ليس هذا الملك، ولكنه أسير من أسراه.

وطلب الإذن لى ممن على باب القصر، فدخلت من قصر إلى آخر، ومن ميدان إلى ميدان، وكنت دائماً أحسب الملك فى كل منها، حتى عبرت ثلاثين مكانا. ثم خرجنا إلى ميدان عظيم جداً، وبه خلائق كثيرة، فنظرت إليهم، ورأيته فى بهو كبير، حوائطه من الذهب المطعم بالياقوت والأحجار الكريمة، وعن يمينه أربعون أسيراً، ومثلهم عن يساره، والسيوف مسلولة فى أيديهم، وعلى الجانب الأيمن قام كرسى من سن الفيل، قوائمه من (خشب) النبع المطلى بالذهب والمزخرف بالياقوت، والملك جالس على الكرسى، وعلى رأسه عرش من ذهب ولؤلؤ، وقد زين جانب العرش وذراعاً الكرسى بهما أيضا، وجلس الوزراء بين يديه، وعن يمينه اثنا عشر مستشاراً وعن يساره مثلهم وقد ارتدوا أشرف الثياب وانبعث منهم أذكى العطور. وأمامهم وأمامه كرسى من ذهب عليه صنم من حديد رأسه من نحاس وعيناه من ياقوت أحمر وبيده اليسرى جارية، وعلى رأسه طائر، وفى يديه قدح من ذهب ملىء بالمسك وقدح آخر فى يسراه ملىء بماء الورد، وكانت الجارية تكلم الطائر بلغته والطائر يفهم عنها ويطير من الكرسى إلى قدح المسك وإلى قدح ماء الورد ولا يدع أى شيء لايمسه بالمسك بجناحيه وريشه ثم يطير فوق عرش الملك (فينثر) كل مايأخذه من المسك وماء الورد، ثم يعود بعد ذلك إلى رأس الجارية ويتكلم معها مرة أخرى ويسكب ماء الورد فوق الجميع.

ثم مضت الجارية وقال زيد:ــ

ومددت يدى لأعطيه رسالة رسول الله ﷺ. فلما رأى الرسالة أشار لأحد البطارقة أن يأخذها منى، فأعطيته إياها وفض خاتمها وقرأها، فلما قرأها لم يقل لأحد شيئاً، وإنما قال لزيد:ــ

ـ يا رجل، ما اسمك ؟

قال له :ـ

ـ اسمي زيد .

قال :ـ

ـ هل أنت من المهاجرين أم من الأنصار؟

فقلت له :

ـ أنا من الأنصار.

فقال لى :ـ

من أى الأنصار؟

قلت :ـ

من الأوس .

قال لى :

ـ يا زيد، أو ضمختم رسالتكم بالمسك ؟

قال زيد :ـ

ـ لا

قال رواى الحديث «هذا يدل على أنه عندما فض الكتاب انتشر منه ريح المسك بأرق مما كان لدى الملك» .

ثم قال له :ـ

ـ أيها الملك الخاسر، إن موتك محتوم يا مخدوع يا ملعون . وستحشر إلى النار، لأننا نحن الملاك الأعظم، نمزق شر ممزق ونبدد الأساطيل، ونظهر المعجزات . وفينا أسد بنى (غالب) على بن أبى طالب، وقد أخذ عدته لكم فاعلم أنه سيأتى إلى أرضك، ويجلس فى ملكك وسيقضى عليك وعلى قومك وينزع ملكك، وسيصير جميع ما تحت يدك إلى محمد ﷺ .

فلما سمع الحارث هذه الكلمات قال لأصحابه ووزرائه :ـ

ـ أسمعتم رجلاً مثل هذا ؟ ومثله يكون مبعوثاً، فإنه لفصيح اللسان تام البيان .

ثم قال :ــ

ــ يا زيد، إن لك أن تقول هذا ، ولنا أن نرد بغيره ، وعلينا أن نكرمك مادمت في أرضنا ، وقل له (لمحمد) أن لا يتردد في الخروج معه .

قال زيد « وأمر بأن يعطوني مؤونة وزادا للطريق » .

فقلت له :ــ

ــ ليست بي حاجة لزادك ، لأن النبي عليه السلام دعا لي بالبركة في مؤونتي ، وستكفيني حتى أرجع إلى أرضي .

قال زيد « ثم أمر لي بخمسمائة ريال » فقلت للمك :ــ

لست بحاجة للمال .

قال الملك :ــ

لم يأت إلى رسول قط دون أن أعطيه مالا ويأخذه سواك .

قال زيد :ــ

لن أتلقى منك أي شيء ، لأنك كافر ، ولأن ملكك سيئول إلينا ، وسنأخذه بأسيافنا .

قال زيد « ثم خرجت إلى مدينة النبي ﷺ ، فلما مضت تسعة أيام أقام الملك مأدبة عظيمة ، وأمر بأن ينادى في الناس كي يجتمعوا كلهم ، ودفع الرسالة لأحد وزرائه وقال له :ــ

ــ اقرأ هذه الرسالة على القوم بصوت عال حتى يسمعها الجميع ، القريب منهم والبعيد .

وأمر بأن يحضر له كرسي ، فجلس عليه ، وقرئت عليهم الرسالة ثم قال لهم الملك :ــ

ــ أسمعتم ماقاله محمد بن عبدالله ، فو اللات والعزى إني لا أجد على وجه الأرض من يتوعدني غير محمد بن عبدالله ، فمن له مشورة فليأت بها ويقولها لي .

وحينئذ نهض من بينهم عجوز طاعن فى السن، فأمر الملك أن يفسحوا له مكاناً حتى جاء إليه وقال :ـــ

ـــ أيها الشيخ الشريف، تكلم .

قال العجوز:ـــ

أيها الملك، أو أقول الحق أم الباطل ؟

قال له الملك :ـــ

تكلم ولا تقل سوى الحق .

قال العجوز:ـــ

ـــ أيها الملك، كم تحسب عمرى ؟

قال له الملك :ـــ

ـــ لست أعرف .

قال العجوز:ـــ

ـــ لقد بلغت مائة وثلاثين عاما، ولم أر ولم أسمع بمثل هذا الرجل محمد بن عبدالله، لأنه كامل العقل، تام المعرفة، حسن الرأى، كالحنطة، كل الفقراء والأغنياء عنده سواء. يخبر صحابته بأسرار الأحداث، ولديه أبطال وقواد وفرسان، يطوون الأرض غالبين لامغلوبين، وفيه خصلة لا أعرفها فى أحد غيره، إذا خرج إلى الحرب، مضى فى مقدمة القوم. فأنصحك أن لاتخرج إلى أرضه، حتى لا تصير أرضك إليه .

قال الملك :

ـــ يا شيخ، فإن لم أخرج إليه، أو يحدق بى الخطر؟ أعطنى مابوسعك من مشورة .

قال العجوز:ـــ

ـــ إن أطعتنى أهديك إلى مافيه خيرك وخير بلادك، ثم قال : يا ملك، انظر هنا إلى عمرو بن معد يكرب الزبيدى، فهو فارس الدنيا، فابعث إليه وأعطه ثلث ملكك، وأرسله إليه، فإن غلبه غلبت وارتفع شأوك وخافتك كل الملوك، وقالوا :

«محمد بعث إلى الحارث ملك اليمن فلم يشأ الخروج إليه وأرسل له جيوشه» وإذا كان محمد هو الغالب عرفت أنه نبى مرسل ودفعت له الجزية وحفظت أرضك وأقمت فيها وفى ملكك. هذا ما بدالى أشير عليك باتباعه.

فقام وزير من وزراء الملك وقال :ــ

ــ صه أيها الشيخ الضليل، فالملك أحد ملوك الدنيا، ولا ينبغى أن يدفع جزية، فلا يدفعها إلا المستضعفون الصاغرون.

قال العجوز:ــ

ــ أيها الملك، لا يتكلم أحد إلا بعقله، وماقلت لك غير الحق.

قال الملك :ــ

أيها الشيخ، إن قولك لهو الحق، وإنه ليدفعها من هم أعرق منى فى الملك، يدفع الجزية ملك كسرى وقيصر (فى الأصل نيصر) والنجاشى وغيرهم كثير من الملوك. وكلهم أقدم فى الملك منى.

قال العجوز:ــ

ــ فليس فيهم أحد لايدفع الجزية لمحمد بن عبد الله.

قال الملك :ــ

ــ وما يعطونه له إنما هو الهدية.

ــ فلتدخل فى زمرتهم، ولتقدم الهدية كما يفعل الآخرون، وتأكل وتشرب فى أرضك، ولا يتحكم فيك أحد. هذا مايبدو لى من المشورة والسلام.

قال الملك :

ــ يا شيخ، لقد حدثتنى وكشفت وهمى وإنى لمنصت لكلامك.

وعندئذ بعث الملك فى طلب عمرو بن معد يكرب الزبيدى، فلما جاءه (الرسول) أقام مأدبة عظيمة استمرت ثلاثة أيام، ثم خرج مع جيشه إلى اليمن، حتى إذا كان قريباً من «الفارس» على مسيرة يومين أرسل يخبره، فأمر الملك الحارث فأعد لهم

شواء كثير وشراب ، ثم أخرج خطاب محمد ، فلما قرأه عمرو بن معد يكرب الزبيدى قال للحارث :ـــ

ـــ وفيم أرسلت لى ؟

قال له الحارث :ـــ

ـــ كى تمضى إلى حرب محمد بن عبد الله وتقاتله .

فقال له :ـــ

ـــ إننى لا أذهب معك لقتاله .

فقال الملك :ـــ

ـــ ولم ؟

قال له :

ـــ لأننى لو ذهبت معك لقتال محمد وغلبته فستقول « لولا جيشى لما غلب » .

قال الحارث :ـــ

ـــ إذن قل لى كيف يكون .

قال له عمرو :ـــ

ـــ أذهب وحدى مع جيشى ، فإذا غلبته كفيتك شره ، وإذا غلبنى عرفت أنه نبى العرب وأعطيته ما يطلبه منك وبقيت فى أرضك وفيمن معك .

وأخرج الحارث نصيباً من أمواله ووزعه على عمرو ومن بصحبته ، ثم رحل عمرو .

أما ما حدث لزيد فإنه لما وصل إلى المدينة ذهب إلى النبى عليه السلام وأخبره بما جرى وبما قاله الملك الحارث ، وحينما سمع النبى عليه السلام ذلك نادى بلال وقال له :ـــ

ـــ يا بلال ، أذن فى الناس بالصلاة جماعة مع نبيكم يرحمكم الله .

وجاء الناس حتى امتلأ بهم المسجد ، وصعد النبى على المنبر ، وألقى خطبة تامة اغرورقت لها العيون بالدموع ، وخفقت منها القلوب رغبة فى الجنة ورهبة من النار .

ثم قال :ــ

ــ أيها الناس، إن الله قد بعث (نبيه) مبشراً بالحق، وقد أرسل الله تعالى كل نبي إلى قومه، وبعثني للناس أجمعين من إنس وجن، ولن أكف عن إبلاغ دين الله تعالى وحرب الكفار. وقد أمرني ربي أن أكتب للملوك وأدعوهم للدخول في الإيمان أو دفع الجزية. فاختار الملك الحارث الحرب، فاستعدوا للخروج يوم الخميس إن شاء الله.

فأخذ الناس يعدون أسلحتهم وكراعهم ورماحهم، فلما جاء يوم الخميس صلى بالناس صلاة الصبح ثم قال لهم :ــ

أخرجوا رحمكم الله.

وذهب النبي إلى بيته. وركب فرسه السرحان وخرج من باب المدينة، وأشرف على مرتفع ثم عاد بفرسه إلى المدينة حيث كان الناس يخرجون عشرة فعشرة، وعشرين فعشرين، وخمسين فخمسين وألفاً بعد ألف. وقد اجتمع المهاجرون والأنصار وكنعان ونزاء (؟) وبنو زهرة، فلما اكتمل الجيش قام النبي ورفع يديه إلى السماء ودعا الله للمسلمين. ووصلوا إلى مكة فاجتمع إليهم ألفا فارس من مكة. وسار جيش النبي عليه السلام وقد بلغ عدده اثنا عشر ألفا ولم يكن قد بلغ هذا العدد من قبل أبداً.

ومضوا مسيرة خمسة أيام، فرأوا جبلاً عظيماً، فقال النبي عليه السلام للأدلاء وكانوا أربعة منهم عمرو بن أمية الأصحرى وثعلبة الأنصاري وعبدالله الحماني :ــ

ــ أين نضع رحالنا من هذا الجبل؟

فقالوا :ــ

ــ يا رسول الله، هناك ماء في المشرق، وماء في المغرب، فضع الرحال حيث تريد.

ووضعوا الرحال في المشرق. فلما وصل عمرو بن معد يكرب إلى هذا الجبل لم يكن أحدهما يعلم بأمر الآخر. فخرج رجل من المسلمين يبحث عن حطب فرأى جيش عمرو بن معد يكرب الزبيدي ورجع إلى النبي وقال له :ــ

ـــ يا رسول الله ، لقد صعدت إلى الجبل ورأيت جيشا قد نزل بالجانب الغربى من الجبل ، وأظنه جيش عمرو بن معدى .

قال النبى :

ـــ ومن أين لك بمعرفته ؟

قال :ـــ

لأن له علامة إذا نزل بجيشه .

قال :ـــ

أى علامة ؟

قال :

ـــ يضع خيمة خاصة ، ولقد رأيتها فى هذا الجيش .

قال النبى عليه السلام :ـــ

ـــ أين حذيفة اليمانى ؟

فأجاب :ـــ

لبيك يا رسول الله .

قال :ـــ

ـــ يا حذيفة ، اصعد إلى الجبل ، وانظر إلى هذا الجيش ، وائتنا بعدده .

ولم يكن أحد يعد الجيوش مثل حذيفة ، فصعد إلى الجبل ، لكنه لم يستطع رؤية كل الجيش ، فتقدم إلى الأمام لينظر، فأمسكوا به ، وأخذوه ، وحملوه إلى عمرو بن معدى ، فقال له :ـــ

ـــ من أين أتيت ؟

قال له :

ـــ من جيش محمد بن عبد الله .

قال عمرو :ـــ

ـــ وأين نزل جيشه ؟

قال :ـــ

عند شرقى الجبل .

قال عمرو :ــ

ــ وأين تذهب أنت ؟

قال :ــ

ــ لأحسب وأعد جيشك .

قال له :ــ

ــ فكم نحن ؟

قال :ــ

ــ عشرة آلاف لا تزيد .

قال له :ــ

ــ الحق أصبت ، ولكنى على سرجى بألفين ، فنصبح اثنا عشر ألفا .

قال عمرو :ــ

ــ اذهب إلى محمد بن عبد الله ، وأخبره أننى هنا ومعى جيشى . فعاد حذيفة إلى النبى عليه السلام ، فلما أخبره بما حدث قال النبى عليه السلام لأبى جهينة الأنصارى :ــ

ــ اركب فى خمسمائة من الأنصار .

فلما أشرق صباح الخير بإذن الله تطلع جيش عمرو فبدا جيش النبى عليه السلام ، وقال النبى :ــ

ــ يا جماعة المسلمين ، لا تقاتلوا من أجل الغنائم ، ولكن قاتلوا فى سبيل كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

وقال لعلى :ــ

ــ يا على ، امسك الراية .

فأمسك على بالراية وقال :ــ

ــ الله أكبر .

وتلاحم الجيش بالجيش والتقى الجمعان، وجاء الحق وزهق الباطل، وتكسرت الرماح والسلاح والسيوف وتبددت، وكان عمرو يخور مثل الثور ويقول :ـ

ـ ارجعوا على أعقابكم، ارجعوا، واللات والعزى لا نقاتل إلا بالبراز، كل بطل يبارز بطلاً.

فرجع كل جانب إلى صفوفه، ولبس عمرو درعين، وثنى سيفين، وركب، وخرج إلى منتصف الميدان وصاح :ـ

ـ يا صحابة محمد، من القائد، محمد أم على ؟

فقالوا :ـ

ـ محمد رسول الله.

قال :ـ

ـ يا محمد، مر بمن يخرج إلى.

فلم يخرج أحد، فطلب النزال بين الجانبين وقال لهم :ـ

ـ يا أصحاب محمد، هلموا إلىّ، فأنا بطل الأبطال.

قال النبى عليه السلام :ـ

ـ من يخرج إليه، وأنا كفيله عند الله تعالى بالجنة ؟

فخرج رجل من الأنصار، فا رآه عمرو شد عليه وأصابه بضربتين، وأصاب عدو الله بضربة، لكنه خر صريعاً على الأرض وتوفى الله روحه إلى الجنة.

ثم استدار عمرو إلى جيش المسلمين، فرأى رجلاً آخر يخرج لملاقاته، وكان أخا المقتول، فشد عليه عمرو بضربة خر منها صريعا على الأرض، وتوفى الله روحه إلى الجنة.

قال رسول الله ﷺ :ـ

ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. من يخرج إليه، وأنا كفيله بالجنة ؟

فخرج فتى لم تنبت لحيته بعد وقال :ـ

ـ يا نبى الله، أنا أخرج إليه.

فقال النبى عليه السلام :ـ

ـ ألا فليخرج إليه آخر.

قال الفتى :ـ

ـ يا رسول الله، أظنك استصغرت أمرى لصغر سنى، ألا فلتأمرنى بالخروج إلى هؤلاء القوم.

وجاء بعض الناس، من أبناء عمومة هذا الفتى، والتفوا حول النبى عليه السلام وقالوا له :ـ

ـ يا رسول الله، إننا نخبرك عن شجاعة هذا الفتى، فلقد ذهبنا فى خمسمائة فارس إلى بنى هلال، وكان بيننا وبينهم عداوة، والتقينا فى كمين، فخرج ثلاثمائة فارس من الحى وكروا حاملين علينا بأفراسهم، وكان هذا الفتى هو الطليعة، فبدد حملتهم فلما سمع النبى عليه السلام ذلك قال له :ـ

ـ اخرج لقتال عمرو، غفر الله لك ذنوبك.

فخرج الفتى إلى الميدان، فلما رآه عمرو استصغر شأنه لصغر سنه ولم يلتفت إليه، فلما أدرك الفتى أنه يستهين به شد عليه وأصابه بضربة خلعته عن سرجه فوقع على الأرض وسقط منه الرمح، إلا أنّ عمروا عاد فركب وقال له :ـ

ـ أنت من بنى سليمى؟

قال له :ـ

ـ أجل

فصاح عمرو صيحة (ملوية) وشد عليه بضربة فى رأسه أصابت المغفر، فلما رأى عمرو رأسه مغطاة ضربه بالرمح فى كتفه وفقأ عينيه ونزعه من فوق فرسه وجره وراءه ثم أصابه بضربة شطرته نصفين. فحزن المسلمون عليه لأنه قتل غدراً.

ثم خرج شيخ من الأنصار، فلما رآه عمرو استدار إليه، وشد كل منهما على

الآخر، واستمر النزال ساعة، وثار النقع حتى تواريا فيه، ثم خرج عمرو منتحيا جانبا، وبقى الشيخ صريعا، وصاح عمرو قائلا :ـــ

ـــ لا يرسل محمد لنزالى إلا رجلاً عجوزاً أو فتى صغيراً، أما الأبطال الكبار فهم يخشوننى.

وكان هناك جماعة من أصحاب محمد يستظلون تحت شجرة، فلما رأوه قادماً إليهم تفرقوا عنه، فسل عمرو سيفه وهوى على الشجرة فقطعها كما يقد القلم، فتعجب الناس منه وفزعوا من رمحه وسلاحه، ثم عاد عمرو إلى وسط الميدان وقال :ـــ

ـــ يا محمد، أين قوادك وأبطالك؟ وأين عمك العباس؟ وأين عمار بن ياسر؟ وأين الداهية ابن حذيفة؟ وأين سعد بن أبى وقاص؟ وأين طلحة الخير وأين عمر بن الخطاب؟ وأين عثمان بن عفان؟ وأين أسد بنى غالب على بن أبى طالب؟

ولم يرد عليه أحد.

قال عمرو:ـــ

ـــ يا محمد، إن الرجال الذين سميتهم لك ليسوا فى المشرق ولا فى المغرب ولا تحت رايتك، وقد انتصرت بهم فى معاركك بعد أن حولتهم إلى دين الإسلام، وغلبت بهم الملوك، فليخرج، ليخرج أحدهم إلى فى هذا اليوم.

فلما سمع النبى عليه السلام ذلك نظر إلى على، وقال رجل من الأنصار:

ـــ هذا عمرو، فارس العرب.

وقال آخر:ـــ

ـــ هناك آخر فى جيش محمد مثله.

قال :ـــ

ليس إلا على بن أبى طالب.

قالوا :

ـــ بلى ، هناك سبعة مثله فى جيش محمد ، منهم الزبير بن العوام وخالد بن الوليد ، والمقداد بن الأسود الكندى ، وعمر بن الخطاب وأبو محجل بن زيد الأنصارى فإن لم يخرج أحد من هؤلاء فسوف يبغى فى المسلمين هلاكاً .

حينئذ قال النبى عليه السلام :ـــ

يا على .

قال :ـــ

لبيك يا رسول الله .

قال :ـــ

أنت نعمة من الله ضد الأعداء .

فلما خرج من بين الصفوف . وتهادى فى الميدان قال عمرو :

ـــ من أى القوم أنت ؟

قال على :

ـــ أنا من مضر ، من أطولهم منكبا وأشدهم أذرعا ، من بنى هاشم قال :ـــ

ـــ وممن أنت فيهم ؟

قال :ـــ

أنا واهب المحن ، قاطع الفيالق ، قاهر الأبطال ، ممرغ الفرسان فى الرغام ، أنا أسد بنى غالب على بن أبى طالب ، وقد زدت حمدا على الناس بفاطمة الزهراء وأبنائها ، ثم بصحبة رسول الله ﷺ .

فلما سمع عمرو قوله قال :

ـــ كل هذه الفضائل والخصال بلغت يا على ، إلى حيث يطمح الشجعان فى هذه الدنيا ، لكننى أبو الحرب وأمها .

ثم حمل كل منهما على الآخر ، وثار النقع ، وارتفع شرر شظايا الأحجار ، واستمر النزال ساعة ، ثم رئى عمرو خارجاً من ناحية وقد تكسرت فى يديه الرماح ، وعلى خارجاً من ناحية أخرى ، ينظر أحدهما إلى الآخر كالأسد الضارى .

قال على رضى الله عنه :ـــ

ـــ ماذا تقول يا عمرو فى رجل يأكل ويشرب ويمشى فى أسواق الدنيا ، ويختم الله له بخير، فيربح الدنيا والآخرة ؟

قال عمرو :ـــ

ـــ ومن هو ذلك الرجل ؟

قال له على :ـــ

ـــ يا عمرو، هو أنت لو أردت ورضيت بنطق كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

قال عمرو :

ـــ يا على ، أو بلغ بك العناد هذا الحد ، ولهذا خدعت نفسك ؟ أولا تعرف يا على أن النفس تحمد بقدر ما تطمح فى لقاء الشجعان والأقران ؟ احترس من ثقتك لأن هذا يؤدى إلى الاغترار، فإنك لم تلق بطلاً حتى اليوم ، احذر أن تخدع نفسك فى تقديرى ، أو تساوينى بأحد ، فأنا شديد ضليع .

قال على :ـــ

أنا البطل ، أنا البتول (!) من عدنان .

وحمل على على عمرو بالضربات ، فأصابه علىّ بضربة شديدة تلقاها عمرو بدرعه وحسب أنها لم تصل إليه ، إلا أنها شقت الدرع والمغفر والعصابة وأصابته بشج شديد فى رأسه ، وتنحى على جانبا .

فلما رأى عمرو دمه ينزف لم يستطع أن يكبت غيظه وحمل على على فأصابه بضربة وهو يقول :ـــ

ـــ خذها منى فأنا الزبيدى .

فتلقاها على بدرعه ، فشقت الدرع والمغفر وأصابته بجُرْج بالغ ، فترجل على من على فرسه وأخذ قبضة من تراب ووضعها على الجرح ، وكذلك عمرو وضع قبضة من تراب فى جرحه كما فعل على .

قال على :ــ

ــ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

قال عمرو :

ــ ترجل ، ولنتصارع على أقدامنا ، أو فلتذهب أنت إلى جيشك وأذهب أنا إلى جيشى ، فالليل قد حل ، ونعود إلى النزال فى الصباح .

قال على :ــ

ــ إنها لمشورة حسنة ، اذهب إلى جيشك ، وأنا أمضى إلى جيش النبى ﷺ .

وطلب المسلمون عليا وقالوا له :ــ

ــ يا على ، يا أبا الحسن ، ماذا لقيت عند عمرو ؟

قال لهم على :ــ

ــ لقيت والله بطلاً لم ألق أبداً أشد منه .

وطلب عمرا أصحابه وقالوا له :ــ

ــ ماذا لقيت من على وشجاعته .

قال :ــ

إنه بطل شجاع صنديد ، وقائد مغوار كبير ، قوى فى كل شىء ، وعلى كل شىء ، واللات والعزى لم أر أبداً أشجع منه ومنا .

وأخذ الجيشان يتحدثان بذلك تلك الليلة ، حتى إذا طلع الصباح ، أقام النبى عليه السلام صلاة الصبح ، ونادى عليا بن أبى طالب رضى الله عنه وقال له :ــ

ــ يا على ، كيف وجدت نفسك يا أبا الحسن ، يا على ، من جرحك ؟

قال له :ــ

ــ يا رسول الله ، لن أكون إلا بخير دائماً مادمت أرى وجهك ﷺ .

قال له :ــ

أتحب أن تخرج إلى عمرو ؟

قال :ــ

ـ أجل يا رسول الله .

وعند ذلك ركب على فرسه ، وخرج إلى الميدان ، فلما نظر عمرو إلى على أمر بأن يأتوا بجواده وسلاحه وركب عليه .

قال رجل :ـ

ـ أتريد يا عمرو أن أخرج أنا إلى على .

قال :ـ

ـ لا .

ومضى عمرو إلى على ، وألقى عليه السلام ، وطالب كل منهما الآخر بجراحه .

ثم قال على :ـ

ـ يا عمرو، على أن أكشف ضلالك إن رغبت أن تتلقى منى الهداية .

قال له :ـ

ـ وما هى ؟

قال :ـ

ـ أن تقول هذه الكلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فتنعم بالإسلام وتدخل الجنة .

قال عمرو :ـ

ـ أتظن أنك قد أفزعتنى بضرباتك ، فلتعلم أن جسدى لا يخلو موضع فيه من الجراح ، وأنى أحب النزال .

قال على :ـ

ـ ألم تسمع أنى أنا البتول (؟) وأنى أسحق الفرسان ؟ وأخذ كل منهما يحمل على الآخر.

وقال عمرو :ـ

ـ يا على ، ترجل ولنتقابل على أقدامنا .

فضحك على .

وقال عمرو.

ــ مم تضحك ؟

قال له :ــ

ــ تظن أنك تغلبني راجلين.

وترجل كلاهما ، وأمسكا بسيفيهما ، فأمسك على بذى الفقار و (تترس) بالدرع ، وكان على كالأسد الهصور، وأراد كل منهما أن يقهر صاحبه فأخذ يضربه هنا وهناك حتى انشقت الدروع ، وحينئذ غضب على غضبة شديدة وقال :ــ

ــ يا عمرو، هيء نفسك.

وحمى الوطيس وثار الغبار، واشتعل أوار النزال ، ورؤى على وهو يحمل عمرا معلقا كما لو كان أرنبا في مخالب صقر وهو يقول :ــ

ــ صيد الملوك والعظماء ثعالب وأرانب وأنا أصطاد الأبطال مثلك في حلبة النزال.

وطرحه أمام النبى عليه السلام.

قال له النبى :ــ

ــ يا عمرو، انقذ نفسك وافتد منى.

قال له عمرو:ــ

ــ أعطيك مالاً وخيلاً وثياباً وأسرى.

قال له النبى :ــ

ــ لن أقبل منك أى شيء من أعراض الدنيا ولو قدمت ما على وجه الأرض إلا أن تقول كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

قال له عمرو:ــ

ــ يا محمد، لن أقولها أبداً تحت سيفك.

قال له :ــ

ــ ولماذا ؟

قال :ــ

ـ كى لا يقول العرب «أسلم عمرو بن معد يكرب أمام محمد خوفاً من الموت» .

قال النبى عليه السلام :ـ

ـ لاشك أنك ستموت أو تقولها .

قال عمرو :ـ

ـ حتى لو قطعتمونى إرباً أو نشرتمونى بالمنشار لكان هذا أهون على من قول هذه الكلمة تحت سيفك ، فأمر النبى عليه السلام على بن أبى طالب أن يقطع رقبته .

فأخذ على ذا الفقار واقترب منه ، وركع عمرو على ركبتيه ومد عنقه ورفع على سيفه ليقطع رأسه .

قال (الرواة) وكان ينظر إلى الناس .

فقال النبى لعلى بن أبى طالب :ـ

ـ لا تقطع رأسه ، وانتظر .

ثم قال النبى عليه السلام لعمرو :ـ

ـ انهض وألبس ثيابك ، واركب جوادك واذهب إلى رفاقك .

فذهب عمرو إلى جيشه ، وأمضى تلك الليلة ساهراً ، وعندما أصبح الصباح ركب عمرو فى مائتين من رجاله ، ومضى بهم حتى وصلوا إلى النبى وقال :ـ

ـ يا محمد ، اخبرنى من أطلق سراحى ، أهو أنت أم ربك ؟ قال النبى عليه السلام :ـ

ـ لقد أطلقتك كما أمرنى بذلك ربى ، وهو رب السماوات ، يقول للشىء كن فيكون .

قال عمرو :ـ

ـ أو ربك أشرف منك ؟

قال :ـ

ــ ربى أشرف الشرفاء.

قال عمرو:

ــ على الحق أعطيت النبوة والهداية، وأنت المصطفى من الناس وأعظمهم تكريماً والمخبر عن ربك كى يعلى دينه.

ثم قال :ــ

ــ يا محمد، الآن أوليس لأحد علىّ سلطان فى أن أبقى أو أذهب؟ قال النبى عليه السلام:

ــ بلى يا عمرو.

قال :ــ

ــ إذن فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك يا محمد رسول الله.

وأسلم معه مائتا رجل ممن كانوا معه، ثم عاد إلى جيشه.

وقال لهم :ــ

ــ أما أنتم فماذا تقولون؟ لقد اتضح الحق وأصبحنا مسلمين فإذا أردتم الدخول فى الإسلام كان لكم مالنا وإن أبيتم فاتركوا هنا ما معكم.

قالوا :ــ

ــ نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

وأسلم كل الجيش، وعادوا إلى النبى محمد ﷺ، وبعد خمسة أيام رجع عمرو مع جيشه إلى اليمن، وقال للملك الحارث :ــ

ــ لقد صرت مسلما، وأخبرك أن محمدا نبى الحق، ولا شك أنك إن أسلمت بؤت بالخير وإن لا دفعت الجزية عن يد وأنت صاغر.

فأسلم هو وجميع من عنده، ورجع جيش النبى عليه السلام إلى المدينة، وأخذ عمرو كل من معه وأصحابه ومن أسلم معه وسار مع رسول الله ﷺ. ثم حارب عمرو دفاعا عن دين الإسلام حتى أدركه الموت، والحمد لله رب العالمين

معركة خذيمة البارقية
والأحوص بن مخاض

قال (الراوى) لما قتل على بن أبى طالب خنوخ الهلال (؟) هدم قلعة شديدة التحصين. وكان القادة على وخالد بن الوليد، فأسرعوا بالمسير، ومروا بصحراء ليس فيها إنس ولا جن، ولا يسمع فيها إلا زئير الأسد

كان هذا صيفا، فاشتكى الناس إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه من مشقة السفر وشدة الحر، فأمر بالنزول ونصب الخيام. وكان من عادة على أن يركب ويحرس المسلمين.

وبينما هو كذلك رأى غزالا واقفا أمامه، وكان على صيادا، فتبع الغزال، واشتد فى طلبه حتى ابتعد عن الجيش، فما أراد الرجوع إلى الجيش لم يعرف كيف يعود، ولم ير أثرا للطريق؛ إذ التبست الطرق. ورأى جبلا عظيما مكسوا بالأشجار.

قال (الراوى) فصعد على فوق الجبل، ورأى واديا جميلا فيه مياه كثيره، وكان أرض خذيمة البارقية، وهى امرأة عظيمة الشرف مطاعة فى بلادها. وكانت فارسة شجاعة مغوارة، وكان لها عبد يحرس إبلها وشاءها.

فلما رأى على هذه الأرض سربها، وأطلق عنان جواده فمضى كالسهم، حتى إذا رأى العبد عليا عرفه فمضى هاربا إلى خذيمة البارقية. فلما وصل إليها قبل الأرض بين يديها وهو يبكى.

فقالت له :ـــ

ـــ يا أسود، لماذا تبكى؟

قال لها :ـــ

ـــ يا سيدتى، لقد رأيت على بن أبى طالب فى مكان «كذا» من الوادى.

فلما سمعت خذيمة البارقية اسم على صاحت صيحة شديدة. ثم بعثت لرجالاتها وأبطالها وقواتها فاجتمعوا وقالوا لها :ـــ

ـــ لبيك ياسيدتنا، ماذا حدث لك؟

قالت :ـــ

ـــ أيها الناس، أخبرنى العبد أن على بن أبى طالب فى الوادى، وأنا أريد منكم أن يحضر أحدكم عليا أسيراً أو قتيلا وله منى مالى ونفسى.

وكان بين الحاضرين قائد يسمى الأحوص بن مخاض، وكان فى قومه بطلا صنديدا ورجلا مطاعا محبوبا، وكان مفتونا بحب خذيمة يود خدمتها.

فلما سمع قولها نهض وقال لها :ـــ

ـــ لكم أسعدت قلبى!

وذهب الأحوص إلى منزله، وصاح فيمن معه فاجتمعوا وقالوا :ـــ

ـــ ماذا تريد أيها الفارس الشديد؟

قال لهم :ـــ

ـــ اعلموا أن على بن أبى طالب هنا وحده فى هذه الأرض، لم يأت معه أحد، فإذا قتلناه بؤنا بالحمد فوق جميع العرب

فلما سمعوه امتطوا صهوات جيادهم ومضى الأحوص فى طليعتهم حتى إذا رأت خذيمة البارقية ذلك فرحت كثيرا وأخرجت عصابة حريرية صفراء وقالت له :ـــ

ـــ هذه هديتى إليك، وعندما تلقى على بن أبى طالب تجلد بها تهبك شجاعة عظيمة فى المعركة.

فأخذها الأحوص وقبلها، ومضى فى رجاله حتى وصل إلى الوادى حيث كان

على، وترجل الأحوص من فوق فرسه، وأمر بأن يقام له كرسى، ونظر إلى على الذى كان يسجد لله سبحانه، والتفت إلى قومه وقال لهم :ـــ

ـــ أو رأيتم هذا الرجل ماذا يفعل ؟

ـــ لقد ضل الطريق، وهو يسجد لصنمه .

قال الأحوص :ـــ

ـــ ليس كما تظنون، ألم تروا حصانه ورمحه ودرعه ؟

إن من يحضره لى أسيرا أو قتيلا وهبته جانبا من ممتلكاتى .

فنهض فارس يدعى الأزور بن طارق وقال :ـــ

ـــ سآتى لك به أسيرا أو أحضر لك رأسه .

وذهب بفرسه إلى على، فلما رآه على أسرع فى صلاته وألقى السلام ووقف ينتظره، فصاح عدو الله قائلا :ـــ

ـــ يا رجل، استسلم للأسر، وإن لا فأنت قتيل أو أسير .

قال على :ـــ

ـــ أو تقول لمن يمضى فى طريقه ذلك ؟

قال الأزور :ـــ

ـــ لو كان حقا ما تقول، فسر معى إلى القائد، وأخبره عن شأنك، واطلب منه أن تمضى فى طريقك .

قال له على :ـــ

ـــ فإن لم أذهب معك إلى القائد، ماذا سيحدث ؟

قال :ـــ

ـــ أضعك على حديد رمحى، فتظل مطروحا على الأرض تنهشك الصقور والغربان .

ومد على يده، فظن عدو الله أن عليا قد رضى بالأسر، فلما أمسك على بيده انتزعه من سرج فرسه وطرحه على الأرض وهوى عليه بضربة فى جنبه طار لها مخه وتناثر من أنفه ووجهه وجحظت منها عيناه .

ووقف على كأنه لم يفعل شيئا ، وأنشد أبياتا من الشعر.

قال (الراوى) فالتفت الأحوص إلى قومه وقال لهم :ــ

ــ ألم ترو كيف قتل هذا الفارس الشجاع صاحبنا بلا رمح ولا حديد، فأنا له ولكل أمر شديد.

وركب فوق جواده ، وخرج للقاء على ، كأنه سهم انطلق من قوسه.

فلما رآه على قادما ورأى شجاعته عرف أنه القائد وأخذ يقول (فى نفسه) :ــ

ــ سأصبر وأحتسب لرضا ربى الله ولن أرهب أى بطل.

وحمل الأحوص على علىّ، ورأى على شجاعته وإقدامه ، فشد عليه على، وصرخ صرخة جعلت الأحوص يظن أن السماء قد انطبقت على الأرض، ثم اشتبك لجام فرس أحدهما بلجام الآخر، فمد على يده، وانتزعه من سرجه وطرحه بشدة على الأرض فجعله يفقد بصره، وظن الأحوص أنه قد صرع، وترجل على وأمسك بخناق الأحوص ورماه على الأرض.

وجاء رفاق على ممن كانوا يبحثون عنه ، ورأوا الأمر كذلك إذ برزوا من بين الغبار، وفيهم خالد بن الوليد، فسر خالد بعلى، وكلم الأحوص كى يسلم فأسلم.

فلما رأوا أن الأحوص قد وقع فى الأسر أخذوا ينكصون هاربين، وكان من عادة على أنه لا يتبع هاربا أبدا.

وعندما رأتهم خذيمة قالت لهم :ــ

ــ وكيف تهربون ؟

فقالوا :ــ

ــ يا سيدتنا ، إن لم نكن قد هربنا لم يبق منا أحد يخبرك بما حدث.

قالت :ــ

ــ وأين الأحوص ؟

قالوا لها :ــ

ــ أسره على.

قالت :ـــ

ـــ أيها المنهزمون الصاغرون ، واللات والعزى لأذهبن بنفسى لقتال على .

وأمرت بإحضار أسلحتها وفرسها ، وخرجت فى أناس كثيرين فلما رآها الأحوص عرفها ، والتفت إلى على وقال له :ـــ

ـــ يا على ، أتعرف هذا الفارس فى مقدمة الناس ؟

قال :ـــ

ـــ لا .

عندئذ قال له :ـــ

ـــ إذن فاعلم أنها خذيمة البارقية ، فاذن لى يا على كى أحاربها :ـــ

قال على :ـــ

ـــ أذنت لك .

فخرج يقول :ـــ

ـــ يا خذيمة ، دعى آلهتك ، واعتصمى بالله ونبيه ، زعيم الأكرمين ، النبى الصدوق .

فلما سمعت خذيمة كلماته ، أدركت أنه قد أسلم فحملت عليه حملة ضارية وأوقعت به ضربة طرحته على الأرض .

وعندئذ خرج لها على بن أبى طالب فتقاتلا ساعة حتى اشتد على غيظاً وصاح بها صيحة مدوية فتراجعت فاختطفها من فوق سرجها كأنها طائر وطرحها على الأرض ووضع السيف على رقبتها وقال لها :ـــ

ـــ أسلمى وإن لا قطعت رأسك .

فقالت له :ـــ

ـــ يا على ، دعنى أفكر قليلا .

فتركها قليلا ، ثم قالت :ـــ

ـــ إن النجاة من الموت والبقاء على قيد الحياة أفضل من القتل .

ثم قالت :ـــ

ـــ يا على ، أنا أقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وأسلمت وحسن إسلامها ، وأسلم معها كثيرون ، فمن أسلم نجا بنفسه ومن أبى واستنكر قطعت رأسه ، وأخذوا ما كان يحمل الجيش من سلاح وكراع ومتاع وساروا إلى المدينة المباركة .

وهذا ما وصلنا من حديث خدعة البارقية والحمد لله رب العالمين .

حديث وراء الحجرات

قال (الراوى) كان النبى عليه السلام جالسا فى المسجد (مع الناس) وفيهم قوم ممن يعبدون غير الله، وبينما هم كذلك قدم عليهم ملك من ملوك الكفار فى ثلاثين فارسا ودخلوا على النبى ﷺ، وألقوا السلام عليه وعلى صحابته، فردوا عليهم السلام ورد النبى عليهم السلام، فجلسوا أمامه وتكلم رئيسهم فقال :ـ

ـ يا رسول الله، نحن من أرض بعيده، من وراء الحجرات، نخدم الآلهة ونكفر بالرحمن، وقد سمعنا ما يحكى عنك وما جئت به مما أعطاك الله من بركة وقوة على كل أعدائك. وقد جئنا إليك وسرنا ليلا ونهارا حتى وصلنا عندك، فابعث معنا رجالا من قومك يعلموننا الدين والشريعة.

فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك وقال لصحابته :ـ

ـ انظروا فيكم من يستضيفهم هذه الليلة.

وكان من عادة النبى ﷺ أنه عندما يريد استضافة أحد أن يقول :ـ

ـ من ذا يستضيف هذا الضيف وأنا كفيل له بأن يستضيفه الله فى الجنة.

فلما سمع صحابة النبى ﷺ أنه لم يخصهم بشىء سكتوا.

فقام رجل من منافقى قريش كان يعرف خبرهم وقال :ـ

ـ يا رسول الله، أنا أستضيفهم.

وذهبوا معه إلى منزله، فلما أظلهم سواد الليل أغلقوا الأبواب ووضع لهم الموائد وقدم لهم اللحوم وشراب النبيذ.

فلما رأى ملكهم ذلك قال :ـ

ـــ ما هذا ، أوليس هذا حراما عند رسول الله ﷺ ؟

قال :ـــ

ـــ أجل ، هو عنده حراما ، وعندنا حلال .

قال الملك :ـــ

ـــ عندما يشرق الصباح ، سأخبر النبى بما فعلت .

قال له الرجل :ـــ

ـــ إن أخبرته بذلك أخبرته أنا بما تكن فى قلبك ، وبما تريد أن تفعله بصحابته .

قال له الملك :ـــ

ـــ وما الذى أريد أن أفعله بصحابته ؟

قال :ـــ

ـــ تريد أن تحملهم إلى أرضك وتحرقهم بالنار .

قال :ـــ

ـــ ومن أخبرك بذلك ؟

قال :ـــ

ـــ اللات والعزى .

قال الملك :ـــ

ـــ أو تؤمن باللات والعزى ؟

قال :ـــ

ـــ نعم .

قالوا له :ـــ

ـــ إذن فعقيدتنا وعقيدتك واحدة ، تسترنا ونسترك .

وكان هذا اتفاقا بينهم .

وقال لهم :ـــ

ـــ ومن ذا تريدون أن تحملوا من الصحابه ؟

قالوا :ـــ

ــ سنطلب منه أن يعطينا أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، كى يذهب هؤلاء معنا ونقتلهم أو نحرقهم ونحرق قلوبهم فلا يرفعون رأسا بعد ذلك أبداً .

قال المنافق :ــ

ــ ليس من مصلحتكم ذلك .

قالوا :ــ

ــ لماذا ؟

قال :ــ

ــ لأن أبا بكر الصديق رفيقه وأنيسه وقاضيه ولن يفترق عنه ، وعمر بن الخطاب ثالث صحابته ، وعثمان بن عفان رابعهم . وإذا حملتم على بن أبى طالب حملتم معه النار لكم فيحرق أراضيكم ويمزق جيوشكم .

قالوا له :ــ

ــ فأى مشورة نتخذ؟ انصحنا بما ترى .

قال لهم :ــ

ــ اطلبوا خالد بن الوليد وعمر بن أمية الضمرى والمقداد بن الأسود الكندى والزبير بن العوام ، فإذا أخذتم هؤلاء وحرقتموهم أصبتم بالحزن والإنكسار كلا من المهاجرين والأنصار.

واتفقوا على هذه المشورة .

فلما أطلع الله الصباح ، واتضح نور الفجر ، أذن بلال رضى الله عنه لصلاة الفجر ، وجاء المنافق للصلاة ، ونهض النبى محمد ﷺ فتوضأ وخرج إلى المسجد ، وجاء المهاجرون والأنصار ، وجاء أصحاب وراء الحجرات ، وصلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر.

ثم قالوا :ــ

ـ يا رسول الله، ابعث معنا أربعة من أصحابك يقرؤوننا القرآن ويعلموننا الشريعة، وسنكون لهم مطيعين.

قال لهم رسول الله ﷺ :ـ

ـ ومن تريدون أن أبعثه معكم؟

قالوا :ـ

ـ خالد بن الوليد، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود الكندى، وعمرو بن أمية الضمرى.

فأجابهم النبى عليه السلام :ـ

ـ رضيت بذلك.

وقال :ـ

ـ يا صحابتى، اذهبوا معهم، ورغبوهم فى الخير وطاعة الله، واحذروا أمر الباطل، فإنه كله من عمل الشيطان.

وذهبوا إلى بيوتهم، وأخذوا أسلحتهم وركبوا خيلهم، وودعوا أهلهم، وخرجوا فى طاعة الله وأمر النبى عليه السلام.

وودعهم النبى وقال لهم :ـ

ـ سيروا، بارك الله فيكم، وليكن خالد بن الوليد قائدا لكم. وليكن الله فى حفظكم، وسينزل جبريل عليه السلام على بما يكون من أمركم.

ودعا النبى لهم، وودعوا النبى عليه السلام وجدوا فى المسير مع الفرسان الثلاثين، فقطعوا الفيافى والصحراء وساروا سبعة أيام.

فلما جاء وقت الظهر رأوا نسراً يحط فى وسط الطريق، وكان الفرسان الثلاثون يمضون فى المقدمة، وأخذ النسر يصيح وينقر نفسه وينتف ريشه، ثم طار فى الهواء إلى المدينة حتى اختفى من مرمى أبصارهم.

فلما رأى الصحابه ذلك توقفوا للتفكر.

فقال خالد بن الوليد وكان أعلمهم بلغة الطيور:ـــ
ـــ يا صحابة النبى عليه السلام، إن هذا العقاب يطلب منا ويقول لنا أن نرجع إلى مدينة النبى، لأن هؤلاء الأعداء يريدون خداعنا وقتلنا أو تحريقنا.

فقال الزبير بن العوام:ـــ
ـــ يا خالد، وكيف لا نطيع أمر نبينا؟ إن الموت لأهون لنا من العار.
وكان كل واحد منهم يعد على سرجه بعشرة آلاف فارس، وكان خالد بن الوليد يعد بأربعين ألف فارس، وهذا بتأييد الله وبفضل النبى على صحابته.

قال:ـــ
ـــ كم يركبون الخيل مع هذا الملك؟
قال خالد:ـــ
ـــ يركب معه ثلاثون ألف فارس غير المشاة، والمشاة كثيرون.
قال عمرو بن أمية الضمرى:ـــ
ـــ إننى أثق بالله وإنى لعشرة آلاف.
قال الزبير:ـــ
ـــ وأنا لعشرة آلاف أخرى.
قال المقداد:ـــ
ـــ وأنا لعشرة آلاف اخرى.
قال (الراوى) فبكى خالد.
فقالوا له:ـــ
ـــ خالد، لم تبك؟
قال:ـــ
ـــ أرى أن كلا واحد منكم أخذ عشرة آلاف، ولم يبق لى من أقاتله، لكن دعونى وحدى فسأحاربهم جميعاً بعون الله.

قال (الراوى) وبينما هم واقفون هكذا، وقف الفرسان الثلاثون حتى وصل الصحابة وقالوا لهم:ـــ

ـــ يا صحابة محمد، لماذا توقفتم؟ ألا تسيرون؟ أم أنتم تفكرون؟

قالوا :ـــ

ـــ ما جزاء من يكذب على الله ورسوله؟

قال الملك :ـــ

ـــ جزاؤه أن يقطع لسانه ويداه ورجلاه.

قال خالد :ـــ

ـــ فأنتم تستحقون هذا الجزاء.

قالوا :ـــ

ـــ لماذا؟

قال :ـــ

ـــ لأنكم قلتم إن ما بين ووراء الحجرات مسيرة خمسة عشر يوما وقد سرنا سبعة عشر يوما ولم نصل بعد إلى حيث قلتم للنبى عليه السلام.

قالوا :ـــ

ـــ حقا قلنا للنبى عليه السلام عن طريق آخر، لكن ذلك الطريق كانت به مخاطر الوحوش، أما هذا الطريق فهو آمن. وتعللوا بهذا السبب.

قال (الراوى) ثم قالوا :ـــ

ـــ سنذهب معكم فرحين، طائعين لله ولكم.

فلما اكتملت مسيرة عشرين يوما طلعوا على مدينة وراء الحجرات، عندئذ قال لهم الملك :ـــ

ـــ يا صحابة رسول الله، ابقوا هنا، وسأدخل أنا المدينة، لأن الناس يأكلون اللحم الحرام ويشربون الخمر، وسآمرهم بأن يتركوا كل ذلك، ويخرجوا لتشريفكم باستقبال عظيم.

فلما دخل الملك المدينة أخذ يفكر كيف يخدعهم، فجاء بلبن وأخذ يمخضه ويعده

لهم عندما يصلون ويقدم لهم الطعام والشراب. وقبل أن يدخل أصحاب محمد المدينة لقوا راعيا كان يرعى قطيعا من الإبل، فتقدم منه الزبير بن العوام.

وقال له :ـــ

ـــ من ربك؟

قال له :ـــ

ـــ اللات والعزى.

قال :ـــ

ـــ قل لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

قال الراعى :ـــ

ـــ لا أقولها، ولو نشرتمونى بمنشار.

فسل الزبير سيفه، وقطع رأسه، وسارع الله بروحه إلى النار.

وعندئذ خرج الملك ومعه قعب اللبن المخصوص.

فقال الملك :ـــ

ـــ ماذا فعلت يا زبير؟

قال :ـــ

ـــ أيها الملك، إن هذا الغلام لم يدع خدمة الآلهة، ولم يرد أن يقول كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فأخذته بالقصاص

حينئذ ضحك الملك وقال له :ـــ

ـــ لكم يسرنى ما فعلته وما قلته يا زبير، وهكذا فلتفعل بكل من لا يطيع أمرك

ثم قال الملك :ـــ

ـــ يا صحابة رسول الله، لقد نظرت فى طعامكم، ولم أر شيئاً يناسبكم ويناسب أكلكم سوى اللبن الحلو.

وكان من عادة صحابة رسول الله ﷺ أنهم يطعمونه كثيراً، فأخذوا اللبن وشربوه، فلما شربوه ناموا.

وعندما رأوهم نياما أخذوهم وربطوهم ووضعوا لهم السلاسل والأغلال وحملوهم إلى ميدان فى وسط المدينة ونصبوا فيه الخيام، وأمر الملك بألف فارس أن يحيطوهم ويحرسوهم.

وكان خالد بن الوليد عنده خاتم فى أصبعه، وكان كل من يضع هذا الخاتم لا يؤثر فيه أى شيء ولا أى سم، ولا يبقى فى جسمه أكثر من ساعة نعاس.

فلما استيقظ خالد ووجد رجليه مغلولتين ويديه مكبلتين بالحديد.

قال :ــ

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ومسّ أصحابه بخاتمه فاستيقظوا من نومهم ورأوا ماحدث لهم، فأخذوا يرددون قولهم :ــ

ــ لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وتكلم الزبير فقال :ــ

ــ يا صحابة رسول الله، لا تحزنوا ولا تبتئسوا، فالله سبحانه وتعالى قد يوحى إلى نبيه عليه السلام بما يجرى علينا إن شاء الله، مما سيكون فرجا لنا.

وبينما هم كذلك دخل عليهم الملك ليراهم، فوجدهم قد استيقظوا من نومهم، فقال لهم :ــ

ــ ماذا حدث لكم وأين شجاعتكم ومهارتكم؟

فقال خالد بن الوليد :ــ

ــ يا عدو الله، ما تظن أنك فاعل؟ وأين وعدك الذى وعدته لنا؟ وما قلته للنبى ﷺ؟ أوليس للكفار ثقة فيما عند الله ورسوله؟

قال الملك :ــ

ــ واللات والعزى إنه لا ينبغى أن يكون لى ثقة فيكم ولا إكرام لكم، لأنكم أعداؤنا، أو لم تروا كيف منحتنى اللات والعزى سلطانا عليكم؟

فأجابه الزبير قائلا :ـــ

ـــ صه يا عدو الله ، فوالله لسنا فى قبضتك ، وإنما بأمر الله .

فقال الملك :ـــ

ـــ من يريد أن يرى تحريق صحابة محمد فليحضر ليراهم يحترقون .

أخبرونى :ـــ

ألم يزعم نبيكم ويدعى أن له ربا فى السماء يطلعه على جميع الأسرار؟ فلم لم يخبره بما جرى عليكم وبما كنت أكنه فى قلبى وأعتزمه ، وبما كانت عليه مسيرتنا إلى أرضكم وإحضاركم من بلادكم . فلو كان حقا ما يقول لأخبره به ربه . إلا أن من يعبد اللات والعزى ينتصر ولا يغلب .

وأجابه خالد بن الوليد :ـــ

ـــ اصمت يا عـدو الله ، فأنت تنطق بقول الأحمق

(ثم) قال :ـــ

ـــ سترى أيها الملك فارس العرب ، من يشد الشدائد ، وابن عم النبى ، سيف الله المسلول على أعدائه ، سيبطل صنعك ويحبط سعيك ، ويمزق قومك ويشتت أرضك ، أما نحن فإننا فرحون بما قضاه الله علينا .

قال له الملك :ـــ

ـــ سنصنع بكم ما نريد ، فقولوا ما تريدون .

وتركهم عدو الله ، وأمر القوم بأن يحرسوهم جيداً ، ويحيطوا بهم ويشدوا سيوفهم على وسطهم .

فلما جاء الليل عليهم وحل الظلام ، أمر الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام وقال له :ـــ

ـــ اذهب إلى محمد حبيبى ، واحمل له منى السلام ، وقل له إن الصحابة الأربعة الذين بعثتهم مع هؤلاء الفرسان الثلاثين يعانون النصب والبأس الشديد ، فهم مكبلون بالحديد والأغلال .

وهبط جبريل بأسرع من طرفة العين وقال :—

— يا محمد، إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك إن أصحابك الذين بعثتهم مع الفرسان الثلاثين فى بأس شديد مكبلون بالأغلال، وهذا الكافر الذى حملهم يعتزم حرقهم، وقد وعد الله بنجاة أصحابك ودمار هذا الملك على يد ابن عمك على بن أبى طالب.

فنهض النبى عليه السلام وذهب إلى بيت على وطرق الباب طرقاً خفيفاً، فنهض على رضى الله عنه وفتح الباب وقبل النبى عليا بين عينيه وقال له :—

— يا حبيبى، يا ابن عمى، إن الله تبارك وتعالى يقرؤك السلام، وقد أخبرنى جبريل أن الذين ذهبوا مع الفرسان الثلاثين فى بأس شديد، وأن الله تعالى أذن بإنقاذهم وهلاك الكافر على يديك، وأنه وعدك بفرح عظيم.

قال على رضى الله عنه :—

— يا رسول الله، والذى بعثك بالحق مبشراً ونذيراً لو أمرتنى بأن أحارب الجن والإنس لفعلت طاعة لله وتشريفاً لك يا رسول الله.

قال له :—

— يا على، البس سلاحك واركب جوادك واطلق عنانه، فالله تعالى سيطوى لك البيد ويقرب منك البعيد، ويهديك إلى مكان الصحابه.

ففعل على ما أمر به النبى عليه السلام واستوى على سرجه وراح فى النوم.

فلما استيقظ سمع صياح الكفار وما كانوا يقولون حول المدينة، وكان الرجال يضحكون ويلعبون فلم يشعروا بعلى ولا بما يحل بهم.

وعندما ترجل على بن أبى طالب من على فرسه وتركه يرعى فى الوادى أمسك بالسيف فى يمناه والدرع فى يسراه ولبس عمامته واستخفى من الكفار وسمى الله، وانطلق حتى رأى الخيمة فدار حولها ليسمع من فيها، فسمع خالد بن الوليد يقول :—

ــ يارب، أنت تعلم أننا خرجنا من أرضنا لا نبغى ربحاً ولا نسعى لمتاع الدنيا، ولا حبا فيها ولا طمعاً، بل أنت تعلم أن خروجنا كان طمعاً فى حبك وطاعة لك، وحب نبيك الكريم يارب، أعنا وارحمنا ونجنا ومن معنا وادفع عنا وأنقذنا على يد على ابن أبى طالب.

فرفع على الباب ودخل عليهم وقال لهم :ــ

ــ أبشروا أيها الناس، يا خالد، لقد سمع الله دعاءك، وقطع على السلاسل كأنها من الكتان وأخرجهم من الخيمة وحملهم إلى المرج الذى ترك فيه فرسه.

ثم عاد إلى المدينة، وساق خيلا لهم، وسمع عجوزا يقول :ــ

ــ يا أبنائى، هيا بنا إلى حيث التعذيب والعقاب، لتشهدوا كيف سيحرق صحابة محمد، ولنحمل الحطب.

وامرأة العجوز كانت أيضاً تقول :ــ

ــ أبنائى، انهضوا من فرشكم، وسترون العجائب، مما لم تروا من قبل أبداً، فقد أحضروا اللحود ليضعوهم فيها مكبلين بالأصفاد، لكى يحرق الملك صحابة محمد الساحر.

فلما سمع على ذلك دخل على العجوز بيته وعلى امرأته وقطع رقبة كل منهما فسارعت روحهما إلى النار.

ثم عاد إلى المرج مع الصحابة وقالوا :ــ

ــ لا إله إلا الله والله أكبر.

ومن هنا إلى أن أشرق الله صباح الخير نهض عدو الله الملك وجاء إلى الخيمة يتفقدها، فلم يجدهم، بل وجد السلاسل مقطوعة فصاح صيحة ارتجف لها أهل المدينة ووقع الملك مغشيا عليه.

فاجتمع حوله رجاله وقالوا له :ــ

ــ مولانا الملك، ماذا حدث؟

فأفاق من غشيته وقال :ــ

ــ لقد ضعنا وهلكنا أيها الأشقياء، أين الأسرى الذين تقومون على حراستهم ؟
قالوا له :ــ
ــ واللات والعزى لم نر ولم نشعر بأحد.
ورفعوا رؤوسهم فرأوا فتى يطل عليهم وهو يعدو كالريح صائحا بهم ومناديا عليهم ، فأوسعوا له مكاناً حتى قدم وقال :ــ
ــ لقد رأيت خمسة فرسان.
فلما (أشار) الملك لهذا الفتى أن يتقدم ويخبره بما حدث ، قال الفتى ماقاله على له :ــ
ــ قل لمولاك المخادع إن عليا والفرسان الأربعة قد نجاهم الله من قبضته.

وخرج الملك بجنوده وفرسانه ومشاته ؛ بثلاثين ألف فارس وأكثر من عددهم مشاة ، خرجوا إلى ميدان عظيم وانتظموا فى فرق متهيئين لطرق القتال ، فاكتظ الميدان بأعداء الله.

قال على رضى الله عنه لصحابته :ــ

ــ اجعلوا أنفسكم اثنان عن يمنى واثنان عن يسارى واتركونى وحدى فى وسطهم.

وأخذت المقدمة والمؤخرة تتساقط أفواجا ، وأصدقاء الله (!) يثخنون الجراح فى أعداء الله ، فلا يرى إلا وميض السيوف بينهم و(هى تتخلل)الغبار كأنها البرق بين السحاب ، وقاتلوا أعداء الله ، فلا يُرى إلا من يقع عن اليمين وعن اليسار. وطال القتال ، واشتدت حرارة الشمس وجهدوا من الغبار والعطش ، فكان الناس يقعون موتى على بعضهم.

وكان الذين يموتون هم الكفار ، ويهرب الآخرون منهم حتى يدخلوا المدينة ، وعلى بن أبى طالب وأصحابه يحاصرون المدينة.

واخذوا يقول بعضهم لبعض.

ــ ما حاجتنا إلى اللات والعزى؟ والله أولى وأحق. وإن الله يعيننا كى لا يخاف أحد.

فأجابوا جميعهم إلى ذلك، وهبطوا كلهم من فوق الأسوار، وفتحوا أبواب المدينة، وصاحوا بعلى وأصحابه قائلين :ــ

ــ نحن نريد ونفرح بأن نكون مسلمين، مطيعين لأمر الله، فافعلوا بنا ما تريدون، فنحن نؤمن بالله ونكفر بما سواه.

وأسلموا وحسن إسلامهم. وجمع على أصحابه وخطب فيهم خطبة كاملة، وأخذوا أسلاب الموتى جميعهم، فحملوا ما يرغبون، وعادوا إلى مدينة يثرب الطيبة فرحين منتصرين.

وظلوا دائماً يحاربون فى سبيل الله حتى حضرهم الموت.
فهذا ما بلغنا عن معركة حديث وراء الحجرات والحمد لله رب العالمين.

هذه معركة بدر وحنين (!!)

روى عن عبدالله بن عمر قال: عندما غزا النبى ﷺ مكة حطم أصنام هبل ونائلة والقصير، وقتل أناس كثيرون منهم، وأسر بعضهم وهرب بعضهم الآخر، منهم غالب بن أمية (؟) وعكرمة بن أبى جهل، فضوا شهراً ضد النبى ﷺ، ثم صاروا مسلمين طيبين وحسن إسلامهم.

ووصلت الأخبار إلى مالك بن عوف النصرى، وكان عظيماً فى قومه مطاعاً بينهم، فأمر بأن ينادى جميع البلاد وبين كل قبائل العرب كى يأتوا لعونهم ضد محمد ابن عبدالله، فأجابوه جميعاً بالطاعة وأنهم سيذهبون مشاة وفرسانا.

وهكذا كانت أول قبيلة هم بنو النضير، فجاءوا وفى مقدمتهم قائد يدعى سابق ابن مروان. ثم جاءت مزيان فى أربعة آلاف فارس وكان فى مقدمتهم قائد يسمى مازن بن مازن. ثم جاء بنو عامر وعلى رأسهم عطاء بن طارق. وكان مع كل قائد أربعة آلاف فارس، ومثلهم مشاة. ثم جاء بنو الملوّح (؟) فى أربعة آلاف فارس وفى مقدمتهم قائد يدعى الحارث بن مواه (؟) فاجتمع ما بين فارس وراجل ستة وعشرون ألفاً.

فلما ساروا ووصلوا قرب قصر مالك بن عوف رآهم مالك وخرج للقائهم وقال لهم:ــ

ــ أيها الناس، يا فرسان العرب، تعرفون كيف غزا محمد بن عبدالله مكة وظهر على قريش بالسيف والرمح، وأخشى أن يجتاح محمد أراضيكم ويقتل رجالكم وشجعانكم، وينهب حصونكم ويأسر نساءكم وأولادكم.

فأجابوه جميعاً وقالوا له :ـــ

ـــ إذن نود أن نذهب إلى محمد بخيلنا ورجلنا حتى يعود هبل إلى مكة .

عندئذ قال مالك :ـــ

ـــ أيها الناس، مادامت هذه مشيئتكم فأعدوا سلاحكم وخيلكم فإنى أريد أن أطلب مزيداً من العون من عروة بن مسعود .

فقال له الناس :ـــ

ـــ حسناً تفعل

فأمر بحبر وورق ، وكتب رسالة إلى ثقيف يقول فيها :ـــ

« لقد كنت دائماً حليفاً لكم ، والآن أجهز الجيوش وأجمعها كى نقضى على هذا الساحر الكذاب محمد بن عبد الله ، فتعالوا مدداً لنا يا بنى عروة » .

فلما وصلت الرسالة إلى عروة ، وأدرك كيف تجتمع الجيوش والأجناد أمر قومه بالاجتماع ، فجاءوا فى أربعة آلاف فارس وقالوا له :ـــ

ـــ أيها السيد، ماذا حدث لك ؟

قال لهم :ـــ

ـــ يا أصحابى ، وصلتنى رسالة من مالك بن عوف النصرى ، يطلب منى عونه ضد محمد بن عبد الله ، وأنا أقول إن محمداً معان وغالب ، وهو لا يضر ولا يضار، لكنه يحارب من يقاتله ويحطمه ويأخذ أرضه ، فشورتى أن تظلوا ساكنين .

فأجابه قومه وقالوا له :ـــ

ـــ وكيف يصير الأمر؟ كل قبائل العرب ستمضى فى عونه ، ولو لم نذهب نحن لقالت العرب إننا تخلفنا خوفا من محمد.

قال لهم عروة :ـــ

ـــ يا قوم ، مادامت هذه رغبتكم فعليكم أولا بتقوية حصونكم كى تضعوا فيها أمتعتكم ونساءكم وأبناءكم .

قال الراوى، فتركوا من يعمل على تقوية حصونهم، وكان لهؤلاء القوم قلاع وحصون شديدة.

وعندئذ أمر عروة بإعداد السلاح والكراع والخيل، وساروا إلى حيث كان مالك. فلما رأى مالك عروة وقومه فرح فرحاً عظيماً وأمر بأن تنحر لهم الذبائح العديدة، وتوفر لهم اللحوم من كل نوع والمشروبات الكثيرة، فأكلوا وشربوا حتى ثملوا.

وقال مالك :ـــ

ـــ كيف نرضى أن يقضى علينا محمد بهؤلاء الناس.

وجاء إبليس يرتدى دثار نعام ويتلفع بغطاءين للرأس أحدهما أصفر والآخر أشهب، ويمتطى فرسا يصعد أكثر من غيره، ويتكلم وهو يبكى.

قائلا :ـــ

ـــ يا قوم، دعوا النعيم والترف، واعرضوا جميعاً أسلحتكم حتى لا تفقدوا شرفكم.

فلما سمع الناس قول إبليس لعنه الله قالوا له :ـــ

ـــ ومن أين أتيت يا شيخ؟

قال لهم :ـــ

ـــ جئت من مكة.

قالوا له :ـــ

ـــ وماذا فعل بها محمد؟

قال :ـــ

ـــ دخلها بقوة السلاح، واللات والعزى لقد حطم جميع الأصنام.

وقالوا له :ـــ

ـــ يا شيخ، وماذا فعل مع هبل؟

قال :ـــ

ــ حطم جوانبه وأجزاءه كلها ، وقذف به مكسوراً على الأرض، وداسه برجليه ، فركل وقذف إلى أرض الصفا حتى يفتته الكبار والصغار.

فقالوا له :ــ

ــ وماذا فعل بأساف ونائلة ؟

وكان هذان رجلا وامرأة ارتكبا الزنا فى البيت العتيق فأحالهما الله حجراً صلدا ، وكانت قريش تعبدهما من دون الله .

قال :ــ

ــ كلها حطمها تحت أقدامه .

قال الراوى ، فصاح مالك فى جنوده ، وأمر بإعداد السلاح والخيل والكراع ، فلم يعد يسمع إلا الصياح وصهيل الخيل وبريق السلاح والرماح والسيوف والمغافر، فعجب مالك من شدة ضجيج القوم .

وكانوا يقولون :ــ

ــ هيا إلى غنائم محمد ، سنقتسم الأسلاب .

وسارت هوازن مع ثقيف ، وفى الساقة النساء والأطفال والإبل والشاء وكل ما يملكون .

وكلما صهلت خيول هوازن وثقيف ارتفع ضجيج الكتائب وانتشر الغبار الكثيف حتى صار كالسحاب . ولم يتوقفوا عن السير حتى وصلوا إلى نهر طون (؟)، وأقام الناس هناك . وكان يقيم هناك فى هذا الوادى دريد بن ثابت وهو من الكفار.

فدخلت امرأة من الجيش بيت دريد وهى تحمل فى ذراعيها طفلا يبكى .

فقال لها دريد :ــ

ــ يا امرأة ، إلى أين تذهبين ؟

قالت المرأة :ــ

ــ ألا ترى هذا الجيش ؟

فنهض دريد، وذهب إلى الجيش وقال :ـــ
ـــ يا قوم، مالى أرى لكم ضجيجاً شديداً ورغاء وصهيلا ؟

قالوا له :ـــ
ـــ يا دريد، مالك ساكتاً هكذا ؟ فهذه هى الجيوش التى نزلت هنا كى تحارب محمداً بن عبدالله.

قال دريد :ـــ
ـــ ويل لى، أعطونى سلاحى وفرسى.
فأحضروا له فرسه وكان ضعيف البصر، فركب دريد، وذهب إلى جماعة مالك ابن عوف.

فلما رآه مالك نزع سيفه سروراً وفرحا، وقال له دريد :ـــ
ـــ يا مالك، أى جيش هذا ؟
قال له مالك :ـــ
ـــ الجيش الذى جمعته لأحارب محمداً بن عبدالله.
فقال دريد :ـــ

ـــ مالى أراك قد أحضرت النساء والأطفال والأموال فى جيشك، أليس من الأفضل إحضار المحاربين بالسيف والقوس والرمح، إن هذا أحب إلى يا مالك، لأنها لو دارت علينا كانت الأموال لمحمد وأصحابه.

قال مالك :ـــ
ـــ واللات والعزى لو لقينا محمداً بفرساننا ومشاتنا لرأوا نساءنا وأموالنا وأصابهم الحزن ولرأوا الموتى فى الأرض ولكانت الهزيمة لمحمد.

قال دريد :ـــ
ـــ واللات والعزى للسوائم التى ترعى فى الجبال أعقل منك، وللإبل التى تساق فى الأموال أحكم منك. أفتأتى لتحارب محمداً بها وبالنساء والأطفال ؟

وكانت جيوش مالك مقيمة معسكرة على نهر طون ، والنبى محمد ﷺ لا يعرف ذلك .

حينئذ جاء أعرابى إلى النبى محمد ﷺ على فرس ، ووصل إلى مكة ، ونزل من على حصانه وربطه ، وذهب للنبى ﷺ وقال له :ــ

ــ السلام عليكم يا رسول الله .

قال النبى محمد ﷺ :ــ

ــ السلام على من اتبع الهدى وخاف عاقبة الشر والضلال .

قال الأعرابى :ــ

ــ يا محمد ، جئت لأحذرك وأنصحك ، فتقبل ذلك منى .

قال رسول الله :ــ

ــ ما هى نصيحتك يا أخ العرب ؟

قال الأعرابى :ــ

ــ يا محمد ، لقد رأيت هنا أصحاب مالك من هوازن وثقيف ، اجتمعوا على نهر طون ، بثلاثين ألف فارس وراجل ، وأقسموا وتعاهدوا على أن يحطموك فى مكة ويعيدوا صنم هبل إلى مكة .

قال رسول الله :ــ

ــ ومتى يكون هذا يا أعرابى ، فإن لدى ربا هو علام الغيوب والمطلع على الأسرار جميعاً .

قال الأعرابى :ــ

ــ يا محمد ، انظر إلىّ هنا بين يديك ، فلو كنت أكذب لتقطعن رأسى ، ولو كنت أقول الحق فحسبى ذلك من شرف هذه الدنيا .

قال (الراوى) وبينما كان النبى يتحاور معه نزل جبريل عليه السلام .

وقال له :ــ

ــ يا محمد، إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك إن الأعرابى يخبرك بالصدق، والله يأمرك أن تخرج إليهم.

عندئذ بادر النبى عليه السلام، وبرفقته مجموعة من صحابته ورفع علامة من مدينة مكة وصاح قائلا :ــ

ــ أين أنس بن مالك؟ أين سلمان الفارس؟ أين صهيب؟ أين بلال بن حمامة؟

فأجابوه جميعاً :ــ

ــ لبيك يا رسول الله.

فقال لهم النبى عليه السلام :ــ

ــ اخرجوا يرحمكم الله من فجاج مكة وقولوا : أين المهاجرون والأنصار؟ أجيبوا نبيكم عليه السلام (للأمر) الذى جاءه من قبل الله تعالى.

فنادى المؤذنون وجاء الناس من كل صوب واجتمعوا كلهم وصعد النبى على هضبة من الأرض، وألقى خطبة تامة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :ــ

ــ أيها الناس، رحمكم الله، هؤلاء هم هوازن وثقيف، أخبرنى الله ربى أنهم قد جمعوا ثلاثين ألف فارس وراجل فى وادى طون، والله يأمرنى بالخروج إليهم فقد أقسموا على هدم مكة.

فماذا تقولون رحمكم الله؟

قال المسلمون :ــ

ــ مشورتنا هى مشورتك، ورغبتنا هى طاعة الله وطاعتك يا رسول الله.

فطلب لهم المثوبة على ذلك ووعدهم بالفوز والخير العميم.

ثم أمر النبى عليه السلام أن يسارعوا فى الرحيل.

ثم نادى على بن أبى طالب وقال :ــ

ـــ يا قوم، من كان منكم مريضاً أو جريحاً فليمتنع عن الخروج إلى هذه المعركة التى سيكون شأنها عظيماً.

فأجابه رجل يدعى (أبو سفيان) وقال له :ـــ

ـــ يا على، كيف تريد أن تهزأ بالرجال وتوهن عزيمتنا وتحط من قدرنا ؟

فاغتاظ على من جواب أبى سفيان، وسل على سيفه وسيل سيفه أبو سفيان وشد كل منهما على الآخر، فدخل النبى عليه السلام بينهما، ووضع يده اليمنى على سيف على واليسرى على سيف أبى سفيان، وجعلهما يتعانقان فأطاعا أمره.

وعندئذ خرج النبى عليه السلام من مكة وسار فى اثنى عشر ألف من جنوده.

وأمر النبى بأن يحضروا راية، وأعطاها للعباس بن مرادس فأخذها فى يده وألقى أبياتا من الشعر، ثم أمر براية أخرى وأعطاها لعمه العباس بن عبد المطلب فأخذها وسار بها حتى جلس فى مكانه، ثم أخذ راية أخرى وأعطاها لأبى عبيدة ابن الجراح، وأخذ راية أخرى وسلمها لسماك بن.. (؟)، وأمر براية أخرى وأعطاها للزبير بن العوام، ثم أمر براية أخرى وأعطاها لعبدالرحمن بن عوف، وأمر براية أخرى وأعطاها لأبى بكر الصديق. ثم أمر برايتين وأعطاهما لعلى بن أبى طالب فسار بهما وسار معه بنو هاشم.

وأخذ النصر بن ثابت زمام ناقة النبى عليه السلام، وطلب النبى ﷺ من عمه العباس أن يسير ويهتدى بطريق الجلدان (؟) وعلى هذا النهر كانت هناك شجرة عظيمة، وكانت قريش تعظم هذه الشجرة وتنحر لها الذبائح الكثيرة والنسك من أموالها، فلما مروا بها ورأوها سجد لها بعض أهل قريش، عندئذ قال النبى محمد :ـــ

ـــ سبحان الله، أو كفر بعد إيمان، أولا يسركم أنكم كنت تذهبون إلى الحرب تسوقون اللات والعزى والآن تذهبون إلى الحرب مع الله ورسوله، وترجعون بالعفو والفوز العظيم ؟

حينئذ قالوا :ـــ

ـ يا رسول الله، ادع الله لنا أن يغفر ذنوبنا، فأنت تعلم قرب عهدنا بالإيمان والإسلام.

وسار النبى محمد ﷺ مع قواته، إلا أن الفرسان ما لبثوا أن أخذوا يتدافعون إلى المؤخرة ويتلاقون جماعات، فنادى فيهم النبى ﷺ وقال :ـ

ـ ما هذا الذى تتدافعون عنه يرحمكم الله؟

قالوا له :ـ

ـ يا رسول الله.. ثعبان ضخم يغطى كل الوادى.

قال النبى محمد ﷺ :ـ

ـ أفسحوا لى مكاناً حتى أراه كله.

فلما رآه النبى ﷺ جلس على ذنبه، فنادى قائلا :ـ

ـ السلام عليكم يا رسول الله.

فرد النبى عليه السلام وقال :ـ

ـ السلام على من اتبع الهدى وخشى عاقبة الشر والضلال. قل لى يا ثعبان، أو أنت من الجن أو من الحيوان؟

قال :ـ

ـ أنا من الجن يا رسول الله، وأنا من المؤمنين بك حتى يوم الحشر يا رسول الله، وقد جئت لأساعدك فى صحبة اثنى عشر ألف جنى.

قال النبى عليه السلام :ـ

ـ عد وأنصت لمن يقرأ القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم.

ثم قال النبى محمد، ﷺ :ـ

ـ وأين هذه الجماعة من صحابك؟

(قال الراوى) فأشار إلى جوف الوادى أمامه.

فالتفت النبى عليه السلام إلى أصحابه وقال لهم :ـ

ـ أو ترون شيئاً يرحمكم الله؟

قالوا :ـ

ـــ نعم ، لقد رأينا يا رسول الله شيئاً مثل الدخان الأخضر.
قال النبى ﷺ :ـــ
ـــ ابتعدوا عن طريق المسلمين أيها الجن .
فانحرفوا عن الطريق ، واستأنفوا السير.
ورأوا الكفار وقد انتقلوا إلى نهر طون (؟) وأقاموا فى وادى حنين .

وعندئذ نادى مالك على فرقة من أصحابه وأمرهم بأن يكروا على صحابة محمد ، فقدموا عليهم وبدوا كأنهم قطيع ضخم من السوائم . فلما رأوا جيش النبى ﷺ عادوا إلى كتائبهم وقالوا لهم :ـــ

ـــ ياويلنا ، واللات والعزى لقد جاءكم محمد فى جيش هائل من المشاة والفرسان .

فلما سمعوا ذلك وقع بينهم الصياح ، وكان رجل منهم قد دخل فى جيش محمد ﷺ ورأى أن محمداً ... (بياض فى الأصل) .

وأمر النبى ﷺ قومه بأن يتقدموا .
فلما رأى مالك ذلك قال لقومه :ـــ
ـــ أى شىء جعلكم تخافون وتفزعون ؟
قالوا له :ـــ
ـــ يا مالك ، خوفا من أصحاب محمد ، واللات والعزى لو وصلوا إلينا ما بقى منا صغير ولا كبير.

عندئذ نادى مالك على عبد أسود كان عنده ، وكان عظيم العلم شديد الفهم والفطنة ، وقال له :ـــ

ـــ يا غلام ، تعالى معى نصعد إلى قمة هذه الهضبة .
فصعدا ، وقال له مالك :ـــ
ـــ يا غلام ، انظر إلى هذا الجيش ، وانظر ما ترى فيه .

فنظر وقال :ـ

ـ أرى رجلا عريض الجبهة ، وفى يده راية صفراء.

قال مالك :ـ

ـ أو تعرفه ؟

قال :ـ

ـ لا .

قال :ـ

ـ هذا هو العباس بن مرادس السلمى.

قال الغلام :ـ

ـ أرى رجلا معه راية سوداء وثيابه سوداء.

قال ماللك :ـ

ـ هذا هو العباس بن عبد المطلب .

فأضاف قوله :ـ

ـ أرى رجلا معه راية صفراء، وثيابه حمراء ضاربة إلى الشقرة من بينهم جميعاً .

قال مالك :ـ

ـ هذا هو الأقرع بن حارث (حابس؟) .

وأضاف قوله :ـ

ـ أرى فارساً يلبس ثيابا بيضاء وراية بيضاء.

قال :ـ

ـ هذا هو عبدالله بن راحلة (رواحة ؟) .

وأضاف قوله :ـ

ـ أرى فارساً ومعه راية بيضاء وزرقاء وملابس زرقاء وعمامة زرقاء.

قال مالك :ـ

ـ هذا هو مقداد بن الأسود الكندى.

وأضاف قوله :ـ

ــ أرى فارساً طويلا ، عظيم الهيئة ، عريض المنكبين، ضخم العظام مرة يمسك بيده اليمنى وأخرى بيده اليسرى ومعه رايتان.

قال مالك :ــ

ــ هذا الفارس هو على بن أبى طالب.

أردف قائلاً :ــ

ــ أرى فى قلب الجيش فارساً ليس بالطويل ولا بالقصير، أبيض، شعره يلمع مثل ضوء الشمس وتنظر إليه الكتائب كلها.

قال مالك :ــ

ــ هذا هو محمد بن عبدالله الهادم الأكبر وغالب أبطالنا نبى هؤلاء القوم.

قال :ــ

ــ هيا بنا إلى جيشنا فقد عرفنا أمرهم.

وعادا إلى دريد، وإلى أصحابهما، وقال لهم مالك :ــ

ــ يا قوم، لا تخافوا منهم، فهذا هو محمد بن عبدالله جاء فى اثنى عشر ألف من الفرسان وأنتم ثلاثون ألفاً، ولن تغلبوا وأنتم الكثرة من القلة.

قال ناظم هذه الروايات، وتأهبت الجيوش وجهاً لوجه واصطفت الفرق، وتجهزوا بأسلحتهم، وصوبوا نواظرهم، وشدو لجم خيلهم، وشرعوا رماحهم، واستعدوا للنزال، فتقدم الشرفاء، وتراجع الدهماء، وأظهر الأبطال والفرسان زهوهم، واشتعلت حرارة الشمس واشتد قيظها، وحمى الضجيج بين الكتائب، فانبهر الفرسان والمشاة للطنين، وثار النقع الكثيف، فحمى وطيس القتال، وتعالت الآهات والصرخات حتى كادت الشمس أن تحجب.

وحينئذ صاح إبليس لعنه الله :ــ

ــ مات محمد بن عبدالله.

فوقع وقر ذلك فى قلوب المسلمين وعلى أسماعهم واشتد بهم الفزع وفروا هاربين حتى لم يبق أمام النبى محمد ﷺ سوى عشرة من أصحابه.

قال ابن عباس :ـ

ـ سبحان الله، والله لم أر من قبل مثل شجاعة النبى عليه السلام فى هذا اليوم إذ رمى بالعصابة من فوق رأسه وحمل على المشركين فأخذوا يفرون أمامه حتى يهوون فى وادى حنين فيسقطون من الجبل وتندق رؤوسهم أمامه كما لو كانوا حصى يقع من السماء.

ثم عاد إلى صحابته، فلم يجد سوى عشرة منهم فقال للعباس :ـ

ـ اصعد إلى الجبل، وناد المسلمين.

قال العباس :ـ

ـ يا ابن عمى (أخى ؟) وإلى أين يصل صوتى ؟ فالناس قد هربوا فى الوديان والسفوح.

قال النبى عليه السلام :ـ

ـ نادهم يا عمى، فالله سيرفع صوتك.

فصعد العباس إلى الجبل ونادى وقال :ـ

ـ إلى أين تذهبون يا صحابة محمد، الزموا هنا نبيكم فهو حى لم يمت، ارجعوا، ارجعوا إلى المعركة يرحمكم الله.

فسمع المسلمون صوت العباس، وعادوا إلى النبى عليه السلام.

وقالوا له :ـ

ـ يا رسول الله، ادع الله لنا كى يغفر هذا الذنب، فالشيطان قد صرخ فينا، ومضينا مذعورين.

فدعا النبى ﷺ لهم.

ثم طلب النبى عليه السلام على بن أبى طالب فقال :ـ

ــ سبحان الله، وأين على رضى الله عنه فهو الذى لا يغلب؟ والله بكل شىء عليم.

عندئذ نزل جبريل عليه السلام وقال :ــ
ــ يا رسول الله، إن الله يأمر أن تصعد إلى الجبل وتنظر إلى ابن عمك على بن أبى طالب.

قال (الراوى) فصعد النبى ﷺ ونظر فرآه يقاتل الكفار بيده اليمنى وبيده اليسرى ويسوقهم كالشياه أمامه فيتوزعهم الوادى عن يمينه و يساره.

وقال جبريل :ــ
ــ يا محمد، إن الملائكه فى السماء يعجبون بعلى.
فتبعه النبى ﷺ ووجد هناك بحراً من الدم حوله فنظر إليه فرأى سبعين جرحا، فأخذ النبى ﷺ قدحاً من الماء، ومر بيده المباركة على الجراح فشفيت بإذن الله وفضله.

قال (الراوى) ثم خرج من بينهم فارس يسمى ذا الخمار وكان بطلا صنديداً قو يا، فوقف فى منتصف الميدان كأنه وحش كاسر يطلب النزال وينشد الأشعار. فخرج للقائه مسلم يسمى زيد بن عمر، فشد كل منهما على صاحبه وجرحا بضربتين، ثم ضربه ذو الخمار ضربة طرحته على الأرض فسقط ميتاً وسارع الله بروحه إلى الجنة.

ثم وقف بين الفريقين وقال :ــ
ــ من ذا يخرج لى؟
فلم يجبه أحد.
عندئذ قال ذو الخمار:ــ
ــ يا محمد، أين فرسانك وشجعانك وذوو الشأن من قومك؟ أين الليث الغاضب على بن أبى طالب؟.
قال النبى ﷺ.

ــ يا على، أتحب أن تخرج لهذا الفارس؟

قال :ــ

ــ أجل يا رسول الله.

فخرج إليه على وهو يقول :ــ

ــ اللهم إنى أتقى الكفر باسمك وقدرتك، وأعوذ بك من الخوف والفزع عند لقاء الأبطال.

ولما رآه ذو الخمار عرفه وقال له :ــ

ــ يا على، لكم اعتاد فؤادك الضرب والطعن فى كل تلك المعارك وخرجت غالباً، والآن تستحث فؤادك وفؤاد محمد بن عبدالله لصراعى، فائت بكل قوتك فإنك لم تحارب فارساً من قبل مثل من يقف أمامك.

وعندئذ حمل كل منهما على الآخر، وتحاربا زمناً طويلا، وتعلقت بهما أبصار الفريقين. فرأوا عليا وقد علاه بضربة شطرته نصفين، فبتر السيف الفارس والفرس وانغرس فى الأرض فشقها شقاً عميقاً، وسارع الله بروحه إلى جهنم.

وصاح على :ــ

ــ الله أكبر.

فهتف المسلمون جميعاً :ــ

ــ الله أكبر.

وتبعوا عليا وهو يشتد على الكفار حتى كروا راجعين، وتفرقوا أشتاتاً، وقتل فى نهر « طون » خلائق كثيرة، ووقع فى الأسر كثيرون.

وكانت تكبيرات المسلمين وتكبيرات الملائكة عجباً لمن يسمعها.

وأمسك العباس بشخص معصوب بعصابة من الديباج الأخضر، وقال العباس :ــ

ــ والله لقد حسبتها لفتاة، فحملتها لأقدمها للنبى عليه السلام، فتقدم إلى فارس من فرسان المسلمين وقال لى :ــ

ـــ يا عباس، من صاحب هذه العصابة ؟

فقال له :ـــ

ـــ أظنها لإحدى الجوارى .

قال له :ـــ

ـــ بئسما حسبت يا عباس، فلو كان هو إبليس الشيطان الرجيم وحل الظلام مع سواد الليل فربما انطلق ومس بالشر بعض المسلمين .

عندئذ جعله يكشف عن نفسه ، فإذا به دريد الملعون ، وكان دريد هذا عدوا لمحمد ﷺ ، فقال العباس :ـــ

ـــ أأنت دريد يا عدو الله وعدو رسوله ؟

وسل العباس السيف وضرب دريد ، غير أنه كان محصناً بالسلاح والحديد فلم يبلغ منه السيف شيئاً ، ففك العباس مغفره وقطع رأسه وحملها للنبى وقال له :ـــ

ـــ يا رسول الله ، هاهى ذى رأس دريد الملعون .

ففرح النبى عليه السلام فرحاً عظيماً ، وأمر بإحضار الأمتعة والغنائم والإبل ، وأعطى لكل قائد مائة جمل ، وأعطى للمسلمين قسمتهم ، ولعائشة جاريتين .

ورجع النبى عليه السلام إلى المدينة فرحاً مظفراً منتصراً على الكفار ناشراً للإسلام .

وهنا تنتهى غزوة النبى محمد ﷺ ضد مالك بن عوف النصرى بيركة من الله تعالى رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبى الكريم

هذه معركة الملك المهلهل بن الفياض

هذه حكاية الملك مهلهل بن الفياض مع خالد بن الوليد المخزومى.

روى عن الفضل بن العباس رحمه الله قال :ـــ

صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح بنا يوماً، ثم التفت بوجه صبوح إلى المهاجرين والأنصار، وكان ذلك ليبلغهم أنباء السماوات والأرض، أو قليلا منها، فوقفوا إليه وأخذ يبكى بكاء حتى ابتلت ثيابه بدموعه وقال :ـــ

ـــ يا بلال، اذهب إلى أحياء المدينة وناد للصلاة الجامعة مع نبيكم يرحمكم الله.

فنادى بلال، وجاء الناس لسماع ما يقوله النبى عليه السلام، وصعد النبى إلى المنبر، وألقى خطبة تامة، بكى لسماعها الحاضرون بالدموع، واشتدت رغبتهم فى الجنة، وخوفهم من نار جهنم، فحثهم على الجهاد وبين أفضاله وقال :ـــ

ـــ يا صحابتى، لقد أبلغنى أخى جبريل أنه يأتى إلى أرضننا عدو لعين وشيطان رجيم قوى لا يقدر عليه أحد، يدعى المهلهل بن الفياض ومعه مائة ألف فارس، وخمسون ألف راجل، وأربعون ألف عبد أسود، يأتون لحربى وحربكم، فبماذا تجيبون نبيكم ؟ وبم تشيرون على رحمكم الله ؟

وعندئذ اضطرب الناس، وقام من بينهم أبو بكر الصديق وقال :ـــ

ـــ يا محمد، نحن سيفك القاطع ورمحك الطائل وحجارتك الكاسرة وسهامك

الجارحة وأفراسك الجارية ، وسنضرب ونضرب حتى نموت بين يديك ، صلى الله وسلم عليك .

فقال النبى :ـــ

ـــ حفظك الله ورعاك يا أبا بكر.

وقال مرة أخرى :ـــ

ـــ ما تقولون لنبيكم ؟

فاضطرب الناس ، ونهض عمر بن الخطاب وقال :ـــ

ـــ يا محمد ، إذا جاء هؤلاء الناس إلى أرضنا سنذهب إلى بيوتنا ونسرج خيولنا ، ونأخذ سيوفنا ، ونضع أسلحتنا ونضرب ونضُرب حتى نموت جميعاً بين يديك صلى الله عليك .

فأثنى عليه نبينا ﷺ ثم قال مرة أخرى :ـــ

ـــ ماذا تقولون لنبيكم وبم تجيبونه رحمكم الله ؟

فاضطرب الناس ونهض أمير المؤمنين (؟) عثمان بن عفان رضى الله عنه وقال :ـــ

ـــ يا رسول الله ، إذا جاءت هذه الجيوش إلى أرضنا أغلقنا أبوابنا ، وسأقدم لأهل هذه المدينة من كبير وصغير ، وحر وعبد ، وذكر وأنثى ، ما أملك من مال وكنز ومتاع هدية لك يا رسول الله ، صلى الله عليك .

فلم يلبث أن قال مرة أخرى :ـــ

ـــ ماذا تقولون ؟ وبم تجيبون نبيكم رحمكم الله ؟

فاضطرب الناس ، ونهض سيد الأبطال ، وفاعل الأعاجيب ، وغالب المعارك أبو الحسن على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال :ـــ

ـــ يا رسول الله ، إذا جاء هؤلاء الناس إلى أرضنا نأمر لهم بالإقامة حتى ينزلوا ويقيموا فى فسحة عظيمة ، ونخرج لهم من مدينتنا سلالا وأطباقا من التمر والزبيب ، ويظلون فى ضيافتنا ثلاثة أيام ، ثم أذهب إلى بيتى ، وأركب جوادى ، وذو الفقار

فى يدى، وأضع درع عمى حمزة، وشارة عمى العباس، وأقف على باب المدينة، فلا يخرج صغير ولا كبير ولا حر ولا عبد سواى، وأضربهم ويضربوننى حتى أموت بين يديك صلى الله عليك.

ولم يزل النبى ﷺ يعد الفرسان واحدا بعد الآخر، والمشاة كذلك حتى استكمل النبى ﷺ جيشه ثم قال :ـ

ـ يا جماعة المسلمين، اذهبوا إلى بيوتكم، وخذوا عدتكم للحرب.

قال [الراوى] :ـ

فقام أحد صحابة النبى ﷺ ويدعى أبا محمد الخراسانى وقال :ـ

ـ يا محمد، كنا فى زمننا إذا جاءتنا أخبار من الملوك وأبناء الملوك كتبنا إليهم رسائل وبعثنا لهم بالرسل، فلو فعلوا بما فى الكتاب كان عليهم ما علينا، فاكتب لهم يا رسول الله، فإن أطاعوا كتابك كان لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن عصوا أمرك حاربناهم بجيوشنا من فرسان ومشاة وسيؤيدك الله بعونه وينصرك عليهم وهو على كل شىء قدير.

وعندئذ نزل جبريل عليه السلام وقال :ـ

ـ يا محمد، إن السلام يهديك السلام، ويقول لك إن ما قاله الخراسانى خير وأفضل، فاكتب له كتاباً وابعث به رسولا فإن امتثلوا لما تأمرهم به فى كتابك كان لهم ما لك وعليهم ما عليك، وإن عصوا ما تأمرهم به فى كتابك حاربتهم بقومك من فرسان ومشاة والله يعينك عليهم.

فنادى النبى ﷺ بلالا وقال له :ـ

ـ اذهب إلى بيت عائشة، وأحضر لى القلم وأدوات الكتابة.

فجاء بلال بها وأخرج النبى ﷺ ورقاً ونادى عليا رضى الله عنه وقال له :ـ

ـ يا ابن عمى اكتب :ـ

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبدالله داعى العصاة من ملوك الأرض

إلى الإيمان والطاعة لما أمر الله أن يجتمع عليه العرب من التصديق بكلمة التطهير وقول الحق من لا إله إلا الله محمد رسول الله، إليك يا مهلهل بن الفياض، وإلى قومك وفرسانك ومشاتك وعبيدك وبلادك ومدنك، ومن فيهم ممن يسكن الجبال والقرى وينزل المنازل فى كل أرضك، فإن وصل كتابى إليك فأسلم لله العلى وقل؛ «لا إله إلا الله وأنى رسول الله» تفز فى الدنيا والآخرة، فإن أبيت ذلك فأذن بحرب من الله ورسوله، وسيعيننا الله عليك ويؤيدنا بنصره إنه على كل شىء قدير، والسلام على من اتبع الهدى وخشى عاقبة الضلال».

وختم الكتاب بخاتمه، ووضعه فى يده الشريفة وقال :ـــ

ـــ أيها الصحابة، أليس فيكم من يعرف هذا العدو اللعين، فإنى أريد أن يخبرنى بأوصافه؟

فلم يرد عليه أحد، فأعاد قوله مرة ثانية وثالثة دون أن يجيبه أحد.

عندئذ جاء جبريل عليه السلام وقال له :ـــ

ـــ يا محمد، أين صاحبك خالد؟

قال [الراوى] فوقف حينئذ فى مسجد النبى ولم يره، وقال النبى ﷺ :ـــ

ـــ يا بلال، اذهب إلى بيت خالد، فإن كان مريضاً عدناه، وإن كان فى الطريق انتظرناه، وإن كان فى بيته قل له إن رسول الله يدعوه كى يأتى إلى المسجد.

وذهب بلال، وطرق الباب، فقال خالد :ـــ

ـــ من الطارق يرحمه الله؟

قال :ـــ

ـــ بلال خادم رسول الله ﷺ.

فقال له :ـــ

ـــ وماذا تريد؟

قال :ـــ

ـــ رسول الله ﷺ يدعوك إلى المسجد.

فقال :ـــ

ـــ سمعاً وطاعة لله ورسوله وللمؤمنين.

ثم دخل بيته، ووضع عصابته على رأسه، وتوشح سيفه، وجاء إلى مسجد رسول الله ﷺ، وألقى السلام على النبى وعلى الصحابة، فقال له النبى :ـــ

ـــ يا خالد، ما منعك عنا؟ يا أخى يا خالد، ألم تسمع بلال وهو ينادى للصلاة الجامعة مع نبيكم يرحمكم الله؟

فبكى خالد بكاء شديداً، وبكى النبى ﷺ لبكائه.

ثم قال :ـــ

ـــ يا رسول الله، منذ ثلاثة أيام لم توقد نار فى دارى، ولم يخرج منها دخان، ولدى ثلاثة أبناء وثلاث بنات ألعب معهم حتى يأخذهم النوم على شدة الجوع.

قال [الراوى] فلما سمع المهاجرون والأنصار ذلك خرجوا إلى بيوتهم، فمن أراد منهم الصدقة الخفية ذهب بها إلى بيته، ومن أراد منهم العلن جاء بها إلى محضر النبى ﷺ.

فوضع النبى عليه السلام يده المباركة فى الطعام ودعا الله بالبركة :ـــ

وقال :ـــ

ـــ يا أخى، يا خالد، احمله إلى بيتك، وكل من هذا الطعام وأطعم منه زوجك وأولادك وعد إلينا إن شاء الله.

قال [الراوى] ففعل خالد ما أمر به النبى ﷺ، ثم جاء إلى المسجد، فقال النبى :ـــ

ـــ يا أخى، يا خالد، أتعرف من سأبعثك إليه من الأعداء الملعونين والشياطين الضالين من يدعى المهلهل بن الفياض؟

فقال له :ـــ

ـــ يا رسول الله ، إنى أعرفه كما أعرف ثيابى هذه .

فقال النبى عليه السلام :ـــ

ـــ أخبرنى يا خالد بشىء من صفته .

قال خالد :ـــ

ـــ هذا العدو اللعين يا رسول الله فارس عظيم الشجاعة واسع الحيلة ، فإذا ركب فرسه ركب معه مائة ألف فارس وخمسون ألف راجل وأربعون ألف عبد أسود ، ولديه من الشجاعة والقدرة ما يجعله يخرج لنزال ألف فارس.

فقال النبى ﷺ :ـــ

ـــ يا أخى يا خالد، أتود أن تحمل له هذا الكتاب وتعود إلينا بالجواب وأنا كفيل لك عند الله تعالى بأن يدخلك الجنة ؟

قال خالد :ـــ

ـــ أجل، تكريماً لك وطاعة لله تعالى .

وذهب إلى بيته ، وودع زوجته وأولاده واحتضنهم ، وتوشح بسيفه وركب جواده ، وجاء إلى مسجد رسول الله ﷺ فقال له النبى :ـــ

ـــ يا أخى ، يا خالد، خذ هذا الكتاب .

فأخذه ووضعه فى طرف عصابته ثم وضعها على رأسه ، وودع المهاجرين والأنصار. ثم قال له النبى عليه السلام :ـــ

ـــ يا أخى ، يا خالد، إذا طلعت جبلا فاذكر الله ، وإذا مررت بواد فكبر الله ، وإذا وجدت فى قلبك حَزَناً فاتل من القرآن فإن القرآن شفاء للصدور المحزونة ، وإذا بلغت هؤلاء القوم فلا يداخل قلبك الفزع ولا الخوف منهم ، وسلم الرسالة للمهلهل وعد إلينا بالرد إن شاء الله عز وجل .

ثم خرج خالد من باب المدينة ، ولم يكف عن السير الحثيث ليلا ونهارا حتى

دخل فى أرض موحشة من دخل إليها فهو مفقود ومن خرج منها فهو مولود ، وعندئذ وقع جواد خالد ، فقد كانت أرضاً شديدة الحر ، ليس فيها ماء ولا زرع ، فوقع من شدة الجوع والعطش ، فوقف عندئذ خالد إلى جواده وقال له :ــ

ــ يا جوادى ، أتتركنى يا صاحبى ؟ أتتركنى هنا ؟

وقال له هذه الكلمة التى لا يمكن أن يضطرب من يقولها : «لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم»

ثم وضع ثيابه فى حزامه ، وحمل السرج على عاتقه ، وأمسك باللجام فى يده ، وترك الحصان على الأرض ، وسار مسافة فرسخين ، فحدثته نفسه أن يعود إلى الحصان فقد يجده ميتاً :ــ

ــ ستعلم أن الموت ينفث بينك وبينه .

فترك السرج على الأرض وعاد لحصانه ، فوجد نفسه ؛ أعنى روحه تخرج شيئاً فشيئاً فقال :ــ

ــ يا حصان ، أولا تعلم أن معى كتابا خطه على وختمه النبى ﷺ بخاتمه ؟ آمرك بحق الله العظيم أن تنهض على قوائمك حتى أسلم الرسالة وأعود بالجواب إلى رسول الله إن شاء الله عز وجل .

فلم يتم كلمته حتى نهض الحصان على قوائمه ، وضرب الأرض بحوافره ، فأعاد اللجام إلى فمه ، وجاء به إلى سرجه ووضعه عليه ، وسار خالد على قدميه ، والحصان يتبعه مسافة فرسخين فوجد أمامه جبلا شاهقاً كان الناس قد اعتصموا فيه من الطوفان ، سحقهم الله . ولم يكن فى هذا الجبل سوى الصخور والحجارة الغلاظ وقليل من الشجر ، ولم يكن فيه من طريق غير سراط النمل .

ولم يلبث خالد أن صعد قليلاً قليلاً برفق حتى بلغ قمة الجبل ، ووقف عندئذ خالد ، ورأى فى أسفل الجبل وادياً رائعاً عجيباً تظله الأشجار وتجرى من تحته الأنهار . ولم يلبث خالد أن أخذ يمر ويمر حتى هبط ، ورأى فى هذا الوادى جيشاً

ضخماً، فلما نزل كان لا يكاد يمر إلا فوق خيمة أو على حديد الرماح أو فوق شبا السيوف أو على رؤوس الخيل، وكل هؤلاء الناس كانوا كافرين بالله، يأكلون من نعمته ويعبدون سواه، فقال :ــ

ــ يا حصان كل من هذا الذى منحك الله من رزق.

فطعم الحصان من تلك الأعشاب وشرب من هذه المياه، وكان خالد قد بلغ منه التعب والجهد مداه.

فقال خالد:ــ

ــ يا حصان، آمرك بحق الله العلى أن تحرسنى قليلا حتى أنام بعض الوقت.

وخلع درعه، وضم سيفه إلى صدره وغشيه النعاس فنام. فوجد حصانه يضرب الأرض بحافريه، فشعر به خالد واستيقظ من نومه مذعوراً فوضع رجليه فى الركاب وامتطى صهوة جواده حتى استوى على سرجه ووقف حينئذ بين تلك الأشجار فرأى ألف فارس قادمين نحوه، لا يبدو عليهم أن يهربوا أمام أى شخص، ولا يخشون أى شىء، وليس عليهم أثر للتعب، قد أطلقوا لخيولهم العنان، وشرعوا فى أيديهم الرماح، وعلى رأسهم فارس صنديد، مدجج بالسلاح، جاء حتى وقف بين يدى خالد وقال له :ــ

ــ حمتك الإلهة المعظمة، السيدة المكرمة.

فقال له خالد:ــ

ــ ما ولدت إلا لأم سوء، يا ابن الفحش، لا أب لك ولا أم ولا تعرف كيف نشأت. السلام على من اتبع الهدى وحاد عن الضلال، واستحى من الملك الذى يراه ولا يُرى، وهو فى الملأ الأعلى.

فقالوا له :ــ

ــ هذا السلام لا نعرفه، وهذا الكلام لا نفهمه، ونظن أنك من أرض الحجاز (من عند) أبى القاسم.

وقال الفارس لخالد :ــ

ــ ترجل من فوق حصانك ، وخذ عصابتك من فوق رأسك وضعها فى رقبتك ، فسنحملك إلى سيدنا وكبيرنا وملكنا المسمى بالمهلهل ، فإن أراد قتلك قتلناك ، وإن أراد إطلاقك أطلقناك .

فقال له خالد :ــ

ــ وكيف تكون هذه الكلمات والأسباب شبيهة بما قلت ؟

ثم قال خالد :ــ

ــ فتح بينى وبينكم باب الحرب .

وضرب خالد جواده بالمهماز وصاح فى هؤلاء القوم صيحات شديدة ودخل فيهم يميناً وشمالاً ، ووقف حينئذ عند هؤلاء الناس فوجدهم ضعافاً ووجد أنهم قد فقدوا مائة فارس فى تلك الهجمة فقالوا :ــ

ــ يا قوم ، ما أسوأ ما حدث لنا ، فاكتموا هذا الأمر واجعلوه سراً ولا يكن بيننا نزال أكثر من ذلك فإن الرجال فى القصور والنساء فى المغازل سيقولون « فارس بمفرده حارب ألف فارس وغلبهم » وليس ظن مولانا الملك المهلهل فينا ذلك ، فلا ينبغى لأحد أن يغلبنا .

وفى تلك الأثناء تفرقوا أشتاتاً .

ثم جاء خالد إلى نهر وتطهر وغسل ما علق به من دم ، ولم يتوقف إلا قليلاً ، إذ لم يلبث أن جاءه خادم الملك المهلهل وكان يدعى بحيطان الجبل ، لأنه كان مثل النخلة فى الطول ، وكان له عينان مثل البرق وأذنان مثل الدرعين وأنفان مثل البوقين ، وكان ضخم الهيكل كالبرج ، فإذا تحدث بدا كأنه رعد يرعد ، وكانت يداه مثل الرحى وقدماه كأنهما جداران ، وفى أذنيه قرطان من الذهب الخالص وفى فمه حجر من الياقوت البهرمان ، وعلى رأسه عصابتان كأنهما ربوتان ، وكان معه رمحان ، أحدهما فى يده اليمنى والآخر فى يده اليسرى ، وفى يده كتلة من حديد ، وأمامه قطيع من الإبل يوردها الماء ، فرأوا حصان خالد على الماء فتفرقوا أشتاتاً يميناً وشمالاً .

فقال راعى الإبل :ـــ

ـــ ما هذا؟ أو ليس ذلك هو الماء الذى تردونه كل يوم ، والآن تتفرقوا عنه كما لو كانت عليه إبل الحجاز (مَن لدن) أبى القاسم .

ثم قال [الراوى] فسمع خالد هذه الكلمات وقال :ـــ

ـــ هكذا تخشى الإبل النبى ﷺ.

وقال :ـــ

ـــ يا حصان ، آمرك بحق الله العلى الكبير أن لا تبرح هذا المكان حتى أعود إليك إن شاء الله .

ووضع ثيابه فى حزامه ، وعبر النهر إلى الضفة الأخرى حيث كان الفتى .

وقال الفتى :ـــ

ـــ عليك السلام والخير من الإلهة العظمى والسيدة المكرمة لا يلبث أن يكون مردوداً منك .

فقال خالد :ـــ

ـــ يالسوء ما ولدتك أمك ، يا ابن الفحش ، لا أب لك ولا أم ولا تدرى كيف نشأت ، السلام على من اتبع الهدى وحاد عن الضلال ، واستحى من الملك الذى يراه ولا يُرى ، وهو فى الملأ الأعلى ، قال الفتى :ـــ

ـــ هذا السلام لا أعرفه ، وتلك الكلمات لا أفهمها ، وأحسب أنك من أرض الحجاز (من لدن) أبى القاسم ، كما أظن أنك ساحر من الذين يقولون السحر ، امدحنى قبل أن تمتدح الملك أو ابن الملك وأنا أعطيك هبة تجعلك تذهل من الدهشة والرهبة .

قال له خالد :ـــ

ـــ أيها الراعى ، أنا لا أذهل من رهبتك ، بل من أعمالك الطيبة .

قال الفتى :ـــ

ــ فلتعنك الربة العظمى السيدة المكرمة .

قال له خالد :ـــ

ــ صه يا فاجر، يا ابن العجوز العوراء .

قال الراعى لخالد :ـــ

ــ خذ عصابتك من رأسك ، وضعها فى رقبتك ، وسأحلك أمام ملكنا وكبيرنا المهلهل بن الفياض وستجد لديه المديح العظيم للعرب وللفرسان والقواد والسادة الخاضعين لحكم الملك المهلهل .

قال له خالد :ـــ

ــ أيها العبد الحقير، أوتحدث مثلى بمثل هذا الحديث الأخرق ؟ وفى هذه الأثناء أخذ يلعب بالكتلة فى يده ويقذفها إلى السماء ثم يتلقاها فى كفه ، ويقذفها لتصيب خالد فينحرف عنها فتهبط كتلة الحديد إلى حيث كان يقف خالد وتغرس فى الأرض ثلاثة أشبار وهى ترتج مثل الغصن فى الماء الجارى .

فقال له :ـــ

ــ يا أخ الحجاز وأبا القاسم ، لم تكف عن سحرك ، فلقد سحرت كتلتى تلك التى كانت فى يدى .

قال له خالد :ـــ

ــ بئسما كانت أمك يا ابن الفاجر، يا عديم الأب الشريف .

وإذا بخالد ينقض عليه مثل النسر الذى يهبط من السماء ويعصره بين ذراعيه حتى ليشعر الفتى أن اللبن الذى رضعه من ثدى أمه يخرج من بين أظافره، ثم يرفعه إلى أعلى ويرمى به فى الأرض ويقف على صدره ، فيقول له الفتى :ـــ

ــ سيدى ، خذ منى الفدية .

فيقول خالد :ـــ

ــ بشرنى ، وما هى فديتك .

قال الفتى :ــ

ــ سأعطيك عشر أوقيات من الذهب الأحمر، وعشر أوقيات من الفضة البيضاء وعشر أوقيات من الذهب الأصفر وعشرة أفراس مختارة وعشر نوق محملة بالقمح والشعير وعشرة رجال يحملونك إلى أرضك.

قال خالد :ــ

ــ هذا شيء لا أريده منك .

قال الفتى :ــ

ــ فماذا تريد منى .

قال خالد :ــ

ــ أن تأخذ عصابة رأسك ، وتصعد إلى قمة الجبل ، وتنادى العرب بالعربية ، والعرب المستعربة ، وعرب هزار ونزار وابن عبد الدار، ولا أريد منك شيئاً آخر.

قال له الفتى :ــ

ــ أبشر يا سيدى .

فنزل خالد من فوق صدره ، وأخذ العبد يرتجف مثلما يرتجف العود فى الماء الجارى أمام خالد.

وأطل العبد من قمة الجبل ، وذهب خالد إلى حصانه ، وأخذ العبد يصيح بأعلى صوته وينادى فى العرب كما أمره خالد، والعرب يقولون له :ــ

ــ ما الذى تدعوه أيها العبد المكرم ؟

فيقول لهم :ــ

ــ أخبركم بأمر عظيم ، بأن فى هذا الوادى رجلا كأنه ملك الموت ، قابض الأرواح ، وكأن الموت يخرج من حديد رمحه .

عندئذ تحدث الذين بقوا من الفرسان الألف وقالوا :ــ

ــ حقاً ما تقول أيها العبد الشريف .

قال [الراوى] فلما جاءوا إلى الوادى، ووجدوا خالدا على جواده قد استوى على سرجه، يبدو كما لو كان الموت يخرج من رمحه، فقالوا له :ـــ

ـــ حيتك الربة العظيمة والسيدة المكرمة ولا تزال محمودة منك.

فقال لهم خالد :ـــ

ـــ بئسما أنتم عليه يا أبناء الفاجر، السلام على من اتبع الهدى والحق وحاد عن الضلال، ورجع عن عاقبة الشر، واستحى من الله الذى يرى الجميع ولا يراه أحد وهو فى الملأ الأعلى .

فقالوا :ـــ

ـــ هذا السلام لا نفهمه، وتلك الكلمات لا نعرفها، ونظن أنك من أرض الحجاز (من لدن) أبى القاسم، وأنك أحد السحرة الذين يمشون لقول السحر لسيدنا وكبيرنا وملكنا المهلهل بن الفياض. فإذا كنت مبعوثاً بكتب أو ما يشبهها إلى ملكنا وسيدنا وقائدنا فأعطنا الكتاب وسنرد لك الجواب وتعود لأصحابك.

فقال لهم خالد :ـــ

ـــ أما قولكم بأنى ساحر فليس بحق، وأما أنى رسول أحمل كتاباً فأجل.

عندئذ انصرف عنه القوم إلا قليلاً منهم، وجاءوا إلى الملك وقالوا له :ـــ

ـــ الآن، أيها الملك المهلهل، رعتك الربة المعظمة، والسيدة (المكرمة)، ولا زالت ممدوحة من قبلك، يا مولانا، أتريد أن تلقى من أرض الحجاز (عند) أبى القاسم. فهو قد بعث لك برسول يحمل كتاباً فيه توسلات إليك يا مولانا، فهويريد أن يدخل فى طاعتك ويدفع لك الجزية، ويريد أن يخضع لك، فتلقاه يا مولانا.

فأمر الملك بأن تقام خيمة لخالد من الحرير الأبيض، وأن تشد بحبال من الحرير الأخضر، وأن تكون قضبانها من النحاس الأحمر وأن تزخرف بالحرير والديباج من أثمن ما يعرف فى وقته، وجاءوا بخالد إلى الخيمة، فوقف خالد عندها، وترجل من فوق حصانه، وأحضروا له طعاماً كثيراً كى يأكل، وشعيراً لحصانه. فقال لهم خالد :ـــ

ـ إذا كنتم تقومون بذلك بواجبات الإكرام فإنى لن آكل من هذا الطعام.

قالوا له :ـ

ـ يا سيد، فما هو طعامك عندنا ؟

قال لهم :ـ

ـ أحضروا لى شعيراً ورحى حتى أطحن الشعير بيدى، وأحضروا لى ناراً وسأطهو الأكل بالليل فإنى لا أطعم نهاراً.

فصنعوا ما طلبه خالد.

وظل خالد فى هذا الإكرام سبعة أيام، حتى إذا انتهى سابع يوم جاء القواد والفرسان والسادة المختصون بخدمة الملك وقالوا له :ـ

ـ يا مولانا، الحرب خدعة، ضع التاج على رأسك، والعصابة الملكية على جبهتك، وتزين بحليك وجواهرك، وضع خواتمك فى أصابعك وسيف الملك فى ذراعيك، والبس أشرف ثيابك.

ففعل الملك ذلك، وأمر بأن يقوم عن يمينه خمسون ألف فارس وعن يساره خمسون ألف فارس، وأن يقوم عشرون ألف عبد من أرض اليمن عن يمينه، وعشرون ألفاً عن يساره.

وجاءوا لخالد، وقالوا له :ـ

ـ يا صاحب الحجاز (من لدن) أبى القاسم، مولانا يدعوك كى تعطيه الكتاب وترجع بالجواب وتذهب إلى أرضك.

قال خالد :ـ

ـ أنا أطيع الله ثم رسوله.

قال [الراوى] فوضع خالد قدمه فى الركاب وركب حصانه واستوى بين شقى سرجه. وعندما خرج خالد من خيمته وقف ينظر لهذه الجموع الكبيرة وهى فى تلك الحالة، وقال خالد :ـ

ــ لماذا أراكم جميعاً مترجلين شيوخاً وشباباً؟ وحق الله لأضربنكم برمحى وسيفى أو تؤمنون بالله العلى العليم بكل شىء.

فقال بعضهم لبعض:ــ

ــ ألا تسمعون ما يقول من سحر؟

وقال الذين لم يفهموا كلماته:ــ

ــ ماذا يقول فى سحره؟

فقال الذين فهموا عنه:ــ

ــ يقول إنه سيضربكم برمحه وسيفه أو تؤمنون بما يؤمن به وتعبدون ما يعبده.

فجزعوا مما قال وتشتتوا، وذهب خالد حتى وقف أمام الملك المهلهل فوجده واقفاً فى مكانه وأمامه صنم لربة من الذهب الأحمر يتدلى منها الياقوت والجوهر، والملك يسجد لها من دون الله.

قال [الراوى] فرأوا خالدا يدور بحصانه ويختفى به ثم يعود فقال له أحد أتباع الملك:ــ

ــ يا [أخ] الحجاز (من لدن) أبى القاسم، أنتم قوم ذوو شرف رفيع وعادات طيبة، أدر وجهك إلى مولانا الملك وأعطه الرسالة لتعود بالجواب.

قال له خالد:ــ

ــ لن أدير له وجهى حتى يرمى ما بين يديه.

عندئذ أمر الملك بإبعاد الربة.

فالتفت خالد إليه بوجهه وتناول الكتاب من عصابته فأمر الملك بإبعاد صنم الإلهة. وعندئذ أقبل خالد بوجهه وأخذ الكتاب من عصابته وهم بأن يعطيه إياه، فأراد الملك أن يتسلمه بيده اليسرى، فنقل خالد الرسالة من يده اليمنى إلى يده اليسرى، وأمسك السيف بيمناه، وقال له خالد:ــ

ــ يا عدو الله، هذا الكتاب خطه على، وختمه النبى ﷺ بخاتمه، فامدد يديك اليمنى شلت يسراك، فهذا الكتاب لا ينبغى أن يؤخذ سوى باليد اليمنى.

قال [الراوى] فسحب الملك يده اليسرى ومد اليمنى وأعطاه خالد الكتاب وقرأه الملك ، فاسود وجهه وتغير لونه واحمرت أوداجه ، وقال الملك لوزرائه :—

— منيتمونى بالأكاذيب ، وقلتم لى إنه سيدفع الجزية لى ، وسيخضع لأمرى .

فقالوا له :—

— يا سيدنا ، أخبرنا بما فى الكتاب وما قاله لك .

عندئذ قرأ عليهم الرسالة علناً وقال :—

— إليك يا مهلهل وإلى قومك وجيرانك ومدنك ومن فيها ، وإلى من فى الجبال والقلاع والقرى والوديان ، وإلى كل من يقع فى سيادتك وملكك ، فإن وصل كتابى إليكم فأسلم لله وحده ، ولى كرسوله ، ولك مالنا ، لتفوز بالدنيا والآخرة ، فإن أبيت ذلك فأذن بحرب أشنها عليك بقومى فرساناً ومشاة ، والله سيعيننا عليكم ويؤيدنا بنصره وهو على كل شىء قدير.

قال الملك :—

— يا فارس الحجاز (من لدن) أبى القاسم ، من أغنى : أنا أم أبو القاسم ؟ ومن أكثر خيلا ، أنا أم أبو القاسم ؟ ومن أكثر قوماً : أنا أم أبو القاسم ؟ ومن أكثر عبيداً أنا أم أبو القاسم ؟

قال له خالد :—

— بئسما (ينفعك) قومك من فرسان ومشاة وعبيد إن حمل عليك خمسة من فرسانه .

قال الملك :—

— ومن هم ؟

قال خالد :—

— أحدهم العباس بن مرادس السلمى ، وثانيهم جعفر الخير بن أبى طالب ،

وثالثهم عمر بن أمية الضمرى ، ورابعهم العباس عم النبى ﷺ وخامسهم من يقف أمامك و يتكلم معك .

قال أحد الوزراء :ـــ

ـــ يا أخ الحجاز (من عند) أبى القاسم ، لماذا أراك ذكرت (اسم) أصحابك ولم تذكر نفسك ؟

قال :ـــ

ـــ أنا خالد بن الوليد المخزومى .

فقال له :ـــ

ـــ يا أخ الحجاز (من عند) أبى القاسم ، لما لم تذكر سيدكم وفارسكم وكبيركم ، هذا الذى علوتم به جميع العرب ؟

قال خالد :ـــ

ـــ ومن هذا الفارس ؟

قال :ـــ

ـــ على بن أبى طالب .

قال له خالد :ـــ

ـــ بئسما (ينفعك) قومك وفرسانك ومشاتك إن حمل عليكم وحده .

قال [الراوى] فانتفخ الملك من الغيظ والغضب ، وكفر وهدر ولعن الشمس والقمر ، ثم قال :ـــ

ـــ خذوه يا أصحابى وجنودى .

قال راوى الحكاية ، فأخذ خالد يحارب هذه الجيوش العظيمة ويحمل عليهم حملات شديدة ، فاستصرخت هذه الفرق وتكأكأت عليه ، واجتمعوا ضده وأخذوه وأوثقوه بالحبال .

وقال الملك :ـــ

ـــ خذوا حصانه واذبحوه واسلخوه، وأوثقوه جيداً، ثم ضعوه فى جلد حصانه، وأحضروا قوائم من الخشب وعلقوه فيها.

قال المحدث، فعلق خالد فى جلد حصانه، وأمر الملك الناس بأن يجمعوا حطباً (وقال) :ـــ

ـــ غداً نشعله ونحرقه، ونثبت أننا حرقنا ركنا من أركان الحجاز من (أصحاب) أبى القاسم.

وظل خالد هكذا، حتى إذا جنه الليل رفع رأسه إلى السماء، ونظر إلى الكواكب المختلطة.وعندما نامت العيون، ولم يبق فى الثقلين سوى الحى الذى لا ينام، وهبت عليه نسمة من الغرب، انطلق ينشد هذه الأبيات الشعرية :ـــ

ـــ إن سمعت أيها النسيم.
أحدا يصلى على محمد.
بالله عليك أيها النسيم.
فلتزر أحبابى.
لتبلغهم عنى نبيل السلام.
فإنى مشوق إليهم.
بالرغم مما كابدته.
من حوادث الأيام.

ثم نزل رسول الأنبياء جبريل عليه السلام، وجاء من قبل الله الرحيم (على محمد) وقال :ـــ

ـــ يا محمد، السلام يهديك السلام، ويخصك بعظيم الإكرام ويقول لك إنك تغفل وربك لا يغفل، يا محمد، إنك تنام وربك لا ينام، يا محمد، إن صاحبك خالد مربوط وموضوع فى جلد حصانه ومعلق فى نخلة، والملك اللعين المهلهل أمر بأن يحمل

إليه الحطب، ويقول إنه سيحرقه بالنار، وهذا لا يرضى الله، ويقول لك أرسل له على بن أبى طالب فى هذه الليلة.

فقال له محمد ﷺ.

ــ يا أخى يا جبريل، إن الأرض نائية، ولن يصل على قبل أن يكون قد وقع ما توعد به أخى خالد.

قال له جبريل :ــ

ــ يا محمد، على على أن يخرج وعلى الله وصوله.

فبكى النبى ﷺ بكاء شديداً حتى ابتلت ثيابه، ونادى بلالا وقال له :ــ

ــ يا بلال، امش معى إلى بيت على.

وسار النبى وبلال إلى بيت على، وطرق الباب فقيل:ــ

ــ من ذا يطرق الباب؟

قال بلال :ــ

ــ حبيب الأحباب محمد عليه الصلاة والسلام.

ففتح الباب، ووجدوا علياً يؤدى الصلاة، فلما شعر بهم خفف صلاته وأسرع إلى الله بالسلام. وأخبره النبى عليه الصلاة والسلام بما علمه من جبريل عليه السلام

وقال له :ــ

ــ يا على، إن الله تعالى يأمرك بأن تخرج فى دجى هذه الليلة.

قال له على :ــ

ــ يا نبى الله، الأرض نائية، ولن أصل إليه إلا بعد أن يتم ما توعد به خالد.

قال له النبى عليه الصلاة والسلام :ــ

ــ يا على، عليك الخروج، وعلى الله أن تصل فى الوقت المناسب.

عندئذ دعا على ابنه الحسن، وأمره بأن يضع السرج على جواده. ودعا الحسين،

وأمره أن يحضر له سلاحه، وتمنطق سيفه وأخذ درعه ورمحه، وودع زوجته، وسلم على أولاده، ومضى النبى مع على رضى الله عنه، وقال على لبلال :ـــ

ـــ اذهب إلى البواب، وقل له أن يحضر مفاتيح الباب.

قال له النبى عليه الصلاة والسلام :ـــ

ـــ يا على، إن النفس أمارة بالسوء، وربى لم يأمرنى بأن يخرج أحد سواك.

وجاء النبى عليه الصلاة والسلام إلى الباب، وتلا عليه دعوة فى السر، ثم نزع مزلاج الباب، ففتحت الأبواب، وخرج النبى عليه الصلاة والسلام، وعلى رضى الله عنه، وقال النبى :ـــ

ـــ يا على، إنى آمرك إذا وصلت إلى هذه الجيوش العظيمة، أن لا تقتل كبيراً ولا صغيراً، حتى تدعوه إلى الإيمان، فمن أسلم كان عليه ما عليك، ومن أبى أن يؤمن بالله؛ إن كان كبيراً فاقتله ولا حرج عليك. يا على، إن حزنت فاتل من القرآن، فالقرآن عزاء المحزونين، وإن علوت جبلا فكبر الله العظيم وإن نزلت وادياً فسبح بحمد الله سبحانه، فإذا جاءك النوم فأطلق العنان على رقبة الحصان، ولا توجهه يميناً ولا شمالاً فإن له دليلاً يهديه وحاملاً يحمله.

وودع النبى عليه الصلاة والسلام ومضى حتى وصل إلى مفترق طرق، فأخذته سنة من النوم ونام ولم يستيقظ من نومه إلا وقد وصل إلى الوادى الذى كان فيه خالد، فما قطعه خالد فى عشرين يوماً قطعه على فى ليلة واحدة حتى الثلث الأخير من الليل. وقف على حينئذ عند النيران المشتعلة الكثيرة، وقال على فى نفسه :ـــ

ـــ لو كنت أرى خالد فى أى مكان هو.

وقال :ـــ

ـــ يا خالد، فى أية خيمة أو مكان أنت؟

فسمع صوتاً محزوناً، يخرج من قلب المؤمن، لأنه كان ينادى ويقول.

ـــ يا صوت، إن سمعت من يصلى على رسول الله (ويضرع) إلى الله بلهفة

المحتاج ، يا ربى ، أنت العليم السميع ، لقد جئتك بحاجتى ، يارب ، لا يبلغ الوهن منى ، يارب إليك أمد يدى ، وإليك الرضى ، فأنت (رب) العفو والمغفرة يا ربى ، اغفر لى ما سلف منى ، فعندك الرجاء ، وأنت تسمع دعائى إن حم القضاء.

فلما سمع على الصوت أطلق جواده فى هذا الوادى وقال :ـ

ـ يا حصانى السرحان ، بشرف من خلقك لا تبرح هذا المكان حتى أعود إليك إن شاء الله.

قال [الراوى] وتابع على صوت خالد حتى وصل إليه ، وهز النخلة ، فقال خالد :ـ

ـ من ذا يهز مشنقتى ، إن كان يبغى موتى فإنى أعرف أن الليل هو الباب الذى يحمى الموت وكل الناس داخلون فيه ، ومن لم يمت بالنصل الحديدى مات بغيره ، ولكل واحد نزاع يعينه ، نفسى تحدثنى ، إن لم تكذب على ، بأنك على بن أبى طالب.

قال على :ـ

ـ أبشر يا خالد ، فالذى يقف أمام يديك هو على.

قال له خالد :ـ

ـ يا أخى ، يا على ، أما ترى حالتى ؟

قال على :ـ

ـ يا خالد ، إن الله مع المعذبين.

قال الراوى ، وانتزع على النخلة من جذرها ، وتلقف خالد بين زراعيه برفق شديد ، حتى لا تؤذيه الأرض ، وأخرج سكيناً كان معه وقطع أحباله وأطلقه من أسره ، وحمله إلى النهر ، ونظفه بما علق به من جلد حصانه ودمه ، وتناول على ثوباً من ثيابه ، واخذ العصابة التى كان يعقدها على رأسه وشطرها نصفين وأعطى خالداً نصفها وألبسه الثوب ، وعندما أذن الله للصبح الطيب بأن يطلع صعد على وخالد إلى ذروة الجبل ، وتجلى النهار وأشرقت الشمس وتحرك القوم ، وركب العدو اللعين

والشيطان الرجيم فى خيله وقواده وجيوشه ، وجاء إلى أكوام الحطب وقذف فيها النار وقال :ـــ

ـــ انتقمى لى من عدوى (من أهل) الحجاز وأبى القاسم .

وجاءوا إلى النخلة ، فوجدوها منزوعة ، والجلد مقطوع ، وعادوا أدراجهم بالويل والثبور وهم يصيحون :ـــ

ـــ يا بئسما حل بنا !

ـــ ولماذا تجأرون بالصياح ؟

قالوا له :ـــ

ـــ يا سيدنا ، لقد وجدنا المشنقة منزوعة وجلد الحصان مقطوع !

قال لهم العدو اللعين :ـــ

ـــ عليكم أن تجوبوا كل هذه الأرض، وقفوا حيث ذهب ، ولو كان واحداً أخذنا به عشرة .

فمدوا أعناقهم ، ونظروا بعيونهم .

وقال رجل للملك :ـــ

ـــ أعطنى البشارة وأبشر.

قال له الملك :ـــ

ـــ اطمئن ، فسأعطيك عشر أوقيات من الذهب الأحمر، وعشر أوقيات من الذهب الأصفر، وعشر أوقيات من الفضة البيضاء.

قال له الرجل :ـــ

ـــ سيدى ، لا أريد شيئاً من ذلك .

قال الملك :ـــ

ـــ فماذا تريد ؟

قال له :ـــ

ــ أنا فقير من الموالى، فقد كان لى مولى، وطلبت منه أن يقضى لى حاجة فلم يقضها وأبق، فأنا فقير من الموالى.

عندئذ أعطاه الملك مولى وقال له أن لا يخدم سواه.

وقال له الملك :ــ

ــ خذه، وليكن هدية منى إليك.

فأخذه وقال له :ــ

ــ لاتخدم أحدا غيرى.

وسجد له من دون الله، وقال للمعبود :ــ

ــ سيدى، تفضل بالنظر إلى هذا الجبل.

فمدوا الأعناق، وحدقوا النظر ووقفوا إذ رأوا فارسا ورجلا ماشيا، فأخذ الفرسان يحاصرونهم من اليمين واليسار ويلتفون حول الجبل ويحيطون بهم من كل ناحية.

وقالوا لعلى :

ــ أيها الفارس، ألم يعاقبك أحد ولم يحظر عليك أحد دخول هذه الأرض؟ واللات والعزى لتشربن حشائش الموت، لقد انتهكت أرضنا وأخذت أسيرنا، فترجل عن فرسك، وأمسك بعصابة رأسك وضعها على رقبتك، وسنحملك إلى ملكنا المهلهل ابن الفياض فإن أراد قتلك قتلناك.

فأنشدهم على بعض أشعاره وقال :ــ

ــ من عرفنى فقد عرفنى، ومن لا يعرفنى سأعرفه بنفس، أنا على بن أبى طالب، المُعْلّم فى المعارك، القاطع، بالسيف الباتر، المشهور بالقاهر.

فلما سمعوا أشعاره لاذوا بالفرار وهم ينادون بالويل والثبور.

فقال لهم الملك :ــ

ــ مالى أراكم تأتون هاربين؟

قالوا له :ــ

ــ يامولانا، ها قد زال عنا المعروف، وحل بنا البلاء؛ فقد دخل بيتنا رجل سيدمر محفوظنا، ويقتل أبطالنا، وييتم أطفالنا، ويهدم قلاعنا، ويشتت جيوشنا، ولا

ينجو اليوم من يديه إلا من كان يعبد الله الذى يعبده هو، أو يولى الأدبار هاربا أو يموت بين يديه ويبكيه أحبابه وأقرباؤه وأصدقاؤه.

هذا هو على بن أبى طالب المعروف بالشجاعة.

وبينما يسمعون هذه الكلمات جاء فارس وقال للملك :ـ

ـ يامولانا، لن يطاح بالصنم الأكبر للمعبودة، والسيدة المكرمة، مادام فيه رضاك، أعطنى الإذن كى أخرج إليه، فطالما رجوت آلهتى اللات والعزى أن تجمعنى به فى ميدان الحرب.

فقال له الملك :ـ

ـ ليكن لك ماتريد منه، ولا ترموا الصنم الأكبر وهو معه.

يقول (الراوى) وخرج إليه، وقال له :ـ

ـ أيها الفارس الذى لا يقدر عليه أحد من الفرسان، ولا بطل من الشجعان، انظر إلى ما تثيره من اضطراب ولا تشن الحرب.

فأخذ على يضرب جواده بالمهماز، وقفز فوقه كما يهبط العقاب من السماء فقال العلج :ـ

ـ واللات والعزى لا أحارب اليوم إلا عليا

فقال على :ـ

ـ أبشر يا عدو الله، فأنا على.

قال العدو :ـ

ـ فإنى لا أصدقك حتى تكشف وجهك وأرى علامتك.

فكشف على وجهه ورأى فيه العلامة الهاشمية، فظل الفارس يرتجف خوفا أمام على.

وقال له العدو :ـ

ـ سأعطيك عشر أوقيات من الذهب الأحمر، وعشر أوقيات من الذهب الأصفر، وعشر أوقيات من الفضة البيضاء، فترجل عن جوادك، وسأخذ العصابة من فوق رأسك وأضعها فى رقبتك، واللات والعزى سأتركك حرا على إرادتك، وسيكون هذا فخرا عظيماً لى إلى الأبد.

فقال له علي :ــ

ــ بئسما ولدتك أمك يا ابن الفاجر، لست من أب شريف أو تتحدث إلى مثلى بمثل هذا الحديث ؟

وقال له علي :ــ

ــ قل معى كلمة التطهير، من القول الثابت «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فتنجو من العقاب .

قال له العدو :ــ

ــ ياأبا الحسن ، ليس بيننا وبين أبى القاسم من عداوة وكره إلا على هذه الكلمة .

ثم ضرب عل جواده بالمهماز وحمل على عدو الله بسيفه ذى الفقار فقتله ، وسارع الله به إلى النار .

فد الناس أعناقهم ، وحدقوا أبصارهم ، وجعلوا يقولون :ــ

ــ ها قد قتل رفيقنا عليا .

وأخذ الناس يقفون ويتبادلون البشرى ، فنظر شيخ طاعن فى السن ورفع هدبيه من على عينيه وقال :ــ

ــ أيها الملك ، إن فرسانك مهما كثروا فلن يقتلوه ، هذا هو على يأتى إلينا ، وسيشطر كلامنا شطرين ، وحق اللات والعزى لم يمت إلا رفيقنا .

وعندئذ نادى على خالدا وقال له :ــ

ــ خذ هذا الفرس ، واركبه ، وخذ سلاحك .

قال الشيخ :ــ

ــ يا مهلهل ، من ذا سيخرج لمبارزتهما ؟ فهما أسدان قد اجتمعا .

فقال العدو اللعين والشيطان الرجيم :ــ

ــ ماذا يفعل العقرب بين الحيتان ؟

وقال له الشيخ :ــ

ــ أيها الملك ، لو صاح على ونطق بالكلمة الشهيرة «لاغالب إلا الله» لقتل بعضنا بعضاً .

ثم قال الشيخ :ـــ

ـــ يامهلهل ، سأقول لك كلمة ستكون القاضية بيننا وبينهم .

قال الملك :ـــ

ـــ وما هى ؟

قال الشيخ :ـــ

ـــ اعلم أن عليا يعظمونه فى قومه ، وأنت محمود فى أصحابك ولن يخرج للنزال إلا معك ، فإن غلبته دفع لك الجزية وصار لك مستباحاً ، وإن قتلك فسيجد فينا من يعبد ما يعبده ، وسيجد منا من يولى الأدبار هارباً ، وستكون هذه هى القاضية .

وعندئذ اشتد الغيظ بالعدو اللعين ، وأخذ سلاحه ، وركب جواداً من أحسن ما لديه من خيل ، وخرج عدو الله ، وتوقف أمام على وقال له :ـــ

ـــ يا على ، ليس كل أبيض برد ، ولا كل أسود فحم ، ولا كل مايبدو أخضر ريحان ، ولا كل حصان يدور في الميدان .

يا على ، أنا الملك المهلهل بن الفياض ، لم تلد النساء مثلى ، فإن أردت أن تنجو من الذعر أعطيتك ما تنجو به .

قال على :ـــ

ـــ ماذا تريد يالعين الله ؟

قال :ـــ

ـــ ترجل عن حصانك ، وقبل ركابى ، وقدم لى التشريف العظيم بين أصحابى .

عندئذ قال على رضى الله عنه :ـــ

ـــ لايهتز جنانى لهذيانك ، أو مثلى تصده الشباك ، أنا على الفارس المغوار ، ومن يستهن بى فهو يستهين بالموت العاجل ، أو فليؤمن بالله العلى ، عالم الغيب والشهادة .

وحنيئذ حمل كل منهما على الآخر كا لأسدين الغضوبين ، وأخذا فى النزال ، ولم يجرح أحدهما الآخر ، بل كان كل منهما يدفع جانبه ويحمل على الآخر ،وهما ينظران شذرا كالأسود الضارية .

وقال على :ـــ

ـــ يامهلهل ، لا يمكن أن يحكم بينى وبينك غير السيف .

والتحما فى حرب ضروس حتى غطاهما النقع ، ولم يعد يسمع سوى ضربات السيوف فوق المغافر، كما لو كانت مطارق على الزبر، وشد كل منهما العنان ، ولم يجرح أحدهما الآخر.

وفكر على فى الوصية التى أمره بها النبى ﷺ فقال على :ـــ

ـــ يا مهلهل ، أنت فارس قوى وشجاع فى الميدان ، وليس عليك إلا أن تقول كلمة ، هى كلمة التطهير، كى تنجو من عذاب يوم القيامه .

وهى الكلمة الثابته « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

فقال عدو الله :ـــ

ـــ يا على ، ليس بيننا وبين صاحب هذا الاسم عداوة ولا مقت ، إلا بسبب هذه الكلمة .

وعندما سمع على ذلك عاوده الغضب وزم بين عينيه

وقال على :ـــ

ـــ أيها الحصان ، ياسرحان ، بشرف الرب الذى خلقك لتخرجن من الضعف إلى القوة .

قال [الراوى] وصاح فيه صيحة عرف منها الحصان ما ذا يريد قبل أن يستقر فوقه حتى جمع السرج على السرج ، ونقل على السيف من اليمنى إلى اليسرى ومد ذراعه تحت إبط عدو الله وقال على :ـــ

ـــ أيها الحصان ، بشرف من خلقك ، بحق الله انطلق بخفة .

ونزعه من السرج كما لو كان طائراً فى مخالب العقاب وقذفه على الأرض وضربه بسيفه ذى الفقار فقتله وسارع الله به إلى النار

وعندئذ عطف على على خالد وهو يقول « الله أكبر» وهجم كلاهما كأسدين

ضاربين، على من جانب وخالد من جانب آخر، وتساقط العلوج أكواماً، ولم تزل الشمس عن قبة الفلك حتى لم يبق أحد ممن يشرك بالله.

قال [الراوى]

أما من آمن بالله فقد نجا، ومن كفر فقد مات أو أسر، وغلبوا الجميع بعون الله رب كل شيء وبفضله، وأما من قال « أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله » فقد نجا من الموت.

وحمل لعلى وخالد تلك الغنائم وأسلاب الموتى، كما حملت لهم الشياه والأبقار والغنائم.

ولم يمض إلا قليل حتى رؤى عجاج الخيل، وجاءت فرقة من القوم فتكشف الغبار وظهرت راية بيضاء كتب عليها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وكانت لأبى بكر الصديق رضى الله عنه، الذى جاء فى أعقاب على ومعه ألف فارس، ثم جاءت فرقة أخرى من القوم مثيرين نقعاً عظيماً، ولما انكشف الغبار ظهرت راية خضراء كتب عليها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وكانت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى جاء فى إثر على ومعه ألف فارس توقفوا حينئذ.

ورؤيت فرقة أخرى من القوم، ولما انكشف الغبار رأوا راية صفراء كتب عليها شطران « لا إله إلا الله، محمد رسول الله » وكانت لعثمان بن عفان رضى الله عنه الذى تبع عليا فى ألف فارس.

وتلاقوا جميعاً، وسلموا على على وخالد وفرحوا فرحاً عظيماً بنجاة على وخالد (وانتصارهما) على أعدائهم.

وتوقف حينئذ عندهم قبائل من العرب والعربان والمستعربة وخزامة ونزار من هؤلاء الذين فروا من الموت، فأمروهم بفعل الخير ونهوهم عن الشر والغلظة وعلموهم الوضوء والصلاة وأصبحوا مسلمين صالحين محافظين على دين الإسلام.

وأخذوا كل الغنائم والأسلاب ورحلوا بها، وذهبوا إلى مدينة رسول الله ﷺ. وما قطعه على فى نصف ليلة قطعوه فى عشرة أيام. لما شعر النبى عليه السلام بقدوم

الصحابه خرج للقائهم وسلم على عليّ وعلى خالد واحتضنهما على صدره ، وقبل عليا بين عينيه وقال له :ـــ

ــ لن ينسى لك الله هذه المكرمة .

وحدثوا النبى ﷺ بما وقع لهم ، وحمدوا الله حمداً عظيماً . ثم قسم النبى عليه السلام الغنائم بينهم ، فسوى بين الغنى والفقير وسوى بين الراجل والفارس .

وهذا ما وصل إلينا من قصة خالد بن الوليد وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه مع الملك اللعين المهلهل بن الفياض لعنه الله .

رحم الله المسلمين والمسلمات ، آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم .

هذه معركة الأشيب بن حنقر

روى لنا اسحق الكلبى أن رسول الله أقام بنا صلاة الظهر، ثم جلس يذكر من بقى من عباد الأصنام، فنهض العباس بن مرداس السلمى وقال :ـــ

ـــ يا رسول الله، بقى أشد الناس كفرا فى أرض تيماء، وهو ملك يدعى الأشيب ابن حنقر العراش، وهو رجل ذو حيلة ومشورة، داهية، له مال وفير وقوم كثيرون، وهو بطل صنديد، يحسب على سرجه بألف فارس، يقدم له الجزية الملوك ويخضع له الفرسان خشية الهلاك، وعنده صنم لربة يعبدها من دون الله، على هيئة ديك، صدره من ذهب، ورأسه من فضة، أقام له قصرا وقبة من الرخام، يدخل إليه الهواء ويصفر مثل صياح الديك، وبداخله شيطان يتكلم بجميع اللغات.

قال رسول الله :ـــ

ـــ لقد ذكرت لنا شيئا غريباً عجيباً، فن ذا يحمل كتابى إليه ؟

قال العباس بن مرداس :ـــ

ـــ أنا أحمله يا رسول الله.

قال النبى :ـــ

ـــ يا على، اكتب إليه.

فكتب :ـــ

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله، الناهض لمعصية الله، إليك يا أشيب بن حنقر العراش. أما بعد، فإن الله قد بعثنى بشيراً ونذيراً، ورسولاً إلى الناس أدعوهم إلى طاعة الله وعبادته، واختار من الأديان دين الإسلام دينا، بلغنا

ما تعيش فيه من عبادة الأصنام ، فاقرأ كتابى وأسمع حجتى ، وقل معى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يكن لك مالنا وعليك ماعلينا ، وإن لا فاذن بحرب من الله ورسوله . والسلام على من اتبع الهدى وخشى عاقبة الضلال .

وأغلق الكتاب وختمه بخاتم النبى ﷺ ، وبعثه مع العباس بن مرداس إلى العراش ، وأرسل معه ثمانية رجال . فساروا فى الصحراء والوديان الشاسعة ومروا (بكثير) من البلاد ، حتى بلغوا أرض تيماء .

وكان العباس يعرف العراش (؟) والأشيب ، فلما وصل خرج إليه أهل تيماء يريدون أسره .

فقال العباس :ـــ

ـــ انظروا فإنى رسول إلى الملك ، أعطونى الإذن للدخول إليه .

وسار العباس فى قومه ، وأخبروا الملك بحضوره ، فأمر باستضافتهم ، لكنه لم يرد أن يراهم حتى أخبروه بأنهم رسل محمد ﷺ . حينئذ أذن لهم بالدخول ، فدخلوا إليه .

ورأوه جالساً على العرش ، فنظر إلى العباس وقال له :ـــ

ـــ فيم جئت يا عباس .

قال العباس :ـــ

ـــ أيها الملك ، لقد جئنا بالبيان والهدى والأمر الحميد ، وعليك أن تترك ما أنت فيه ، وتتخذ شجرة الأيمان ثم نهض العباس على قدميه وقال له :ـــ

ـــ جئت إليك بالهدى يا ابن حنقر ، ويح هؤلاء الذين يعلنون (مخالفتهم) له ، فائت بجوابك ؛ إن أرت أن تكون تقياً صالحاً لهذا متبعاً للحق . فقد جئت أهديك بهذه الرسالة فلا تكن غافلا لأنك تعبد الشيطان لعنه الله

وأعطاه الرسالة ، فلما عرف ماجاء فيها نزع التاج من فوق رأسه واللآلىء التى كانت على جبهته ، ووقع من فوق كرسى العرش مغشيا عليه ، وخار كما يخور الثور بين الأبقار.

حينئذ هرب منه قومه ، فيما عدا العباس الذى ظل ينتظر الجواب .

فلما فاق من غشيته أعاد التاج إلى رأسه ورجع ليجلس على عرشه وقال :ــ

ــ ويل لك ، أو مثلى يهدد بالحرب والمعارك ؟

وعندئذ أمر بأسر أصحاب محمد عليه السلام ، ثم كتب إلى ملوك العرب ليخرجوا معه فى حرب محمد بن عبد الله ، فجاءوا إليه من كل حدب وصوب ، فقال لهم :ــ

ــ يا معشر العرب ، إن يتيم بنى غالب محمد قد بعث لنا بكتاب ، وطلب منا ماطلبه من الآخرين ، ولن يبلغ من هذا شيئاً إلا بابن عمه ابن أبى طالب ، وأريد أن أختار منكم فارساً مثله كى يعيد له الجواب .

فقالوا جميعاً :ــ

ــ أيها الملك القوى المكرم ، لم تنجب العرب بطلاً شجاعاً ، ولا أسدا هصوراً ولا فارساً أعظم من الأخضر بن مشفق ، فارس العرب الذى يقدمونه للنزال إذا استبد الخوف بالأبطال .

عندئذ كتب له الملك خطاباً يقول :ــ

«من الملك ، صاحب الإلهة الكبرى ، ملك تنوخ الأشيب بن حنقر العراشر الشهير ، إلى الفارس المكرم الأخضر . تعرف جيداً ما فعله محمد بن عبد الله من تحطيم الأصنام ، وتكسير هبل واللات والعزى ، وقتل حسام بن العطار (؟) وطنطرير (؟) وغيرهم كثيرين من الفرسان الشجعان . وقد كتب لى كتابا ، ولدى هنا جماعة من قومه ، وأنا أريد وأثق فيك كى تخرج لحربه وقتال فرسانه ، فلو قتلت عليا وهبتك ستمائة من الخيل ومائتين من الإبل ومائة عصابة رقيقة وخمسين أوقية من الفضة»

وأغلق الخطاب وأعطاه لواحد من رجاله يدعى الحام وكان مشاءاً ، فسار بالخطاب حتى سلمه للأخضر .

فلما قرأ الخطاب وما جاء فيه صاح صيحة اجتمع لها كل قومه ، وكانوا عشرة آلاف فارس فقدم معهم إلى تيماء

فلما جاء الأشيب وأخبروه بحضور الأخضر أمر بإعداد لحوم وطعام كثير ، وبأن

يخرج من قومه عشرة آلاف فارس ليذهبوا إلى حرب محمد بن عبد الله، وأطلق سراح أصحاب محمد وكتب لهم كتاباً يقول فيه :ـــ

« بسم الملك العظيم الذى يقال له الأشيب، إليك يا محمد بن عبد الله، أما بعد يا يتيم قريش، فقد قرأت كتابك وفهمت خطابك وحديثك، وذكرتنى بما كنت قد نسيت. أما قولك بأنك ستلقانى بجيوشك الضخمة، وأنك انتصرت بهم فى المعارك يوم بدر وحنين فو اللات والعزى لأسوقن إلى أرضك جيوشاً تدخل مقدمتها أرضك ومؤخرتها فى أرضنا، ثم لأسيرن إليك »

ثم ختم الكتاب وأعطاه للعباس، وأمره بالسير. فسار العباس بالكتاب مع أصحابه وبلغوا المدينة وأعطوا الكتاب للنبى ﷺ فقرأه يوم الجمعة من فوق المنبر.

فلما سمع المسلمون ذلك قالوا له :ـــ

ـــ يا رسول الله، نذهب إليه ونحاربه حتى ولو كان معه فرسان كبار وخلق كثير.

عندئذ أمر النبى ﷺ أن يستعدوا للخروج بعد ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع خرج معهم إلى أرض تيماء، وهم يرفعون الأعلام ويركبون الخيل، وقد كتب على كل علم « لا إله إلا الله، محمد رسول الله »

وكان على لم يذهب إلى هذه المعركة، ووضع النبى عليه السلام عصابة طولها مائة وسبعون ذراعا، وضعها له حسان بن ثابت، وبعد أن وضعها تمنطق بسيف كتب عليه : « إن الله وملائكته يصلون على النبى، ذلكم حكم الله يحكم بينكم »

ثم ركب جواده السرحان، وخرج مع أصحابه فوصلوا إلى أرض ايماء.

فلما سمع الأشيب أن محمدا ﷺ قد جاء، أمر أن يخرج لمبارزة أصحاب محمد رجل يدعى المقدام، وكان قائداً شهيراً ومعه عشرة آلاف فارس، فأرسله ليحارب محمداً عليه السلام. فاشتبكا فى معركة طاحنة حتى غلب وانتصر محمد ﷺ، وعاد المقدام منهزما فذهب إلى الأشيب وقال له :ـــ

ـــ أيها الملك، اعلم أن محمداً قد جاء بفرسان أشداء. وباتوا تلك الليلة، فلما

أصبح الله بصباح الخير، أرسل النبى ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وسعد بن أبى وقاص وعمار بن ياسر القرشي إلى المقدم بن الأزور الكندى وقال لهم :ـ

ـ سيروا واعرفوا ماذا يفعل الأشيب .

فساروا حتى وصلوا قرب مدينة الأشيب ، فلما أشرفوا عليها رأوا الأخضر يخرج عن المدينة بجيوشه ، فلما رآهم الصحابة صعدوا على هضبة عالية ، فهاجمهم الأخضر مع قومه ، فعاد الصحابة هاربين وتبعهم بجيشه حتى بلغ جيش محمد ﷺ والمسلمين الذين أخذوا يرمونهم بالنبال ، فرجع الأخضر مع قواته وأقام بجيشه .

ثم لم يلبث أن خرج إلى الميدان بين الجيشين وصاح قائلاً :ـ

ـ يا أصحاب محمد، أوفيكم من يخرج إلى النزال ؟

فخرج إليه أحد المسلمين وكان يدعى العطب ، فتصارعا طويلاً وحمل عليه الأخضر وضربه ضربة خر منها صريعاً على الأرض وسارع الله به إلى الجنة .

ثم عاد وطلب النزال، فخرج إليه مسلم يدعى أحد، وجاهده جهاداً حقا وتصارعا طويلاً حتى اشتد عليه الأخضر بضربة سقط لها على الأرض قتيلاً يرحمه الله .

ولم يزل يخرج إليه واحد إثر الآخر حتى أصبحو أربعة عشر فارسا ماتوا جميعاً رحمهم الله .

عندئذ فزع المسلمون ، ثم عاد الأخضر يطلب النزال قائلاً :ـ

ـ يا محمد، أين اليث المعلم بالعجائب ، الأسد المحمود الذى يريحك فى الشدائد ، على بن أبى طالب ؟

فلم يجبه أحد، وأخذ يسير بين الجيشين وهو يقول :ـ

ـ أين الفارس المغوار، فلى رغبة فى لقائه ونزاله ؟ مرحباً بأن يخرج إلى زوج فاطمة .

فلم يجبه أحد، ثم عاد الأخضر إلى جيشه

عندئذ اجتمع المسلمون حول النبى ﷺ وقالوا له :ــ

ــ يارسول الله ، ابعث لعلى رسولاً عسى أن يكشف الله عنا البلاء ، ونحارب نحن قومه .

عندئذ نادى النبى حجر بن عدى وقال له :ــ

ــ اركب مع مائة فارس بسرعة ، وأحضر لى علياً .

فركب حجر بالليل ، حتى لا يشعر به الكفار. ورآه أحد الكفار من قوم الأخضر فذهب يخبر الأخضر وقال له :ــ

ــ اعلم أنهم ذاهبوا ينادون الفارس المغوار.

قال الأخضر لواحد من أبناء عمه :ــ

ــ خذ جماعة من الفرسان واذهب على إثرهم حتى تأسر الصحابة الذين مضوا لعلى .

فركب فى رجاله ، وذهب فى أعقابهم ، فلما أصبح النهار أدركهم عند نهر ذى منابع وثمار، وأسر جميع الفرسان المائة الذين كانوا فى طريقهم لعلى .

قال راوى الغزوة ؛ وفى تلك الليلة التى أسر فيها المسلمون رأى على فى المنام أن النبى ﷺ يخبره بكل ماحدث مع الأخضر، وما كان يقوله ، وكيف كان ينادى عليا فى الميدان .

فلما استيقظ على أدرك أن رسول الله ﷺ فى حرج شديد ، فنهض على ، وركب حصانه وخرج من مدينة رسول الله ، وسار، فطوى له الله الطريق والأرض ، فوصل على إليهم ، إلى النهر الذى أسر عنده الفرسان المائة ، فأنصت على فسمع حجر بن عدى وهو يقول :ــ

ــ يارب ، اعنا بيدى على .

فلما سمع على هذه الكلمات ودعوته عرفه وهمز جواده بالمهماز فقفز الجواد إلى الأمام مثل الأسد ، وهبط بينهم على ففك وثاق حجر ومن معه وقتل من الكفار مقتلة كبيرة ، وأسر معظمهم وفر الباقون .

عندئذ حكى حجر لعلى ما كان يقوله الأخضر، وكيف كان ينادى عليه، فلما سمع على ذلك ضحك وقال :

ــ يا حجر، خذ أسلاب الموتى والأسرى واحملهم للنبى عليه السلام، وأنا سأذهب فى الطليعة من ناحية أخرى، وأخبر النبى عليه السلام بما حدث لك كى يستعدوا للنزال .

وسار على، ومشى حجر مع قومه، فوصل على ومعه أسرى كثيرون .

فلما رأى النبى ﷺ عليا قال :ــ

ــ الله أكبر، ها أنذا أرى عليا فى المعركة . واحتضنه النبى ﷺ، وقبل بين عينيه، وقال له :ــ

ــ نعم ما جئت يا أبا الحسن، فأنت الذى تزيل الشدة من وجهى .

ثم أمر على بأن تنصب خيمته مقابل خيمة الأخضر، وفرح المسلمون جميعاً بقدوم على .

وكان على قد قتل ابن عم الأخضر فى ذلك الصباح، فغضب لهذا الأخضر من على غضباً شديداً، والتف أصحاب الأخضر حوله .

وقالوا له :ــ

ــ ما رأيك أيها القائد، أن تلك الخيمة لعلى ؟

قال :ــ

ــ من له مشورة منكم فليتقدم بها .

قال شيخ عجوز :ــ

ــ أو رأيتم عليا فى موقعة الصباح الضروس ؟

قالوا :ــ

ــ أجل وهو فارس مغوار غلاب .

قالوا :ــ

ــ فماذا ترى من مشورة أيها الشيخ .

قال لهم العجوز:ــ

ــ يبدو لى أننا نأخذ خمسة فرسان شجعان مختارين، فيخرجون إلى الميدان، ويطلبون نزال خمسة آخرين، فإذا أسروهم عادوا فأطلقوا سراح الخمسة الذين أسروهم، وهذا يكسر شوكة على ويخيفهم منا.

قالوا :ــ

ــ نعم المشورة هذه.

فلما أصبح الصباح، اختاروا خمسة فرسان، فخرجوا إلى الميدان، وطلبوا النزال مع خمسة آخرين من أصحاب محمد، فخرجوا إليهم وتقاتلوا، فأسروا أصحاب محمد ثم أطلقوهم فلما رأى النبى ذلك نظر إلى على وقال :ــ

ــ يا على، أولم تر ما فعله الكفار؟

قال :ــ

ــ بلى يا رسول الله، لكن ومن بعثك بالحق لأرينك اليوم العجائب، وأعظم من هذا بكثير حتى ترضى يا رسول الله.

ثم لم يلبث أن وضع سلاحه وامتطى جواده وخرج إليهم يصيح فى الفرسان الخمسة حتى أسرهم جميعاً، ثم أطلق سراحهم.

فلما رأى الأخضر ذلك اشتد به الغيظ ووضع سلاحه وركب جواده وخرج إلى الميدان وحمل على على حملة حقيقية، وظلا يتقاتلان ساعة من الزمان.

ثم صاح على ضد الأخضر صيحة ثانية وأمسك بالسيف فى يده اليسرى ودخل عليه وأمسك به من فوق سرجه وشد طوقه وقذفه على الأرض وقفز فوقه وأمسك به.

ثم انثنى إلى المسلمين وقال :ــ

ــ احملوا عليهم.

فهجموا جميعاً بالسيوف الباترة وارتفع الغبار واشتعل أوار المعركة، وارتفعت كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

فلما رأى الكفار الأخضر وقد وقع أسيراً صاحوا بالويل والهلاك.

وعندما سمع الملك بذلك وقع مغشيا عليه ، حتى إذا أفاق قال لهم :ـــ

ـــ يا معشر العرب ، ماذا لديكم من مشورة ؟

فنهض عجوز وقال :ـــ

ـــ أيها الملك والسيد العظيم ، لقد رأيتنى فى معارك كثيرة ، ورأيتنى فى مآزق شديدة ، بيد أنى لم أر مطلقا مثل الأمس ، ومع ذلك فإنى أرى أن تبعث له رسولاً كى يأتى لنزال الربة ، فإن غلبها آمنا بالله وبرسوله .

قال الملك الأشيب :ـــ

ـــ أيها العجوز ، إنى أقبل مشورتك ، لكن من يذهب إليه ليحمل الرسالة ؟

قال :ـــ

ـــ أنا أذهب أيها الملك .

وركب جملاً ، ومشى العجوز إلى النبى ﷺ وقال له :ـــ

ـــ يا رسول الله ، يقول الأشيب ابعث عليا ليقاتل ربتنا ، فإن غلبها آمنا بالله ربا واتخذناك رسولا ونبياً حقا .

فلما سمع النبى ﷺ ذلك التفت إلى على وقال له :ـــ

ـــ ما رأيك يا على فى هذا ؟

قال :ـــ

ـــ أن أذهب يا رسول الله ، حتى ولو كان هناك كثير من الجن .

وركب على فى ألف فارس ، وقال له النبى عليه السلام :ـــ

ـــ اذهب يا على وكسرها ، وحطمها والله يعينك عليها .

فسار على ، وفعل ما أمره به النبى ﷺ .

ثم خرج الأشيب إلى ظاهر المدينة ، وأمر بأن يحضروا له صنم الربة فأحضروه ، وجاء على فى ألف فارس ، فلما بلغوا الصنم أحاط به الشياطين والتفوا حوله وأثاروا غبارا كثيفا ، واضطربت الأرض وخرجت منها جيوش من الشياطين والجن الكثرين .

فلما رأى الصحابه الذين جاءوا مع على كل تلك الجيوش من الجن هربوا جميعاً وتركوا عليا وحده .

فلما رأى على ذلك ترجل من فوق جواده وقال :ـــ

ـــ أنا على ، الفارس المغوار فى جميع الأحوال ، الباتر الشهير، الغالب بقوة الله ربى .

يا معشر الجن اثبتوا لى وتحملوا ما سترونه منى من عذاب .

وحمل على على الجن ، وتقاتل معهم ساعة طويلة حتى هزمهم ، وهرب كل الجن ولم يبق منهم أمام على أحد .

ومضى على إلى صنم الربة وقذفه على الأرض وداسه بقدميه وحطمه بسيفه ذى الفقار حتى لم يبق منه شىء .

فلما رأى الأشيب ما فعله على بصنم الربة أسلم أمام على، وأسلم جميع قومه وفرسانه وأبناء عمومته .

ثم عاد الأشيب إلى على وقال له :ـــ

ـــ اذهب إلى محمد، وأبلغه سلامى وغدا سأذهب إليه إن شاء الله .

فذهب على إلى النبى ﷺ وأخبره بما فعل ، وبما حدث لصنم الربة.

فلما أصبح الله بصباح الخير، جاءوا إلى النبى ﷺ ، وأكدوا إسلامهم بشدة، وأصبحوا جميعاً مسلمين ومن بينهم الأخضر.

وعاد النبى ﷺ إلى مدينته فرحا مسرورا منتصراً .

ولم يزل الأشيب والأخضر يحاربون معه حتى جاءهم الموت .

هذا مابلغنا من الحديث ، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وسلم تسليماً .

حديث قصر الذهب
وقصة الثعبان مع على بن أبى طالب

بسم الله الرحمن الرحيم، حديث قصر الذهب وقصة الثعبان مع على بن أبى طالب رضى الله عنه.

قال: روى لنا إسحق بن عبد الله، عن إسحق بن مالك بن قيصر جابر، عن عبد الله، عن أبى هريرة رضى الله عنه [عن] أنس بن مالك، عن معاذ، عن وهب بن منبه رحمه الله، عن النبى محمد ﷺ قال:ـ
أقام بنا رسول الله صلاة العصر ورأيناه ينظر للسماء ورأينا جبينه يتفصد عرقا، فعلمنا حينئذ أن جبريل عليه السلام قد نزل عليه.

قلنا:ـ
ـ يا حبيبنا يا رسول الله، أخبرنا بما أخبرك به أخوك جبريل.
فالتفت بوجهه المشرق إلينا وبدأ يحكى لنا خبر الأعرابى الذى سيأتى إلينا طالباً منا العون والنجدة.
ـ فاستقبلوه وقدموا له أنفسكم وأعدوا الجواب، فإن هذا الأعرابى سيدخل عليكم فى يومكم هذا.

فوالله لم يكد النبى يتم كلامه ولا يكمل حديثه حتى أطل علينا أعرابى يركب ناقة تقذف الزبد من مشفرها مثل القطن المندوف، ولم يزل الأعرابى راكباً حتى وقف على باب المسجد وألقى السلام:ـ

ـــ سلام الخيرات عليكم ، وغناء الطيور لكم ، وكيف لا يكون ذلك وبينكم النبى المصطفى محمد ؟

عندئذ برزله الإمام الصديق ، الملقب بالعتيق ، والمسمى بأبى بكر الصديق وقال له :ـــ

ـــ يا أخا العرب ، ألا ترى الوجه المشرق للسيد الذى يجلس بجوار المنبر؟ ، هذا هو محمد المصطفى ، صلى الله عليه ما طلعت الشمس وازدهى القمر.

فترجل الأعرابى من فوق ناقته ، وقال له :ـــ

ـــ السلام عليك يامحمد خاصة ، وعلى الصحابة عامة .

ـــ يا صاحب السلام ، من أنت ؟

قال له :ـــ

ـــ أنا عربى من بنى قيس الكرام ، لقد آمنا بك ولم نرك ، ولقد صدقنا قولك ، وبعثت لنا جماعة من قومك ، فأقرأونا القرآن وأفهمونا البيان ، وبينوا لنا النور من الظلام ، وهدونا إلى صراط الحق ، وعرفنا أنك النبى محمد المصطفى ، فاعلم يا رسول الله ، أن هناك حولنا وبجوارنا قلعة يقال لها « قصر الذهب » ، وفيها ثعبان عظيم أهلك شاءنا وأبقارنا وإبلنا ، وقطع الطرق وأكل الرّكاب والمشاة وأذل العباد ، ولم تفلح معه أية قوة .

فبشرفك العظيم وكرمك السابغ ابعث لنا من يكفينا ويحمينا من شره وأذاه ، فنحن مع الله ومعك يا رسول الله .

فلما سمع النبى محمد ، ﷺ ذلك قال له :

ـــ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيمّ .

قال [الراوى] فدعا بنى الله المقداد بن الأسود الكندى وعماربن ياسرالقرشى وأبا حذيفة الأنصارى ، ولم يزالوا ينهضون حتى اكتملوا أمام رسول الله ألف فارس .

ودعا الفضل بن العباس ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، فلبس عدة

الحرب وركب جواده ، وكذلك فعل العباس ، وجاءا معا الى حيث كان رسول الله . فقدم النبى عليه السلام على بن أبى طالب قائداً للجيش ، فتقدم أمام الناس وأخذ يقول :ــ

ــ أجيبوا ، فإن الحسنى لمن يجيب نداء الرحمن ، (يوم) لا زاد إلا خشية الله ، ولا فزع عند لقاء الصراط المستقيم ، ولا دين إلا دين محمد ، والحزن لمن اتبع دينا آخر غير دين الإسلام .

قال الراوى :ــ

والتفت على بن أبى طالب رضى الله عنه والراية فى يده اليمنى ، وأخذ يدور ويقود الناس كى يمضوا قدماً حتى طلعوا على قبيلة من بنى قيس ، فخرجوا لاستقبالهم بترحيب شديد وتشريف كبير ، وضربوا رحالهم وقدموا لهم الهدايا وأعدوا الأطعمة الكريمة ونحروا كثيرا من الشياه والأبقار من أجل على بن أبى طالب وأصحابه ، فأكل منها على ورفاقه .

وبعد أن طعموا قال على بن أبى طالب :ــ

ــ كم يبعد من هنا قصر الذهب ، ومن ذا يهدينا إليه ؟

فقام حينئذ شيخ طاعن فى السن وقال لهم :ــ

ــ أيها السادة ، أنا أدلكم على مكانه ، وأنا أعرف الطريق من هنا إلى قصر الذهب .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :ــ

ــ أيها الشيخ الكريم ، حدثنى بأوصاف وأخبار ذلك القصر

قال له العجوز :ــ .

ــ على الرحب والسعة يا على ، إنه قصر حصين ، أبوابه من حديد ، وأرضه من الأرجوان والعنبر . وقد بناه شداد بن عاد بن ثمود بن الملك عقين(؟) فى زمن العماليق ، وشيده ورفع بروجه الشاهقة ، وزارها ، وقد جعل لهذا القصر بابان فى مكانين مختلفين ، وشيدت حوله الأسوار العالية المنيعة ، وقد طلى بالجص حتى لتبدو

أرضه من الخزف وأبوابه من العاج، وكسيت أجزاؤه بالذهب وأركانه بالفضه وأعمدته بالنحاس، ومواسيره بالرصاص، وأبراج هذا القصر من الرخام الأبيض والملون، وقد شيدت جدرانه عظيمة الارتفاع، تحيط بها وتلمع من حولها الأنهار الجارية والأعشاب الخضراء والأشجار الباسقة والينابيع والسواقى. وقد أقيم ذلك القصر فى مفترق طرق كثيرة، بعضها يذهب إلى اليمن وبعضها يقود إلى الشام، وكان ينزل به قبل الآن كثير من الملوك والأبطال، وذاع أمره فى شرق الأرض وغربها حتى وصل إليه هذا الثعبان فأهلك حرثها وزرعها وماشيتها، وقطع الطرق وأفقر القرى والأماكن التى تحيط بالقصر.

قال الراوى :ــ

فلما سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه ذلك هتف وقال :ــ

ــ أين خالد بن الوليد المخزومى ؟

فأجابه، ودعا المقداد بن الأسود الكندى وعمار بن ياسر القرشى وعمر بن أمية الضمرى وقال لهم :ــ

ــ اركبوا خيلكم واذهبوا إلى القصر وائتونى بأخباره.

فركب هؤلاء الفرسان وتقدموا يشقون طريقهم فى أرض وعرة جرداء ليس فيها إنسان، أرض صلبه سوداء ليس فيها شخص يبادلونه الكلام ولا رقيب يسألونه عن الطريق إلا أسوأ الخلق من أبناء إبليس اللعين.

وساروا حتى أشرفوا على «قصر الذهب» ورأوا أبواب القصر، وكلما اقتربوا منه رأوا عمودا عالياً من الدخان ينبعث من داخل القصر فتوقف خالد وأصحابه حوله.

وقال عمار:ــ

ــ نحن ننظر إلى باب القصر ونرى جبلا أسود يخرج من القصر مثل الليل الحالك، والدخان يأتى إلينا كأنه جبل، ورأينا ونحن هكذا شكل ثعبان بالغ الضخامة يطل برأسه من باب القصر، يفتح فما كأنه كهف، وتخرج من فمه أعمدة من الدخان تحرق ماحولها من عشب ونبات أخضر، ونسمع من حوله صوتا كأنه رعد شديد.

ثم ظهر لنا ثعبان عظيم يزحف تارة على بطنه وتارة على ظهره ، فأخذنا الخوف والرعب واضطربنا وارتجفنا و عدنا أدراجنا هاربين إلى حيث كان على بن أبى طالب رضى الله عنه .

فلما رآنا على نهض على قدميه وقال :ــ
ــ لم أرى وجوهكم مصفرة وألوانكم مغبرة ؟
حينئذ وصف له خالد بن الوليد صفة الثعبان والنار والدخان .
قال على :ــ
ــ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .
وركب عندئذ جواده ، وأمر الناس بالركوب ، وأخذ يقطع الطريق معهم طولا وعرضنا حتى أشرفوا على « قصر الذهب » فرأوا قصراً شاهقاً يشع بنوره من كل جانب ومكان ، فحطوا رحالهم ، ووضعوا الكرسى والبساط لعلى بن أبى طالب وجلسوا حوله عن يمينه ويساره .

ولم تمض ساعة حتى قال عمار بن ياسر القرشى ــ
ــ وبينما نحن جالسين هكذا إذ اندلعت علينا من باب القصر نار مرتفعة ، فرأينا شررها كأنه جبال عالية تطير فى الهواء ، وغدت الأرض كلها كأنها جمرة من نار ، وأدركتنا النار والدخان ، فلما ابتعد عنا ذلك لم يبق منا أحد إلا أصيب بالكرب وسال منه العرق ، واشتد بنا الفزع ، وعظم علينا الأمر وهربت منا الخيل وقطعت الأعنة وعادت أدراجها على بعد ميل ، ولم يبق من الخيل سوى جواد النبى محمد ﷺ الذى ظل واقفا أمام على بن أبى طالب .

قال [الراوى] فلما رأى على ذلك صاح بأعلى صوته :ــ
ــ أيها الخيل المختبىء من الشدة ، أجيبوا ، وأطيعوا ابن عم رسول الله ، وعودوا إلى أصحابكم .
قال الراوى ، فلما سمعت الخيل كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه رجعت ووقفت أمامه ، فنهض على إليها ومسح وجوهها بكمه وزال عنها ماكان بها من خوف وفزع .

عندئذ قال لنا على رضى الله عنه :ــ
ــ أركبوا خيلكم
فركبنا .
قال راوى الحديث :ــ
ــ فأخذنا الفزع والخوف مما رأينا من هذا الأمر العظيم .
ثم قال رضى الله عنه :ــ
ــ لا يأخذنكم الفزع والخوف من هذا الأمر، ولا تخافن مما رأيتم ، فوالله لا يكن عندكم شك فى أنكم سترون اليوم أمراً أعظم هولا يشيب الصغير وتعجب منه الملائكة فى السماوات .

قال خالد بن الوليد :ــ
ــ وبينما كان على رضى الله عنه يتحدث إلينا ونتحدث إليه إذ خرج علينا من باب القصر دخان أسود سد بسواده ما بين المشرق والمغرب ، وأحاط بنا الدخان من على يميننا ويسارنا حتى لا يرى أحدنا الآخر من شدته ، فارتجفنا وسمعنا أصواتاً عظيمة ودويا هائلا اهتزت له الأرض بطولها وعرضها ، واشتد بنا الخوف والفزع وأيقنا جميعاً بالهلاك ، بينما على رضى الله عنه يواسينا بحديثه ، ويلتفت إلينا بكلامه الطيب ، دون أن يظهر خوفا أو فزعا مثلنا ، ولم تمض ساعة حتى تكشف ذلك لنا ، ونظرنا إلى على رضى الله عنه فإذا بغيظه يشتد ويتفاقم ، وكانت فيه علامة عندما يشتد غيظه ؛ إذ يحمر وجه ، فرؤيت عليه .

وقال خالد : وكنت جريئا عليه ، فقلت له :ــ
ــ تمالك نفسك ، ياحبيبى يا أبا الحسن ، تمالك غضبك !
فعاد إليه الصبر .
ثم قال : وعندئذ التفت إلى الزبير بن العوام وقال له :ــ
يا عبد الله ، ليس هذا مكان ركوب الخيل ولا زمانه ، فترجل من فوق حصانك .
حينئذ ترجل الزبير وقال له :ــ
ــ يا أبا الحسن ، مرنى بأمرك وسأكون لك طائعاً .

قال له على رضى الله عنه :ـ

ـ يا أبا عبد الله ، أتعيننى اليوم على لقاء الموت ؟

قال له :ـ

ـ أجل يا ابن عم رسول الله .

قال له على رضى الله عنه :ـ

ـ تأهب للموت .

وعند هذا ارتدى الزبير رداءه ، ولبس حلته المزينة بالفضة ، وامتطق سيفه ، واتخذ عصابة ملونة فتعصب بها ، وكان الزبير ممشوق القد ، فذهب ووقف عن يمين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم التفت على إلى قيس بن سعد وقال له :ـ

ـ يا عبد الله ، أو تعيننى على لقاء الموت اليوم ؟

قال له :ـ

ـ أجل ، يا ابن عم النبى ﷺ .

فقال له :ـ

ـ تأهب للموت .

عندئذ ترجل من فوق حصانه ، وارتدى زردا أملس وآخر مزيناً بالذهب ، ووضع عصابة صفراء ، وامتطق حسامه وسله من غمده ، وأخذ مغفرا من الخيرزان ، ووقف على يمين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم ألتفت إلى المقداذ بن الأسود الكندى وإلى عمار بن ياسر القرشى وقال لهما مثل ماقال للآخرين

ثم أخذوا يستعدون وينتظمون ويقفون أمام على رضى الله عنه .

وقال لهم حينئذ :ـ

ـ ترجلوا من فوق خيولكم ، وأعيدوها للخلف .

وهكذا فعلوا .

ثم قال لهم :ـــ

ـــ يا صحابى ، لو هلكت بين يدى هذا الثعبان ، ورأيتم أنكم لا قبل لكم به ، فليهرب كل منكم إلى منجى يختبىء فيه بالداخل ويتغطى بالدرع ، فإذا عاد الثعبان إلى القصر اركبوا خيلكم واذهبوا إلى النبى محمد ﷺ وأخبروه بما حدث.

ثم ارتدى على رضى الله عنه عدة الحرب ، ووضع عصابة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، وامتطق سيفه ذا الفقار، وأمسك الدرع بيسراه وكان لعمه حمزة بن

عبد المطلب ، وذهب إلى باب القصر ، وصاح صيحة عظيمة وضرب عليه.

قال راوى الحديث :

فشعرنا من قوة صوته كأن السماء ستقع أو أن الأرض ستنشق ، أو كأن الجبال ستزول عن أماكنها .

قال عمار:ـــ

ـــ وبينما كنا كذلك إذا بباب القصر يخرج منه شرر عظيم ونار، فأصابنا فزع شديد .

[قال الراوى] عندئذ التفت إلينا على رضى الله عنه وقال :ـــ

ـــ ليس هذا العمل من فعل ثعبان من الثعابين ، ولكنه لجان شرير، لا ريب أن هذا سيد القوم ، وأن له قبائل كثيرة .

واستبد بنا الخوف والفزع ، غير على رضى الله عنه ، إذ لم يخش شيئا ، بل بادر إلى باب القصر وهو يقرأ القرآن ، وأخذت تتساقط عليه الأحجار كما لو كانت السماء ستقع عليه ، واشتد الغيظ بعلى رضى الله عنه ، فوالله ما استطعنا وما استطاع على رضى الله عنه بلوغ القصر من لهيب النار وشدة الدخان.

فلما رأى على بن أبى طالب ذلك التفت إلينا بوجه صبوح وقال :ـــ

اثبتوا وابقوا فى هذا المكان ، فورب المشرق والمغرب لن يغلبهم أحد غيرى . فلو نجوت كان ذلك من فضل الله تعالى ، ولو كانت الأخرى سيكون ذلك حكم الله

الذى لا رب سواه وهو الحى القيوم، ولو حل أجلى فأبلغوا سلامى لرسول الله وللحسن والحسين ونساء النبى ﷺ.

فلما سمع المسلمون حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه ضجوا بالبكاء.

وأجابه الزبير بن العوام فقال :ـ

ـ يا ابن عم رسول الله، وكيف يكون حالنا؟ وبأى وجه نقابل رسول الله تعالى؟ اولا نذهب معك أو نموت دونك؟

قال له على رضى الله عنه :ـ

ـ يازبير، اثبت وابق فى مكانك حتى ترى ماجرى به القلم، وما قضى به الله من قبل ومن بعد، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثم ودع على أصحابه، واقترب من باب القصر، وصاح صيحة شعرنا من قوتها أن السماء ستقع أو أن الأرض ستنشق أو أن الجبال ستزول عن مكانها.

وسمعنا صيحه آخرى من داخل القصر، واسودت الوجوه من الدخان. وفتح على رضى الله عنه باب القصر ودخله وغاب عنا ساعة. وسمعنا من داخل القصر دو يا كأنه الرعد، وبلغت الروح الحلقوم ونحن نقول :ـ

وعدك يا من لا تخيب الوعد والرجاء، يارب، ياالله، ياالله، بحق «طه» و«يس» والقرآن الكريم لا تجرح قلوبنا فى على، يارب الناس بفضل «يس»و «قل هو الله أحد» وبقدرتك لا تحزن قلب الحسن والحسين، وقد وعدت نبيك عليه الصلاة والسلام أن تعينه، وأنت إذا وعدت لا تخلف الميعاد.

قال خالد بن الوليد:

فوالله لقد رأيت الزبير يمرغ خده فى التراب ويقول :ـ

ـ لقد ضيعتم عليا يا إخوة، وكنا نتعزى به وبصوته.

وتفاقم الصياح والدخان والنار المتصاعدة، واشتد الدخان على وجه الأرض، ولم نسمع عليا ولا صوته.

فقال الزبير بن العوام :ـ

ـ تعالوا معى إلى القصر، ولننظر ماذا فعل الله بعلى رضى الله عنه، فنطل

عليه ، ولتكن لنا ثقة في قدرة الله وفى كرامة نبيه ﷺ ، ونخبره بما حدث على وجه اليقين

قال الراوى :ـــ

فلما اقتربنا من باب القصر اندلعت علينا النار من كل ناحية ، واشتعلت أمامنا وخلفنا وتحتنا وفى كل ناحية ، وخرج علينا من باب القصر تنين عظيم يقطع الأشجار التى يلقاها ، ويحرق الأرض بنفسه وهو يلهث ، ويسمع صوته من بعيد كأنه رعد شديد ، وينبعث من عينه شرر من النار ، وجاء نحونا مندفعا فهربنا إلى جب ، دخل كل منافيه وتغطى بدرعه .

وحينئذ أحاط بنا التنين الذى خرج علينا من كل ناحية ، ولم يمض إلا بعض ساعة ، ثم ذهب إلى الخيل ونفث عليها بنفسه فأحرقها جميعاً فيما عدا حصان محمد ﷺ .

قال الزبير بن العوام :ـــ

ثم مضى ، وخرجنا من الجب ، ونظرنا إلى الخيل فوجدناها رماداً تذروه الرياح ، فورب القبلة (لقد غمرنا) الحزن ، الحزن لموت على .

عندئذ أخذنا نبكى وأردنا أن نرجع ، فرأينا رجلا عجوزا مر بنا ، ضخم الهيكل ، مليح الوجه ، حسن الخلال معتدل الكلام . فلما اقترب منا قال لنا :ـــ

ـــ يا أصحاب محمد عليه السلام ، اعلموا أنكم لن تدركوا على بن أبى طالب إلا ميتا ،

فقالوا له :ـــ

أيها العجوز ، فماذا حدث له ؟

قال :

ـــ لقد اجتمع عليه من الجن الملعونين وأبطالهم ومن الشياطين الرجيمة خمسون ألفا لقتاله ، وأخذ يحاربهم وهو يدعوكم لغوثه .

فأخذنا العجب ، ولم نعد نعرف ماذا نفعل ، وأردنا أن نهدم الجدار، فإذا بمن يخرج علينا ويصيح فينا صيحة فعدنا هاربين إلى الجب ، ودخل كل منا فيه وتغطى بالدرع فوقه .

قال الراوى :ــ

ونعود إلى فاطمة ، زوجة على ، وبنت النبى محمد ﷺ ، وكانت فى بيت أم سلمة ، فكشف الله بصرها وهى نائمة ، وأراها الله على بن أبى طالب زوجها فى المنام ، والقلعة والمعجزات والجن والعفاريت ومن يتشكل بأشكال مختلفة ، ورأت ماحدث فصحت مذعورة .

فقالت لها أم سلمة :ــ

ــ يافاطمة ، ماذا بك ؟

فنهضت على رجليها وأخذت تصيح :ــ

ــ يا حبيبى ، يا (أبا) الحسن ، روحى فى روحك ، ونفسى فداء لك .

ثم جاءت إلى جاريتها فضة وقالت لها :ــ

ــ يا فضة ، اذهبى إلى المسجد ، ونادى أبى رسول الله ﷺ ، وقولى له أن يأتى لو أراد أن يدرك بنته حية ، فهى تغالب سكرات الموت وتنتقل من هذا العالم إلى الدار الآخرة .

فذهبت إلى المسجد وقالت لسعيد أن يخبر النبى عليه السلام أن يأتى لو أراد أن يدرك بنته فاطمة الزهراء حية ، قبل أن تنتقل من هذا العالم إلى الدار الآخرة ، فهى تعانى سكرات الموت .

فدخل سعيد للنبى عليه السلام بهذا الخبر، فنهض على قدميه وأخذ يعدو على وجه الأرض ونعله فى يده وهو يقول :ــ

ــ ماذا سيحدث لى ولفاطمة الزهراء ؟ وما هو الخبر الذى أفزعها ؟ وكيف يحدث هذا ولا ينزل على حبيبى جبريل ولا يخبرنى بما حدث لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وغفر له ؟

ومضى حتى دخل بيت فاطمة بنته ، فإذا بها فى سقيفة البيت والدموع تجرى على خديها كالغيث المنهر، وكان ولداها الحسن والحسين يمشيان أمامها وهى تبكى وتقول :ـ

ـ ياربى ، يا كبير، لتكن مع على ، تعينه وتحميه !

فلما رأها النبى ﷺ صاح بها قائلا :ـ

ـ يا قرة عينى ، ماذا يبكيك ؟ لا أبكى الله عينيك !

قالت :ـ

ـ يا أبت ، وكيف لا أبكى وعلى بن أبى طالب فى غمرات الهلاك .

قال النبى :ـ

ـ وكيف ذلك :ـ

قالت :ـ

ـ يا أبت ، كنت راقدة ، ورأسى فى حجر أم سلمة ، فغلبنى النوم وكشف بصرى فرأيت فى المنام على بن أبى طالب رضى الله عنه تحيط به العفاريت والجن والشياطين ، وقد اشتبك معهم فى حرب ضروس تذيب الحديد ، وقد بلغت المعركة من الاحتدام ما ترك عليا حيران لا يدرى ماذا يفعل ، غير أن يجاهد مع الجن ويقول :ـ

ـ يا فاطمة ، قولى لأبيك يبعث لى غوثا فأنا فى جهاد شديد ، فوالله وبحبه لتغيثن عليا ولترحمن ولديه الحسن والحسين ، فهما يبكيان ويقولان «ياجدنا ، نسألك بالله العظيم أن تلطف بنا وبأبينا ، بحق الله عليك» .

فأخذها النبى ﷺ إلى صدره وقبل بين عينيها ، وقال :ـ

ـ يا فاطمة ، أعرف أن ما تقولين هو الحق ، فربى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وأنا أترقب حبيبى جبريل عليه السلام كى ينزل على .

فإذا بجبريل عليه السلام ينزل عليه ويقول له :ـ

ـ السلام عليك يا محمد ، ورحمته وبركاته . يا محمد ، العلى يهديك السلام ،

ويخصك بالتكريم والاحترام، ويقول لك أبلغ فاطمة منى السلام وقل لها لا تبتئس ولا تهن ولا تحزن على زوجها على فسأرده إليها سالماً معافى، يا محمد، لقد مددته بالملائكة المقربين. وإن ملكاً من هؤلاء الذين معه لو أمر بنزع السماوات والأرض لنزعها بما فيها من أشجار وأنهار، لا تهنى ولا تحزنى ولا تبكى فإن معه القدير الجبار، إنه لا يخذل من خلق وهو على كل شيء قدير.

قال [الراوى] فلما أخبرها النبى ﷺ بما أبلغه إياه جبريل عليه السلام فرحت فرحاً عظيماً.

وعندئذ صلى النبى عليه الصلاة والسلام ركعتين وقال :ـــ

ـــ ياالله، ياربى، بحق خليلك ابراهيم، وبحق موسى الكليم، اكشف ما بينى وبين حبيبى على رضى الله عنه.

فسمع من يهتف به :ـــ

ـــ انظر يا محمد، إلى ما لم يعطه نبى مثلك من الدرجات العلى، فلقد استجيب لك، واعطيت ما طلبت منى، فر الأرض بما أردت، فقد أمرها الله بأن تطيعك قبل أن يخلق آدم عليه السلام بألف عام. فإذا جن الليل، ونامت العيون، ولم يبق فى البيتين (الملكوتين) إلا الحى القيوم؛ فافعل ما تريد يا محمد.

فلما دجا الليل، ونامت الخلائق، أمسك فاطمة من يديها، والحسن والحسين، وصعد بهم إلى ربوة عبدالله الأنصارى، لأنها كانت أعلى ربوة فى المدينة، وصاح بالأرض أن تطوى، وأن تحضر القصر وأبوابه وحجراته وتنينه.

فإذا بالأرض تطوى، حتى أصبح القصر على مقربة أربعين ذراعاً من المدينة، ونظر رسول الله ﷺ إلى القصر، وإلى على بن أبى طالب رضى الله عنه، وإلى الجن والعفاريت والشياطين المحيطين بعلى بن أبى طالب من كل ناحية ومكان، وعلى يثخن فيهم الضرب عن يمين وشمال.

فنادى النبى محمد ﷺ :ـــ

ـــ دع قتل الجن والعفاريت ، وعد لقتل التنين الملعون المجهول ، فهو ملك هذا الفريق ، وستغلبه بإذن الله .

فسمع على رضى الله عنه صوت النبى ﷺ ، فعاد لقتل التنين ، وصاح به صيحة مدوية ، وحمل عليه بسيف النبى عليه السلام ، وأعانه عليه جبريل عليه السلام ليقتله ، فضربه ضربة شطرته نصفين ، فذهب شطر فى الشرق والآخر فى الغرب .

فلما رأى الجن أن ملكهم قد مات جاءوا إلى على وحملوا عليه ، فأخذ على يقول :ـــ

ـــ وحق الله ، لن أخشاكم ولو كنتم أكثر ، فإن الله معى ، وسيعيننى عليكم .

وشرع على يخترقهم ويحمل عليهم بشدة فيدخل فى وسطهم ويخرج من مؤخرتهم ، ويفعل فيهم ما يفعل الريح العاصف فى البحر الهائج ، والنار العاتية فى الحطب الجاف . وأخذت الملائكة تعينه فى القتال ، ولم يزل يضرب فيهم حتى هزمهم ، وجرت الدماء بين يديه كا لأنهار الجارية .

عندئذ صاحت الجماعة :ـــ

ـــ اعط الأمان يا على .

فلما رفع عنهم السيف صاروا مسلمين بين يدى على بن أبى طالب ، وأمر النبى ﷺ الأرض أن تعود بالقصر إلى مكانه ، فرجعت قبل أن يرتد طرف العين مسيرة ثمانية أيام .

وخرج على رضى الله عنه من القصر فلم يجد أصحابه ، فذهب إلى الجب ونادى عليهم ، فلما عرفوا صوت على رضى الله عنه خرجوا إليه وعانقوه وقبلوا بين عينيه وقالوا :ـــ

ـــ الحمد لله الذى أنعم علينا بعلى بن أبى طالب .

وجاء معهم إلى القصر ، فلما أصبحو بداخله نظروا إلى وسطه فرأوا الدماء تنهمر كالطوفان .

وإذا بمناد ينادى ويقول :ـــ

ــ أبشر يا على ، لقد مات منهم على يديك سبعة عشر ألف من الجن والعفاريت الملعونين ، وقد أعانك الله عليهم .

قال راوى الحديث ، وبات على رضى الله عنه هذه الليلة فى القصر ، حتى إذا طلع الفجر بالخير ، توضأ من ماء القصر ، وصلى ركعتين ، وأخلى القلعة من الجن والشياطين ، وبعث لبنى قيس ، فجاءوا إليه ، ومثلوا أمامه ، وقال لهم :ــ

ــ يأمركم على بن أبى طالب أن تسكنوا القصر وتعمروه ، وتملكوا أرضه ورياضه وأشجاره .

ففعلوا ما أمرهم به على ، وعاد على إلى مدينة النبى فرحا مسروراً ، وفرحت القبائل كلها فرحا عظيماً وعجبوا من شجاعته .

وعاد إلى المدينة غانما بالسلامة ، وخرج للقائه النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، فعانقه وضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ، وكذلك فعل ابناه الحسن والحسين مع أبيهم مثلما فعل جدهم محمد ﷺ . ورجعوا إلى المسجد ، وجاء الناس لتحيته وتهنئته بالتبجيل والتكريم .

وأخذ يحدث الناس بما فعل وبما لاقى من الجن والشدائد ، وبالمعجزات العظيمة والكرامات الكبيرة ، فعجب الناس من شجاعته وفطنته رضى الله عنه . وكتب الناس كل كذلك ، وأخذوا يحدثون بأخباره وشجاعته وفطنته إلى يوم القيامة رضى الله عنه .

انتهى حديث قصر الذهب والتنين مع على بن أبى طالب ، والحمد لله .

قصة علي والصبايا الأربعين

قال ابن عباس رضي الله عنه، عندما تزوج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بفاطمة الزهراء، لم يكن لديه ولا في بيته سوى سبعة مدود من شعير.
قال علي :ـــ
ـــ يا فاطمة، المدود لسبعة أيام، اطحني كل يوم مدا، فإذا فرغت فتح الله تعالى علينا أبواب السماء والأرض.

فلما جاء الصباح ذهبت فاطمة إلى الطاحونة والحناء ما زالت في يديها، وفي اليوم التالي أرادت أن تطحن، فإذا بأربعين صبية يمررن عليها، متوشحات بالحرير واللؤلؤ والياقوت، ومعهن عجوز لعنها الله.

فلما دخلن على فاطمة، قالت لها العجوز :ـــ
ـــ يا فاطمة، أين حسنك وأين محياك الجميل وأين قدرك؟ يا فاطمة، كان بوسعك أن تتزوجي بسيد من بني قريش، وتتوشحين بمثل ما ترتديه هاتيك الصبايا من الحرائر واللؤلؤ والياقوت، لقد تزوجت من علي بن أبي طالب وفيه أربعة مثالب وعيوب :ـــ فعلي خفيف الشعر، وعلي ضخم الوسيعة، وعلي نحيف الساقين، وعلي فقير لايملك شروى نقير.

ومضوا عنها وتركنها تنتحب.
وإذا بعلي بن أبي طالب يدخل عليها، فوجدها تبكي، فقال :ـــ
ـــ يا فاطمة، لم تبكين؟
قالت :ـــ

ـ يا على، إن أهل قريش جاءوا إلى، وأخبرونى أن فيك أربع مثالب.

قال لها على :ـ

ـ وما هى تلك المثالب الأربع ؟

فقالت له :ـ

ـ يا على، قالوا لى إن لديك شعراً قليلاً.

قال على :ـ

ـ لقد قالوا لك الحق يا فاطمة، فوالله إن شعرى لقليل من كثرة ما أضع البيضة على رأسى ولا أخلعها أبداً.

ثم قالت :ـ

ـ يا على، قالوا لى إنك ذو بطن كبيرة.

قال على :ـ

ـ يا فاطمة، لقد قالوا الحق لأن أباك النبى أخبرنى أنه مدينة العلم وأنا بابها، فمن أراد أن يدخل المدينة عليه أولا أن يطرق الباب.

وقالت :ـ

ـ يا على، قالوا لى إن ساقيك نحيفتان.

قال :ـ

ـ حقا ما قالوا لك يا فاطمة، فإنى عندما أركب جوادى أحسب لجوادى سبعا، ولدرعى سبعا، ولساقى سبعا، ولرمحى سبعا، وكلهم باسل شجاع، وأجرح فى الكفار بطول عشرين شبرا.

وقالت :ـ

ـ يا على، قالوا لى إنك فقير، لا تملك القليل ولا الكثير.

قال لها على :ـ

ـ يا فاطمة، أولا تستحين من أن تعيبينى بالفقر وأبوك النبى محمد ﷺ أفقر منى ؟

فلما انتهى على من قول هذه الكلمات غضبت فاطمة غضبا شديداً، وذهبت إلى بيت أبيها النبى محمد.

فندم على على ما قال، وقال :ــ

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وقال على :ــ

ــ كيف أقابل بوجهى النبى محمد ﷺ إذا طالبنى بحق فاطمة؟

وظل هذا اليوم، واليوم الثانى والثالث لا يخرج من بيته، فلما كان اليوم الرابع، أقام على بن أبى طالب رضى الله عنه صلاة الظهر ثم رفع يديه إلى السماء وقال :ــ

ــ يارب، ياربى الأكبر، أسألك بشرف هذا النبى الكريم أن ترسل لى جيشا من الكفار يحاصر هذه المدينة من كل صوب ومكان، حتى يفرح قلب فاطمة وقلب أبيها، يا من يقول للشىء كن فيكون.

قال ابن عباس، فما انتهى على من دعائه حتى وجد طرقا على بابه.

قال على :ــ

ــ من الطارق؟

قيل له :ــ

ــ بلال بن حمامة، مؤذن النبى محمد ﷺ.

قال له على :ــ

ــ وماذا تريد يا بلال؟

قال :ــ

ــ يا على، إن النبى محمد صلى الله يدعوك.

عندئذ قال على ين أبى طالب :ــ

ــ لم يبعث لى النبى محمد ﷺ إلا لحق فاطمة، بئس هذا اليوم! كيف أقابل بوجهى النبى محمد ﷺ وصحابته؟ ثم ذهب على بن أبى طالب رضى الله عنه وبلال بن حمامة حتى وصلا بين يدى النبى محمد وصحابته، فوجد على النبى محمد ﷺ ومعه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومعاذ بن جبل وسعد ابن أبى وقاص وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم أجمعين.

وقال النبى محمد ﷺ :ـــ

ـــ يا على ، لقد أهملت المسلمين ، يا على ، اصعد فوق تلك الصومعة وانظر ماذا حل بالمسلمين .

فصعد على بن أبى طالب ونظر فرأى جيشا من الكفار يبلغ ثمانين ألف فارس قد حاصروا المدينة من كل صوب ومكان .

عندئذ فرح على بن أبى طالب بذلك وقال :ـــ

ـــ الحمد لك ياربى ، فقد استجبت لدعائى وسررت قلبى ، يا من يقول للشىء كن فيكون .

ثم نزل على بن أبى طالب من فوق الصومعة وقال للنبى محمد ﷺ :ـــ

ـــ يا رسول الله ، ماذا أمرت لهذا الجيش ؟

قال النبى محمد ﷺ :ـــ

ـــ يا على ، لقد أعددنا شيئاً .

قال على :ـــ

ـــ وما هو ذلك الشىء ؟

فقال النبى محمد :ـــ

ـــ يا على ، اليوم يوم الجمعة ، سنخطب فى المسلمين ، وغدا الأحد(!) عيد النصارى لعنهم الله ، ويوم الاثنين إن شاء الله نخرج مع المهاجرين والأنصار.

فقال على بن أبى طالب :ـــ

ـــ يا رسول الله ، تترك المدينة سبعة أيام وفيها على بن أبى طالب ، وشرف ربى وكرمه لن يخرج إليهم أحد سواى ، وثقتى فى الله أنه سيعيننى ، وهو على كل شىء قدير.

عندئذ قال الصحابة :ـــ

ـــ يا على ، إننا نخشى عليك ، لأن الجيش كبير والناس كثيرون فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه :ـــ

ـــ يا رسول الله ، أسألك معروفا .

قال النبى محمد ﷺ :ـــ

ـــ فماذا تريد يا علي؟

قال علي :ـــ

ـــ يا محمد، أناشدك أن تبعث لابنتك فاطمة وتقول لها أن تصعد إلى جدران المدينة تلك، وأن تبعث فى طلب الصبايا الأربعين والعجوز حتى يرين ماذا سيفعل ذو الشعيرات القليلة.

فقال النبى محمد ﷺ :ـــ

ـــ يا بلال، اذهب إلى فاطمة، وقل لها أن تصعد فوق أسوار المدينة وأن يأتى الصبايا الأربعون والعجوز.

وهكذا فعل بلال حتى دعا فاطمة، وطلب منها أن تصعد فوق أسوار المدينة، كذلك جاءت الصبايا الأربعون متوشحات بالحرير ومعهن العجوز لعنها الله.

ولم تكن فاطمة تلبس شيئا من ذلك، عندئذ بعث الكريم بكرمه جبريل عليه السلام كى يذهب إلى رضوان خازن الجنة ليعطيه ثوبا من ثياب الجنة لتلبسه فاطمة بين تلك الصبايا.

وكذلك فعل جبريل، فجاء بثوب من ثياب الجنة ولبسته فاطمة وعجبت الصبايا من جمال هذا الثوب.

ثم ذهب على بن أبى طالب إلى بيته يبحث عن حصانه، فوجده هزيلا ضعيفا لأنه لم يكن قد أكل شيئا منذ أربعة أيام.

قال علي :ـــ

ـــ لو طلبت جواد أبى بكر الصديق لقالوا إننى خائف، ولو طلبت جواد عمر بن الخطاب لقالوا إننى فزع، ولو طلبت جواد عثمان لقالوا إننى لا أجرؤ على الخروج.

ثم قال علي :ـــ

ـــ يا حصانى، لو فعلت معى أمرا منكرا لتركتك فى يد من يرانا ولا نراه.

عندئذ نهض الحصان، فوضع عليه السرج وشد الحزام، وامتطى سيفه وركب حصانه، وبدا كأنه أسد هصور.

وجاء حتى وصل إلى النبى محمد ﷺ فسلم عليه وقال :ـــ

ـــ افتحوا أبواب المدينة.

ففتحوا الأبواب، وقبله بين عينه وضمه إلى صدره ودعا له وقال :ـــ

ـــ اذهب يا على، لا أحزن الله المسلمين عليك.

وبكى النبى محمد ﷺ وجميع الصحابة.

وخرج على بن أبى طالب وأخذ يقول :ـــ

ـــ أنا فى سبيل الله، وفى سبيل الله أنا.

قال راوى الحديث.

ثم خرج على بن أبى طالب إلى الكفار، وحمل بجواده على عشرين فارس من أوائلهم من الشجعان، فقاتلهم وجعلهم عشرا، ثم حمل على الفرسان العشر فجعلهم خمسا..

وشد على حزام الحصان حتى عجب الجيش من فروسية على بن أبى طالب.

عندئذ قال ملك الجيش :ـــ

ـــ من يأتينى برأس هذا الفارس؟

ولم يكد الملك ينتهى من قوله حتى نهض أحد الفرسان الشجعان وقال :ـــ

ـــ أنا آتيك برأسه.

ومضى نحو على بن أبى طالب، وقال له الكافر :ـــ

ـــ من أنت أيها الفارس؟

قال على بن أبى طالب :ـــ

ـــ اسمى على طرف رمحى، فلن يعرفه إلا من يغلبنى.

وقال له على :ـــ

ـــ أيها الفارس، لماذا جئتم بهذا الجيش، وماذا تريدون من تلك المدينة؟

قال الفارس :ـــ

ــ جئنا لهدم المدينة ، ولكى نحمل رأس على بن أبى طالب ، ورأس النبى محمد « ﷺ » .

قال له على :ــ

ــ فأبشر أيها الفارس ، فإنك لو غلبت هذا الذى يحدثك فسأحضر لك رأس على ورأس النبى .

وكان لا يزال يراوده الأمل ، فهجم بسيفه وضرب عليا ضربه شديدة ،فتلقاها على ، وقال له الكافر :ــ

ــ بهذا السيف على أن آخذ رأس على بن أبى طالب ورأس النبى محمد « ﷺ » .

فاشتد الغيظ بعلى ، وصاح صيحة مدوية حتى ظن الناس أن السماء ستقع علي الأرض ، وأطلق العنان لجواده ، وضربه بسيفه ضربة شقته نصفين وشطرت حصانه كذلك ، وسارع الله بروحه إلى النار .

فتعجب الجيش المحارب ، ودهش ملكهم وقال :ــ

ــ ألا من يأتينى برأس هذا الفارس وأنا أهبه ابنتى ونصف مملكتى ؟ .

فقام إليه فارس كان من أعظمهم شجاعة وقال :ــ

ــ بشراك أيها الملك ، فسأحضر لك رأسه .

ومضى إلى على بن أبى طالب ، وأصابه بضربة كانت من أشد الضربات .

ثم قال على :ــ

ــ لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وصاح صيحة هائلة ، وضربه بسيفه ضربة فلقته كما يفلق الإنسان القلم .

ثم هتف على بن أبى طالب :ــ

ــ أنا على ، فمن لم يعرفنى سأعرفه باسمه .

فلما قال على ذلك أصابهم بالخزى والعار ، وصاح بهم :ــ

ــ فليخرج منكم الفارس إثر الآخر ، أو لتجتمعوا كلكم .

فاجتمع إليه عشرة فرسان ، فقتل منهم خمسة وهرب الآخرون .

وعاد على يهتف :ـــ

ــ اخرجوا يا أعداء الله فليس هناك اسم فوق اسمى .

ولما لم يخرج أحد ، اخترق على وسط الجيش ، واختفى فى الناس ساعة عظيمة الهول ،لم يعرف عنه فيها خبر.

وبكى النبى محمد ﷺ لفقد على .

وكان النبى قد قال لأصحابه :ـــ

ــ من يأتنى بخبر عن على بن أبى طالب وأنه قد رآه فسأكون ضامنه وكفيله بحول الله فى الجنة .

لم يلبثوا إلا قليلا حتى رأوا على بن أبى طالب يخرج من وهدة ، وثيابه كلها ملطخة بالدم ، فجاء النبى محمد ﷺ وقال له على :ـــ

ــ البشرى يا رسول الله ، فلقد انتصر المسلمون انتصارا لم يحدث مثيل له من قبل ، فابعث المسلمين يوزعون الغنائم .

فأرسلهم النبى محمد إلى الجيش ، ووزعوا المغانم بالتساوى .

قال راوى الحديث .

وأمر النبى محمد ﷺ أن يؤذنوا للعصر ، ولم يكد ينتهى الأذان حتى علموا أن الله على كل شىء قدير ، وربح المسلمون ربحا لم يشهدوا مثيلا له من قبل .

لكن عليا لم يكن تشفى نفسه إلا فاطمة ، فذهب إلى أسوار المدينة ، حيث كانت فاطمة والصبايا والعجوز ، واحتضن على فاطمة وقبلها بين عينيها .

ثم قال على :ـــ

ــ يا جماعة الصبايا ، ماذا ترين فيمن هو قليل الشعر ، ضخم الوسيعة ، نحيف الساقين . فقير ؟

فنهضت فاطمة إليه ، وقبلته بين عينيه ، وقالت له :ـــ

ــ اذهب يا على ، لا حرم الله المسلمين منك .

فقال على :ـــ

ــ يا جماعة الصبايا ، من تردد منكن قول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وأنا لها كفيل عند الله بدخول الجنة .

قلن له :ــ

ــ يا على ، اذهب إلى اليمين ، فليس بعد الأيمان كفر ، فستقول هذه الكلمات ، الثقيلة فى الوزن ، الخفيفة على اللسان ، ليفرح بهن الرحمن ، ويهرب منهن الشيطان . نحن نقول «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» .

وأسلم الصبايا الأربعون على يد على بن أبى طالب .

قال الراوى ، فقال على بن أبى طالب للعجوز !ــ

ــ هل ستقولين «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» ؟

فقالت له العجوز :ــ

ــ واللات والعزى ، لو قطعوا لسانى قطعا ، ونشرونى بالمنشار ، ما قلت هذه الكلمات ابداً .

عندئذ أمسك بها على بن أبى طالب ، وضربها ضربة شطرتها شطرين ، وسارع الله بروحها إلى النار .

ثم رجع على بن أبى طالب رضى الله عنه ، إلى النبى محمد ﷺ ، فقال النبى :ــ

ــ أى مسلم تزوج من إحدى تلكم الصبايا دخل الجنة .

وصلى الله على سيدنا محمد الكريم العليم وسلم .

ثبت المصادر والمراجع

١ ــ العربية

١ ــ ابن الأبار البلنسي: درر السمط في خبر البسط، تحقيق. د. عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب. تطوان ١٩٧٢.

٢ ــ أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب. القاهرة ١٩٨١.

٣ ــ أميريكو كاسترو: حضارة الإسلام في اسبانيا، ترجمة د. سليمان العطار القاهره ١٩٨٣.

٤ ــ ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٩.

٥ ــ ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الإلف والألاف، تحقيق د. الطاهر أحمد مكي القاهرة ١٩٨٠.

٦ ــ حسين مؤنس، دكتور: مقدمة كتاب أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر. مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد-المجلد الخامس.

٧ ــ السمر قندى، نصر بن محمد بن ابراهيم: تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٣٩ هـ.

٨ ــ شكرى محمد عياد، دكتور: البطل في الأداب والأساطير، القاهرة ١٩٧١.

٩ـ صلاح فضل، دكتور: من الرومانث الإسبانى، دراسة ونماذج، القاهرة ١٩٧٤.
١٠ـ الطاهر أحمد مكى، دكتور: ترجمة ملحمة السيد، القاهرة ١٩٨٣.
١١ـ عادل البشلاوى: الأندلسيون المواركة، القاهرة ١٩٨٣.
١٢ـ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسى: العقد الفريد، تحقيق د. مفيد محمد قميحة بيروت ١٩٨٣.
١٣ـ مارسدن جونز، دكتور: مقدمة كتاب المغازى للواقدى، مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦.
١٤ـ مجدى وهبه: معجم مصطلحات الأدب، بيروت ١٩٧٤.
١٥ـ مجهول: سيرة الإمام على بن أبى طالب، مكتبة الجمهورية بالأزهر بدون تاريخ.
١٦ـ محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، القاهرة ١٩٦٦.
١٧ـ محمد عبده حتاملة، دكتور: التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكين عمان ١٩٨٠.
١٨ـ المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على: مروج الذهب، بيروت ١٩٨٣.
١٩ـ ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى: لسان العرب، طبعة مصورة بدون تاريخ.
٢٠ـ النسائى، الإمام الحافظ أبو عبد الرحمن بن شعيب: تهذيب خصائص الإمام على بيروت ١٩٨٤.
٢١ـ نورى حمودى القيسى: الفروسية فى الشعر الجاهلى، بغداد ١٩٦٤.
٢٢ـ واشنجتن ارفنج: قصص الحمراء، ترجمة ابراهيم الإبيارى، القاهرة ١٩٥٥.
٢٣ـ الواقدى، محمد بن عمر واقد: كتاب المغازى، مطبعة اكسفورد ١٩٦٦.

٢ ـ الأجنبية :ـ

De las Cagigas, Isidero : Los Mudejares. Madrid 1948.
El Cantar de Roldan. Trad Espanola. Madrid 1980.
Galmes de Fuentes, Alvaro : Epica Arabe YE pica, Castellana. Barcelona 1978.
: El libro de les Batallas, Narraciones Epico - Caballerescas. Madrid 1975.
Carrasco Urgoiti, Maria Soledad : El moro de Granada en la literatura. Madrid. 1975.
G. Iicknor : Historia de la literaturaEspanola. Madrid 1850.
Labarta, Ana : Contratos matrimoniales entre Moriscos valencianos. Madrid 1983. Al-Qantra.
Ladero Quesada, Miguel Angel : Movimientos demograficos Yeconomicos en el Reino de Granada Anuario de Historia. Madrid 1968.
Longas, Pedro : Vida Religiosa de los Moriscos. Madrid 1915.
Janer, Florencio : condicion Social de los Moriscos de Espana. Madrid 1857.
Marcos Marin, Francisco : Poesia narrativa Arabe yepica Hispanica. Madrid 1971.
Menendez Pidal, Ramon : Cantar Mio Cid. Madrid 1957.
Morales Oliver, Luis : La novela morisca de tema granadino. Madrid 1972.
Pollmann, Leo : la epica in las literaturas Romanicas. Barcelona 1973.
Actas del coloquio Internacional Sobre literatura Aljamiado Y Morisca. Madrid 1978.
L.P. Harvey : El Mancebo de Arevalo Y la literatura Aljamiada.
W. Hoenerbach, Los Moriscos a la luz de sus documentos
L. Cardaillac. Un Aspecto de las relaciones entre Moriscos Y cristianos : Polemica Y Taqiyya.
Hegyi, Ottmar : El uso del alfabeto Arabe por menorias Musulmanas yotros aspectos.
Galmes de Fuentes: El intres literario in los escritos Aljamiado - Moriscos.

S.G. Armistead : Existio un Romancero de tradicion oral entre los Moriscos.
M. Manzanares de cirre, el capitulo de racontaciones del libro de Samarakandi.
R. Kontzi : Calcos semanticos en textos Aljamiodos.
Penella, Juan : El sentimiento religioso de los moriscos epanoles emigrados.
P. Dressendorfer : Crypto - Musulmanes en la Inquisicion de la nueva Espana.
Garcia Gomez : Palabras Pronunciadas in la clausura.

المحتويـــات

الموضوع | الصفحة

رقم الايداع	١٩٨٩/٣٤٨١
الترقيم الدولى	٣ - ٢٦٣٤ - ٠٢ - ٩٧٧

٣/٨٨/١٦

طبع بمطابع دار روتابرينت